

موسم الظل

فبراير 2019

429

رواية

تأليف: ليونورا ميانو

ترجمة: سعيد بوكرامي

مراجعة: د. أماني أيوب

موسم الظل

رواية



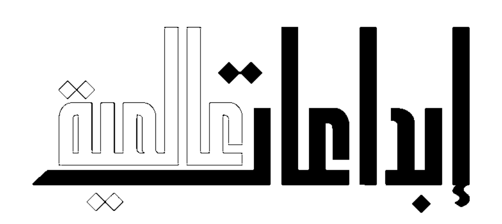
موسم الظل

رواية

تـــألـــيـــف: ليونورا ميانو

تـــرجـــمـــة: سعيد بوكرامي

مـــراجـــعـــة: د. أماني أيوب



تصدر كل شهرين عن

المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب

التنضيد والإخراج والتنفيذ: وحدة الإنتاج

في المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب

التدقيق اللغوي: وائل أحمد حمزة

www.nccal.gov.kw

ebdaat_alamia@nccal.gov.kw

ebdaat_alamia@yahoo.com

ISBN: 978-99906-0-629-4

موسم الظل

رواية



La saison De L'ombre

by:Leonora Miano

الطبعة الأولى - الكويت
المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، 2019م
إبداعات عالمية - العدد 429

صدر العدد الأول في أكتوبر 1969م
تحت اسم سلسلة من المسرح العالمي

أسسها أحمد مشاري العدواني
(1923 - 1990)

الفهرس

المقدمة

خرائـط كبـيرة وشاسـعة مـن الأدب الأفريقـي مـا تـزال مجهولـة مـن طـرف القـارئ العـربي بصفـة عامـة، وهـو كذلـك أدب غـير معـروف بشـكل جيـد مـن طـرف المهتمـين والمتخصصـين بـالأدب الأفريقـي مـن النقـاد والباحثـين.

يتضمـن الأدب الأفريقـي المكتـوب باللغـة الفرنسـية كنـوزا مـن الإبـداع السـحري والفاتـن والعميـق، يمـد جـذوره في الأدبيـات الشـفوية المسـتمدة مـن لغـات غنيـة مثـل السـواحلية، اللينغـالا، كيكونغـو، الهوسـا، سيسـوتو، خـوزا، الزولـو، أومبونـدو، كيكويـو، والكثـير غيرهـا.. كـما يسـمق بفـروع عاليـة القيمـة مـن التجـارب العالميـة في الأدب الجـمالي والإنسـاني التـي تناقـش قضايـا العبوديـة والحريـة والاسـتبداد والـصراع مـع الرجـل الأبيـض والطبيعـة والفقـر والهجـرة وغيرهـا.

لقـد منحنـا هـذا الأدب العميـق، عـلى مـدى عـدة عقـود أسـماء عالميـة وازنـة في عـالم الأدب مثـل روني كايـي وعثـمان سـيسي وبـول هازومـي داهومـي ورونيـه مـاران وليوبولـد سـيدار سـنغور وإيمـي سـيزير وتشـيكايا أوتاميـسي وмонغـو بيتـي وفردينانـد أيونـو وحميدو كاني والشـيخ كامـارا وجـان بليـا ومكسـيم دبيـكا.. هـذا عـلى سـبيل المثـال لا الحـصر.

مـن بـين الأصـوات الأدبيـة النسـوية المتميـزة نجـد الكاميرونيـة المتألقـة ليونـورا ميانـو (ولـدت بـدوالا عـام 1973) أول كاتبـة إفريقية تفـوز بجائـزة فيمينـا عـن روايتهـا «موسـم الظـل» الصـادرة عـن دار غـراسي. وهـي الروايـة السـابعة في مشـوارها الأدبي.

تسرد هذه الرواية حكاية مؤثرة عن منطقة إفريقية تدعى: المولونغو، حيث النهار يوشك أن يطرد الليل، والنسوة يقضّ مضاجعهن الخوف والحذر، لأنهن يعلمن أن هناك تهديدا حقيقيا من مجهولي هوية قريبين في الأنحاء المجاورة. لسن متأكدات تماما، لكن الفاجعة الكبيرة ستهب على القرية مقتلعة طمأنينتها إلى الأبد.. ستندلع النيران بفعل فاعل، فيضطر السكان إلى الهرب خارج القرية، لكن الصباح الموالي لن يكون أبدا مثل الصباحات السابقة. ومن هنا ستبدأ الحبكة النفسية بعد عودة السكان إلى قريتهم وبعد مغادرة الذين تسببوا في اندلاع الحريق، سيكتشفون اختفاء (عشرة فتيان وحكيمين عجوزين).

لا تحدد الرواية زمانا محددا ولا وطنا إفريقيا معينا. نحن في أفريقيا جنوب الصحراء، في مكان ما، اختفى الأبناء الاثنا عشر فجأة، والأمهات مفجوعات ينتحبن معزولات بعيدا عن القبيلة لدرء الشر والأحزان حتى لا ينتشر وباؤها ويعم باقي أراضي قبيلة آل المولونغو.

ما هذه الكارثة بالتحديد؟ أين المختطفون؟ ما نوع المسؤولية التي تتحملها الأمهات؟ هل يجب البدء بالبحث عن المفقودين وكيف؟ هل ينبغي القبول بفقدان نهائي دون جنازات؟ رجال قبائل المولونغو لا يريدون القتال بل هم مسالمون بطبعهم، لأن ثقافتهم تحترم الحياة. ومع ذلك فالشر موجود ويجب مجابهته. وشيئا فشيئا ومن خلال المبعوثين لاستكشاف وتفسير لغز اختفاء الأبناء سيعلم قائد القبيلة والنسوة إيابي وإيبيزي أن جيرانهم آل البويلي المسلحون والحاقدون هم المسؤولون عن اختفاء أبنائهم الذين قيدوا بالسلاسل واقتيدوا إلى الساحل لبيعهم لرجال يلقبون

بـ «أقـدام الدجـاج»، هـؤلاء الأجانـب قدمـوا مـن الشـمال ليتاجـروا بالسـود.

روايـة ليونـورا ميانـو ملحميـة وحزينـة تسـتعرض تاريخـا مؤلمـا مـن العبوديـة، ولأول مـرة تكشـف الروائيـة تواطـأ بعـض القبائـل الإفريقيـة في تجـارة الرقيـق بدافـع الجشـع.

هـل كتبـت ليونـورا روايـة تاريخيـة حـول تجـارة الرقيـق عـبر المحيـط الأطلـسي؟ ليسـت المعـالم واضحـة، فالحكايـة تـروي التاريخي والإنسـاني، جنبـا إلى جنـب، في أفريقيـا جنـوب الصحـراء الكـبرى. تكتبهـا بنـثر جميـل وغامـض يجمـع مـا بـين التاريخـي والمتخيـل، الحـسي والروحـي. تراودهـا فكـرة أساسـية تبثهـا طيـات الروايـة وهـي ضرورة الالتـزام والإيمـان للبقـاء عـلى قيـد الحيـاة.

هـذه الروايـة مهـداة «إلى المقيمـين في الظـل الذيـن يتدثـرون بكفـن المحيـط الأطلـسي».

المنظـور الـسردي الـذي اختارتـه ليونـورا ميانـو أصيـل وفريـد، كي لا نقـول إنـه مـن المحرمـات؛ فهـو يتحـدث عـن العبوديـة التـي تمثـل ذاكـرة جريحـة للأفارقـة المغلـوب عـلى أمرهـم وذاكـرة عـار للمجتمعـات الأوروبيـة التـي فرضـت قرونـا مـن الاسـتعمار والاسـتغلال موظفـة قبائـل إفريقيـة محاربـة ومتسـلطة ومتآمـرة. يتجسـد هـذا التاريـخ المـؤلم في حـدث اختطـاف الأبنـاء وبيعهـم عبيـدا ومكـوث الأمهـات سـجينات وجـع الفـراق.

سـتحاول الكاتبـة أن تسـترد أصـوات أمهـات صرخـن آلام الفقـدان، وبالتـالي صـوت إفريقيـا المفجوعـة بالغـزو الداهـم للاسـتعمار. ومـن خـلال الأحـداث المتسـارعة تسـلط الكاتبـة الضـوء عـلى مجموعـة مـن القبائـل عامـة وقبيلـة المولونغـو خاصـة، وهـي مجموعـة صغـيرة

مسالمة منطوية على نفسها. أجبر أجداد هذه القبيلة على الفرار من وطنهم هربا من موت محقق. ثم هناك قبيلة البويلي الشرسة، التي أصبحت تحترف صيد البشر لبيعهم للأجانب الرابضين على السواحل.

شخصيات الرواية ما هي إلا رموز عن تاريخ إفريقي معقد، ولكن لا ضرورة للاعتقاد بأن الرواية حكاية تاريخية، لأن «موسم الظل» لا تقدم لنا تأريخا لتجارة العبيد، فهذا الجانب بالكاد يتم استدعاؤه لأن الكاتبة تعطي الأولوية للصراع بين الأفارقة أنفسهم. تقدم الرواية أكثر من ذلك، فهي تكشف همجية ووحشية قبائل إفريقة لديها رغبة متغطرسة لاستغلال أفارقة آخرين.

تسعى «موسم الظل» لالتقاط لحظة تحول تراجيدية ما بين اختفاء العالم المعروف وظهور عالم جديد، ما بين عالم مسالم وعالم عدواني. وما بين عالم مستقل وحر إلى عالم مستسلم ومقيد ومدجن على الكراهية والمؤامرة.

بالنسبة لمجتمع المولونغو الذي سيجد نفسه منخرطا في مغامرة مظلمة حملت لاحقا اسم معاهدة الأطلسي، فهو لايريد سوى معرفة ما حدث للشبان والعجوزين المفقودين بعد حريق القرية. التجارة نفسها؟ أو بالأحرى الاتجار نفسه؟ لا نجد في الرواية هذا الجانب، لأن الكاتبة تركز أكثر على إيقاظ ذاكرة العالم المندثر. والتذكير بالحياة التي كان يعيشها هذا الشعب الإفريقي قبل صدمة اللقاء بالأوروبيين؟ فمن الواضح أن شعوب هذه المنطقة لم تمكث مكتوفة الأيدي في انتظار الغزو والأسر.

باختصـار، الروايـة تتحـدث عـن مجموعـة بشريـة تمكنـت مـن الاتجـار بمجموعـة بشريـة أخـرى والاسـتفادة مـن ذلـك. هـذا التعسـف الهائـل تسـبب في معانـاة واسـتعباد واجتثـات بـشر مـن أراضيهـم وثقافتهـم وجذورهـم. هـذا مـا تقدمـه روايـة «موسـم الظـل». وجهـة نظـر عـن جنـوب الصحـراء الكـبرى، وعـن هزائـم الإنسـانية، وأيضـا عـن انتصاراتهـا الهشـة. روايـة عـن المـوت والحيـاة بعـد المـوت، بطريقـة مجازيـة. حكايـة يحكيهـا الأفارقـة المسـتعبدون وأحفادهـم المنتـشرون في أنحـاء العـالم، منـذ خمسـمئة سـنة تقريبـا. حكايـة الذيـن عاشـوا في الظـل والاسـتعباد.

إلى المقيمين في الظل،
الذين يتدثّرون بالكفن الأطلسي..
إلى أولئك الذين أحبّوهم.

يا حارس، ماذا تقول عن الليل؟
يا حارس، ماذا تقول عن الليل؟
يجيب الحارس: الصباح قادم، والليل أيضاً.

(أشعيا *21*، *11* - *12*)

أية ملحمة في المستقبل
ستحيي ظلالنا المتلاشية؟

(الشاعر الهايتي فرانكيتيين، أقاصي الصوت)

الفصل الأول
عاصفة من السخام

إنهنّ لا يعرفن شيئا عمّا وقع، لكن ذلك حدث لهن فعلا وفي اللحظة نفسها.

أغمضتِ اللواتي لم يعثرن على أبنائهن أعينَهن أخيرا، بعد عدة ليال من السّهاد. لم تتم إعادة بناء كل الأكواخ بعد الحريق الكبير، لهذا وُضعن كلهن في كوخ ناء عن المساكن الأخرى، يقضين في داخله سحابات نهارهنّ يصارعن الأسى قدر استطاعتهن. ولشدة قلقهن، لم يعدن قادرات على التفوه بكلمة واحدة، فهن لا يستطعن نطق كلمة الفقدان، ولا حتى أسماء أبنائهن الذين لن يتملّين بمشاهدتهم مرة أخرى. في غياب المرشد الروحي، الذي فُقد بدوره في مكان مجهول، اتخذ المجلس القرارات التي بدت ضرورية. تمت استشارة النساء: العجائز اللواتي فقدن روابط الدم بذريتهن منذ سنوات قمرية طويلة. أولئك اللائي تضعهن العشيرة على قدم المساواة مع الرجال.

من بين المحظوظات اللائي استُمِع إليهنّ بعد المأساة، كانت إيبيزي، الزوجة الأولى للمرشد الروحي، وقد أُخِذ رأيها، على وجه الخصوص، بعين الاعتبار. باعتبارها داية القرية، حضرت العديد من عمليات التوليد، وشاهدت بعض أعضاء المجلس ترتعد فرائصهم أمامها، بينما كانوا

ينتظرون خارج الكوخ الذي ستبزغ فيه الحياة، كانوا يعضّون شفاههم، ويمضغون الأعشاب على أمل الحصول على السكينة، يهمسون متضرعين لـ «مالوبا» بأن يتم تخليص وجودهم من بين الأحياء، كم كان الاختبار، بالنسبة إليهم، غير محتمل. رأتهم يقفون ممسكين أسفل بطونهم، يهرولون، والعرق يتفصّد من جباههم، كما لو كانوا هم أنفسهم يعانون من المخاض أيضا.

شاهدتهم يتفاخرون عندما أخرجت المولود لتبرزه أمام أرواح الموتى. وإذا قدم الطفل بطريقة خاطئة، أو أسوأ من هذا، وإذا جاء إلى العالم بلا روح، فإن الداية تجفف دموع الآباء وتهدئ المخاوف بواسطة سلسلة لا نهائية من القرابين تدرأ مصائب القدر. إيبيزي أيضا مَن تُعِد خليط الأعشاب لاستخدامه عندما يُقدم الوالدان المولود الميت كقربان. هنا، تتم كتابة رمز على الجلد، حتى يتذكر الموت أنه قد سلبهم بالفعل طفلا. وأخيرا، كم رأت هذه المرأة المولدات الضعيفات يفقدن مكانتهن. لم يكن هناك أحد في مجلس الشيوخ الذين يمكن أن يثير انبهارها.

كانت هذه المرأة العجوز إذن تملك رجاحة الوجهاء. وهي من اقترحت أن يتم إيواء النساء اللائي لم يُعثَر بعد على أبنائهن تحت سقف واحد. وبذلك أعلنت، أنه سيتم احتواء آلامهم في مكان محدد بوضوح، وبالتالي لن ينتشر أساهم في أرجاء القرية جميعها: نحن نعمل بجد لنفهم ما حدث لنا، ثم سنبدأ بإعادة بناء كل شيء..

نظرا لحرصه الشديد في التفوق على نفسه، ورغبة منه في احتواء كل شيء، وافق الرئيس موكانو مومئا برأسه على حبس الأمهات الباكيات، ثم أعطى أوامره للرجال الأكثر شجاعة كي يتفقدوا الغابة المجاورة، فيمكن أن يعثروا على أدلة، يستبقون بها المزيد من الهجمات.

كان البعض يريد أن يوجه الاتهامات، ويوجه الملحوظات حول وجود

تقصير تجاه الأسلاف، مالوبا ونيامبي نفسه. ما التفسير الآخر أمام مأساة كهذه؟ لقد ابتلع المستاؤون احتجاجاتهم من دون التخلي عن التعبير عن مشاعرهم، بدا لهم من الحكمة أن يكونوا صبورين، وقبل أن يطلقوا سهامهم، سينتظرون حتى يتم إصلاح الأضرار، وبذلك سيتجنبون أن توجه إليهم أصابع الاتهام لأنهم جعلوا روح الشقاق تخترق كوخ المجلس. خلال المحادثة، التقت النظرة الصريحة للداية، عدة مرات، بنظرة البدين موتانغو، فلمحت المرأة في عيني الوجيه الجاحظتين، أمواجا عالية وصاخبة، لم يخالجها أدنى شك أنها ستنهمر على رأس الرئيس، عند الفرصة الأولى. الرجلان كلاهما أخوان، قدما إلى العالم تقريبا في اليوم نفسه، ولكنهما وُلدا من أُمَّين مختلفتين، كان بإمكانهما معا أن يكونا قائدَي المقاطعة لو كانت القوانين التي تنظم هذا المجال مغايرة. في مولونغو، تنتقل السلطة عن طريق الأم، ووحدها أم موكانو كانت من الدم الملكي.

لطالما اعتبر موتانغو هذا الأمر نوعا من الظلم. غالبا ما أشار إلى أن هذا النظام مبني على تناقض. إذا كانت النساء تُعتَبر كالأطفال حتى تصل إلى سن انقطاع الطمث، فمن السخف أن ينقلن شرف الحكم، حتى وإن كان الرجال هم الذين يمارسون السلطة العليا.

حتى ذلك الحين، لم يتمكن شقيق الحاكم من تغيير القانون، ولكن في مثل هذه الأوقات العصيبة، سيعرف كيف يعثر على الحلفاء ليقدموا له يد عون قوية. تملك إيبيزي الارتياب. وأخيرا، كان ذلك بعد قرار المجلس بأن تجمّع بعض نساء القرية في الكوخ نفسه. أولئك اللواتي لم يتم العثور على أبنائهن بعد. أما بالنسبة لأولئك اللواتي لم يعد أزواجهن، مثل الداية، فلم يعتبر الإبعاد والعزل ضروريا. وقد كانتا اثنتين فقط. الثانية هي «إليكي»، وقد كانت معالجة القرية، لكنها أصيبت بداء غامض في اليوم التالي للحريق. خلال اجتماع الشيوخ، وعندما أخذت الكلمة للحديث،

فقدت وعيها. كان لا بد من نقلها إلى مقامها، ومنذ ذلك الحين، لم يرها أحد.

* * *

فوق أراضي قبيلة مولونغو يستعد النهار لإزاحة ظلام الليل. لم تسمع بعد أغنيات الطيور التي تعلن انبلاج النور. النساء غارقات في نومهن، يحدث لهن شيء غريب في سباتهن، فبينما كانت أرواحهن تسبح في أراضي الأحلام التي تشكل بعدا آخر للواقع، حدث لهن اللقاء الغامض. فقد شرع حضور مجهول يأتي إليهن، لكل واحدة منهن. تعرفت كل واحدة منهن على الصوت الذي يتحدث إليها ضمن آلاف الأصوات. في حلمهن، كن يحنين رؤوسهن، ويمددن أعناقهن، ويحاولن اختراق هذا الظل، ومشاهدة هذا الوجه. لكن الظلام، كان سميكا، لهذا لم يستطعن تمييز أي شيء. لا توجد سوى هذه العبارة: أمي، افتحي لي، حتى أولد من جديد. يتراجعن خطوة، يصر الصوت من جديد: أمي، أسرعي، يجب أن نتصرف قبل النهار، وإلا فسيضيع كل شيء. وحتى بعيون مغمضة، يجب على النساء أن يحذرن الأصوات المجهولة. الشر موجود، يمكنه أن يتظاهر بأنه غير ذلك. من الفجر إلى الفجر، كانت دماؤهن تصرخ نحو الكائن الذي وجدن نبرته، ومع ذلك، ما العمل أمام انعدام اليقين؟ وقع مصاب جلل على القرية، كن يرفضن أن يكنّ سبب معاناة أكثر فظاعة. سلفا، تم عزلهن عن المجموعة، وإبعادهن مثل الشريرات.

وبطبيعة الحال، فقد شُرح ذلك لهن، وقد تكفلت الداية المسؤولة بذلك، مخبرة إياهن أن هذا الإجراء سيكون مؤقتا، ولن يدوم سوى وقت يتمكنُ فيه الشيوخ من فهم الوضع بشكل أفضل، ثم بعد ذلك يمكنهن العودة إلى منازلهن. لم يكن ذلك كافيا لطمأنتهن، كنّ يسرن مطأطئات الرأس، لا يتكلمن إلا قليلا مع بعضهن. كففن عن رؤية أطفالهن

الصغار، وتركن تحت حراسة ضرّاتهن. عندما يحين وقت الراحة، يضعن أعناقهن على مسند الرأس الخشبي للحفاظ على قصات الشعر المتقنة التي يستمررن في عرضها، على أمل أن تضمن استمرار جودة أحلامهن. اللحظة التي تؤول إلى الحلم تنحدر إلى تبجيل طقوسيّ. الحلم هو رحلة في حد ذاته، خارج الذات، في أعماق الأشياء وخارجها، إنه ليس مجرد زمن فحسب، بل هو أيضا مكان، مكان للانكشاف. أَنَّ من الوهم في بعض الأحيان، العالم غير المرئي يجيش أيضا بالكيانات الشريرة. لا يضع المرء رأسه في أي مكان عندما يكون على وشك أن يخوض حلمه. أنت بحاجة للداعم المناسب، مثل كائن منحوت من الأخشاب المختارة كي تلائم الروح في داخلها، والتي تليت عليها الكلمات المقدسة قبل أن تقطع. وحتى إن اتخذت كل هذه الاحتياطات، فمن غير المستحسن أن تثق بصوت تعتقد أنك قد تعرفت عليه سلفا.

التفتت النساء، بحركة واحدة، الحركة عصبية، لم يفتحن أعينهن، كان الصوت مُلِحّا، وتلاشى. الكلمات الأخيرة يتردد صداها في أعماقهن:.. أمام النهار. كل شيء سيضيع. أجفانهن المغلقة ذرفت العبرات، بينما يدسسن أيديهن بين سيقانهن وهن مقرفصات، لا يمكنهن فتحها بهذه الطريقة والسماح للظل بالعبور إلى أحشائهن. استسلمن للبكاء. حدث لهن هذا كلهن، هنا والآن. لو أن إحداهن تملّكها الضعف كي تسمح بالعبور، فإن الأخريات لن يعلمن شيئا، ولا واحدة منهن ستتحدث عن هذا الحلم، ولا واحدة ستأخذ أختا جانبا كي تهمس لها بما حدث: لقد أتى، مولودي الأول، لقد طلبني.. لن يفصحن عن أسماء أبنائهن الذين يُجهَل مصيرهم، خوفا من أن يستحوذ الشر على هذه الرعشة الخاصة. إذا كانوا لا يزالون على قيد الحياة، فهناك حاجة إلى الحذر. هذه الأسماء لن يتخلين عنها. يغنين بأجنحة من الفجر إلى الغسق، ثم يلاحقنها عندما يستسلمن

للسبات. في بعض الأحيان لا يفكرن في أي شيء آخر، إنهن لن يفصحن عنه، لقد وُضِعن جانبا حتى لا تأتي أناشيد قلوبهن المأساوية لتسمم حياة الآخرين اليومية. المحظوظات اللائي فقدن كوخا فقط، وبعض الأشياء. فتحن أعينهن قبل النشيد الصباحي للطيور. تأخر انجلاء الظل، فتهيأ لهن أنهن مستمرات في الحلم، لا يتكلمن، يتظاهرن بالنوم، طالما أن النهار لم يبزغ. قريبا، سيتعبن من هذه المحاكاة، لا يمكن أن تبقى عيونهن مغلقة. نظراتهن تهيم على وجوهها في الظلام. تعتقد بعضهن أن بإمكانهن التمييز بين أشكال حصيرة إيسوكو التي يتمددن عليها. الألياف المتقاطعة، المربعات المطرّزة بزخارف ناتشة كعروق رقيقة من أوراق الشجر. يجلسن في أماكنهن بلا حراك، رقابهن لا تزال ترتكز على مسند الرأس. أمهات أولئك الذين لم يتم العثور على أبنائهن يفكرن، للحظة، أنه من المفرح أن كوخ المعلم النحات لم يدمر بالكامل. لقد تم إنقاذ العناصر الضرورية في الوقت المناسب، ولهذا السبب فإنهن غير ملزمات بسحب حُصُرهنّ لوضع رؤوسهن عليها، في حين إن بقية الجسم بقيت مستلقية على الأرض.

يتبرم النور عن الظهور، كن يرينه من خلال الباب المفتوح على الخارج. لم يغلق الكوخ المخصص لهن. يرتجفن خلسة في انتظار النهار، ومن ثم سيخرجن، ويذهبن كما لو أن شيئا لم يقع خلال إقامتهن، سيسألن، دون طلب أي شيء، إذا كان مسموحا لهن سريعا بالانضمام إلى أسرهن. سيقمن فقط بتبادل كلمات عادية، تلك الكلمات التي تقال عند أداء المهام المنزلية. الكلمات التي يتم نطقها عند دق حدبة فوق بعضها لطيها إلى جزأين، وعندما نجمع الألياف النباتية لصنع الديباتو أو المانجوا. في الوقت الراهن، ينتظرن ممعنات النظر في الظلام، في داخل الكوخ الجماعي وخارجه. النساء اللواتي لم يتم العثور على أبنائهن غير

مدركات أن الشمس قد احتلت مكانها في أرجاء السماء. تشع تحت اسم إتوم، هويتها الأولى في الصباح. وعلى مدار اليوم، سيصبح اسمها نينتدي، ثم إساما، وأخيرا إينانجي، وخلال تحولاتها، يتجلى سباق الزمن اليومي.

كانت إيبيزي، أول من اكتشف هذه الظاهرة. من عادتها الاستيقاظ قبل النهار، من أجل إعداد وجبة زوجها الذي لا يأخذ عند الفجر، غير الطعام الذي طبخته زوجته الأولى. اليوم لن تقدم له شيئا، لقد اختفى ليلة الحريق الكبير، وهكذا حرمت العشيرة من مرشدها الروحي. إنها تنظر كابتة الخوف والغضب، تحاول أن تستوعب الأمر. الواقعة غير مسبوقة. تركت المرأة كوخها باحتراس، لتذهب إلى مسكن موسيما، ابنها الأكبر. في هذه الأيام، ينام تحت شجرة في الجزء السفلي من المجمع. عندما وصلت إلى عين المكان، لم يكن نائما، كان يحرق اللحاء وهو يتلو التعويذات، ثم سيذهب لسؤال الأسلاف، سيضع بعض الطعام عند سفح الصندوق الذي يحتوي رفات الأسلاف، سيضمخ يديه بالزيت ليدلك بخشوع رؤوسهم الخشبية المنحوتة. لا يمكن تفسير اختفاء والده. رجل مثله لا يذوب في الطبيعة. الموت في حد ذاته لن يفاجئه، فهو يخمن وجوده من مسافة بعيدة. يعرف اللحظة بالضبط. لقد ترك كل شيء مرتبا، قبل المواجهة المفجعة.

يبدو أن ابن وزير الطوائف والداية مشغول، فهو يستعد لسؤال النامبي مرة أخرى. فؤاده مضطرب، يشعر بالضعف لأن والده اختفى قبل أن يعلّمه كل ما يحتاج إلى معرفته. كان عليه أن يدعوه ليتمكن من رؤيته في أحلامه، لكن الرجل لم يظهر. ذات مرة هُيّئ له أنه يسمع صوته، ولكن سرعان ما تلاشى، كان فقط نفَسا في الريح، صدى بعيدا جدا. يعرف موسيما أن والده يملك القدرة، أينما كان منذ الحريق، للتلاعب بالمسافات.

لن تتأخر روح مثل روحه عن الظهور، ما لم تكن هناك كارثة. ولو لم يكن موجودا في هذا العالم، لكان ابنه قد شعر به قادما إليه قبل عدة أيام. على صوت خطى والدته، نظر إلى الأعلى. فأشارت له أن يلتزم الصمت، وهي تقترب منه. المرأة لم تغتسل في الصباح ولم تتجمل. خلاف ذلك، فإن بشرتها ستلمع بزيت «نجابي» المعطر. كما كان من الممكن أن تضع مسحوق الطين الأحمر على وجهها، لحماية نفسها من الشمس. كما وضعت المرأة العجوز على عجل منجحتها؛ اللباس الذي يضعه الجميع كعلامة للرثاء والعزاء منذ الحريق الكبير. ستزيله بمجرد اكتمال إعادة البناء. حينها، سيتقاسمون الديك الرومي، الوجبة المقدمة عند نهاية المحنة. لا تحب الداية أي زينة، فقط قلادة لا تتركها أبدا، إنها تزيّن رقبتها، تتحرك التميمة بين ثدييها العاريين بينما هي تتقدم.

يقف الرجل، ويخفض رأسه احتراما لأمه. تهمس إيبيزي: ابني، تعال وانظر إلى هذا. أسرع، قبل كل الناس.. سحبته من ذراعه. لا حاجة للسير ببطء. الشيء واضح من بعيد. تشير المرأة بإصبعها نحو الكوخ حيث تم تجميع اللائي لم يتمكنّ من رؤية أبنائهن. ضباب كثيف يهيمن على المسكن. وإذا توفر فضول مماثل، فيمكن للمرء وصفه بأنه دخان بارد. عندما انقشع النهار، على بعد خطوات قليلة، زادت هذه الهالة من عتمة الليل حول البيت. الأم والابن يراقبان. ولكسر حاجز الصمت، تمتم موسيما: هل تعتقدين أن الأمر يتعلق بتجلّي آلامهن؟ هزت كتفيها وقالت: إذا أردنا أن نكون صادقين، يجب أن نسألهن. وعلينا أن نتصرف قبل أن تغتنم موتانغو الفرصة فتحوّل العالم رأسا على عقب. يتبادلان النظرات مرة أخرى. يجب أن نذهب لمشاهدة الشيء عن كثب؟ يبدو أن الكتلة الهائلة قد استقرت فوق الكوخ، لكنها قد تنهال على أي شخص يريد فحصها. يترددان، وبعد لحظات قليلة، تقرر إيبيزي التقدم نحو المكان

الذي توجد فيه من لن يشاهدن أبناءهن مرة أخرى. حينها تراءت صورة ظلية في البعيد، وانبثقت من وراء المسكن. سمحت الرؤية الثاقبة للداية بأن تتعرف على البدين موتانغو. أف! قالت منزعجة، البطين المكرّش علم بالأمر فعلا، وربما له دخل في الأمر. في كل ا لأحوال، يجب ألا يراهن قبلنا. يا بني، تحمل مسؤولياتك، وفي غياب والدك، أنت سيد الألغاز.

تقدم موسيما نحو العجوز بقدر أكبر من إظهار السلطة، محاولا إخفاء رجفة ساقيه. لا يشعر أنه مستعد للقيام بهذا الدور، فهو غير شرعي، طالما أن والده لم يتجلَّ له، على الأقل، في الحلم. وطالما أن روحه لم تنزل إليه لتورّثه معرفته، قبل أن يعبر إلى العالم الآخر. ما الذي يجب القيام به عند الوصول إلى عتبة هذا الكوخ؟ ما السؤال الذي ينبغي أن يطرحه؟ ولكي يطمئن نفسه، فإنه داعب التعويذة المعلقة على رقبته دائما، الشيء الذي صنعه والده، ووضعه حول عنقه بنفسه، وبمعونة الأسلاف. كانت أمه تقتفي أثره عن كثب، فهما ما زالا بمنأى عن المكان مسافة معقولة، عندما سيرفع الوجيه رأسه، فإنه سيراهما. يعرف موتانغو أنه يجب ألا تصدر عنه أي حركة إضافية، وخصوصا ألا يذهب بعيدا. لن تتردد إيبيزي في جمع المجلس وتحميله مسؤولية كل شيء. مكث مكانه مترقبا. لا يبدو أنه يهتم بالظلام الذي يحجب عنه رؤية السماء.

وقفت الداية في المكان ذاته حيث يلتقي النهار بالليل. فعل ابنها الشيء نفسه. لا أحد منهما يتعجل للحاق بالوجيه الذي يحدّق صوبهما بتمعّن.

تفحصا بعضهما للحظة دون التفوه بأي شيء. بعد ذلك، همست المرأة لابنها: أخرجهن، ولا تدخل إلى المسكن، نادهن. كان الكوخ الذي توجد فيه النساء فسيحا بقدر كاف عن معظم المساكن، حيث يمكن للرجل أن يرفع صوته، ويستدعي أولئك اللواتي يقمن فيه، ويكرر مثل الابتهال

أسماءهن المتتالية. في هذه الأثناء، واصل صاحب المقام والداية مراقبة بعضهما، لم يتبادلا التحية المعتادة، لا يهمهما ذلك كثيرا. بالنسبة لهما موقفهما من النقاط الأساسية لا أهمية له، لكنه لازم لتوازن ميسيبو، ومع ذلك أجبرا نفسيهما على عدم التلامس ببعضهما، لتفادي عناء دفع العالم إلى الفوضى. يهتف موسيما بأسماء أولئك اللائي لم يعثرن على أبنائهن.

* * *

لا يمكنهن تجاهل هذا النداء، يدركن كلهن ذلك. بما أنهن لم ينمن بعد، فهو ليس حلما. همست إحداهن وتدعى «إيامبي»: هل تسمعن؟ وافقت الأخريات بهدوء. قالت المتكلمة الأولى: لا ينبغي أن نجيب، ولكن يجب أن نعرف حقا ما إذا كان هناك شخص هناك، في الخارج. من الخطر الرد على نداء لا نعرفه على وجه اليقين، وعمّن يصدر، من الأفضل أن أذهب لمعاينة الأمر، لن تذهب واحدة بمفردها. نهضن ببطء، وتجمعن في وسط الغرفة، متسائلات عن كيفية المضي قدما حتى لا تتقدم أي منهن أكثر من غيرها وتصبح ظاهرة أكثر منهن. تقترح «إيامبي»: سنغمض أعيننا، ونعانق بعضنا، ونمشي ببطء لعبور الباب، وبمجرد أن نصبح كلنا في الخارج، سأعطيكن الإشارة، لنفتح أعيننا جميعا. وهكذا، سيواجهن في الوقت نفسه الشخص أو الروح، التي تناديهن بإلحاح وإصرار كبيرين.

تعانقت النساء العشر، في البداية كانتا اثنتين ثم انضمت إليهما الثالثة ثم الرابعة، إلى أن شكلن مجموعة، مثل بذور نجابي على الفروع التي تحملها. يغلقن أعينهن ويخفضن رؤوسهن، هذا ليس جزءا من التعليمات، ولكنهن يقمن بذلك تلقائيا. تضاعفت الطوابق الثلاثة لتصفيفة الشعر المتتالية، إلى عشرة أضعاف، مُشكِّلة نوّارة عريضة، كل مستوى يأخذ هيئة بتلة منحنية. منذ فترة فقدان أبنائهن، أصبحن لُحمة واحدة لشخص واحد. كل هالة تنبعث من وجوههن تثير الغموض

نفسه. لقد ولت المنافسات القديمة. في السابق، كان البعض يرفض هذا الملغم البشريّ. الآن، الشيء الوحيد الذي يهمهن هو الإفلات من الغرق. لأجل ذلك تجب مسايرة الإيقاع، كي يكنّ حقا مع الأخريات، والانسجام مع حركتهن ووقعها، والدخول في أنفاس الأخريات، ومشاركتهن الزفير والروائح والعرق، وذكرياتهن السرّية في الليلة الماضية. وقفن متأنّيات يأخذن الوقت الكافي لذلك.

متشبثات بعضهن ببعض، يتشاطرن أخيرا ما كان الكلام يمنعهن عنه، مادام لا ينبغي الإعلان عن هذه الأشياء، يتعانقن كما في حالة النواح. مثلما تجفف، داخل حميمية الكوخ، دموع الصديقة المعذبة. الأجفان مغمضة ينظرن إلى بعضهن، فيتعرفن على بعضهن بشدة، يأخذن وقتهن الكافي، يتأنين في السير لإطالة اللحظة. لم يفكرن في ارتداء المانجوا، وهذا أفضل، حتى وإن لم يكن في السن الذي يمكنهن من الكشف كليا عن أجسادهن، لا تكشف الزوجات والأمهات غير العنق والرأس. في الخارج مازال الصوت يناديهن. يجب - خاصة - المحافظة على وتيرة سيرهن، ومن خلالها ينبغي أن يتحدد إيقاع تقدمهن. كم من الوقت يلزمهن للخروج؟ سيعرفن أنهن في الخارج حينما يشعرن بالنسيم العليل فوق بشرتهن، ومن الأرض التي لم تكنس ولم تُمهد على عكس أرضية الكوخ، عندئذ توقفن، وهمست إيامبي بإشارة، أنين متناغم بصوت خفيض.

تحتاج النساء اللائي لم يرين أبناءهن إلى الأحضان، العيون مغمضة، في صمت، لا أحد يهتم بمواساتهن، ما تتمناه كلهن أن يحافظن على أنفسهن من النحس الذي ضربهن. إذا لم يعثر على أبنائهن مطلقا وإذا لم يفصح النغامبي عما حدث لهن فإنه لا أحد سيحكي عن شقاء أولئك النسوة. ستنسى العشيرة أسماء المبادرين العشرة، والرجلين الناضجين اللذين تبخرا خلال الحريق الكبير. الحريق نفسه لن يقال عنه أي شيء. من يستطعم

ذكرى الهزيمة؟ الشعب يعرف، من الآن فصاعدا، أن الأمر لا يتعلق بحادثة، وأن القرية قد تعرضت للغزو، وأن لا قوة الأسلاف ولا نباهة المحاربين القدامى، ولا رشاقة الفتيان الديوك، استطاعت أن تمنع أي شيء. تهمس إيامبي بالإشارة. النساء تتأوه. عندما فتحن أعينهن كان الليل قد كشف الحجب التي تحيط بالكوخ. ترنم عصفور الصباح بنشيده. سكت معلم الأسرار الشاب. تراشق الوجيه والداية بصمت سهاما نارية. نعتقد أنهما يبحثان من خلال نظراتهما فقط عن طريقة لتدمير بعضهما؛ يتفرسان التي لا تعرف إذا كان يجب عليها البكاء أو الانتظار. يمكثن هنا، صامتات عاريات، ينفصلن عن بعضهن بهدوء. كل واحدة أصبحت وحيدة مرة أخرى. نصبت الشمس بهاءها في قلب السماء. لم يشعرن بالبرد من قبل كما يشعرن به الآن.

* * *

يتحدث ابن الداية إلى النساء: يجب أن نتحدث. لم يسألهن عن الطريقة الغريبة التي حضرن فيها، ملتصقات بعضهن ببعض، مغمضات الأجفان، مطأطئات الرؤوس. يقول الرجل إن النساء سيتكلمن الواحدة تلو الأخرى. ما دمن غير مسموح لهن بالتجول داخل القرية. سيبقى هنا معهن. وبإشارة من يده يرجو الكبيرَين - أمه وموتانغو - بأن يتركاه وينصرفا. لكن الوجيه لم يتزحزح من مكانه. فسّر موسيما بهدوء: في غياب والدي، فأنا من عليه أن يفعل هذا. وأنا مستعد لذلك. ليس هذا ما كان يفكر به، ولكن ما كان يجب أن يقال. أومأت أمه برأسها موافقة. التفت الكبيران وغادرا كل واحد إلى وجهته.

أجلس الرجل النساء أمام الكوخ. شكلن صفا كي تسهل مراقبته. وخلال حديثه مع إحداهن، حرص على ألا تتبادل الأخريات كلمة واحدة. على كل واحدة أن تقدم حقيقتها. قبلت النساء هذا المبدأ. مضت الآن ثلاثة

أسابيع وهن يعشن في عزلة. لم يأت بعد أحد لمحادثتهن. لا أحد يرغب بسماع ما تجيش به قلوبهن، وما تكتمه كل واحدة منهن في داخلها. الأعراف تحرم الاعتراف. لا ينبغي الأنين على مصير طفل مادام لدينا فرصة الحصول على آخرين، وإنجابهم. من العيب أن نشكو آلامنا في حين أن ما يهم هو رفاهية واستمرارية المجموعة. نعرف أنهن يتألمن. لهذا السبب خصص لهن هذا البيت الجماعي.

لهن الحق في التعبير عن حزنهن. ولكن غير مسموح لهن بأن يحيط كربهن بباقي العشيرة، وأن يصيب الأشخاص الذين يعيشون يوميا بقربهن، والتظاهر بأن الطفل الذي لم يتم العثور عليه يمثل كل شيء. إن أولئك النساء مثل الأرامل، غير مسموح لهن بالظهور من جديد في المجتمع إلا وقتا محددا، وبعد إخضاعهن لطقوس تكون أحيانا قاسية. هن لسن أرامل. وليس هناك وصف يمكن أن ننعت به حالتهن. لم ير أحد أبناءهن بعد الحريق الكبير. ولا أحد يعلم إذا ما كانوا أحياء أم أموات.

* * *

بدأ موسيما حواراته. كان يرتجل ويحاول إقناع نفسه بأنه اختار الإجراء الصحيح. يسأل كل واحدة على حدة الأسئلة نفسها. وكن يجبن بالتناوب. يا امرأة كيف تركت الليل؟ حسنا، أشكرك. يا امرأة، ماذا تقولين عن الظل؟ عندما سمعن هذا السؤال، كان لديهن كلهن رد الفعل ذاته. اللائي عرفن محتوى الحلم الذي حاصرهن، نظرن طويلا بعيونهن الشاخصة، ثم غمغمن: مويتيتي[1].. يا امرأة ماذا تقولين بشأن الظل؟ تسع نساء من عشر أجبنَ: إن مويتيتي مضللة. جاءت إليّ محاكية صوت ابني الأكبر، الذي لم يعثر عليه. كنت أعرف أنه ليس هو. سكتت النساء بعد هذه الإجابات. لقد شعرن أنهن قلن أكثر من

(1) تعني باللغة السواحلية: ظلمات.

اللازم. من الصعب تقييم كلماتك عندما تكون ممنوعا كليا من الكلام، فنحن نتركها تفيض.

أجابت واحدة فقط: الظل هو كل ما تبقى لنا. إنها ما آلت إليه الأيام. إنها إيامبي من قالت هذه الكلمات. وأضافت: وأنت، أيها الرجل، ماذا ستقول لمويتيتي؟ هل تعتقد أن استبعاد عشر نساء في ركن من القرية كاف كي تفلت العشيرة من ذلك؟ تدعم إيامبي نظرة موسيما الحائرة، تنهض دون أن يطلب منها ذلك. لم تطأطئ رأسها ولو مرة واحدة. وبدل أن تلتحق برفيقاتها الجالسات أمام الكوخ، توجهت خلف السكن الجماعي. عندما عادت كانت قد اغتسلت ووضعت فوق شعرها تاجا من الأغصان مخضبة وجهها وكتفيها بالكاولين[2]. النساء الأخريات ارتعدن عند رؤيتها، أما الرجل، فقد كبح صرخة. الصلصال الأبيض الذي يوضع على الوجه يرمز إلى وجه الموتى العائدين لزيارة الأحياء. الأبيض هو لون الأرواح. دون أن تبدي أدنى اهتمام بأي أحد، دخلت الآن إيامبي إلى الكوخ وهي تترنم بنشيد رثائيّ مربّتة بيديها بهدوء.

قريبا جدا، ستخرج مرتدية ثوب الديباتو المصنوع من اللحاء المضغوط. إنه زيّ احتفالي، ليس مثل المانجوا. توجهت إيامبي صوب مركز القرية، وهي تسير بتؤدة. كل خطوة هي قول فصل. ليس لديها شيء تؤنب به نفسها. في البداية كلمت نفسها، ثم وجهت الكلام بصوت عال، دون صراخ، مقحمة النساء الأخريات في هذا الاستنكار: نحن لم نفعل سوءا، ولم نبتلع أبناءنا، ولا نستحق أن نعامل كمجرمات. كان الذهاب للبحث عنهم الأجدر بالاهتمام، ليسوا الآن موجودين، فلن نراهم أبدا بعد الآن كما عاهدناهم..

(2) المقصود الصلصال الصيني الأبيض، الذي يستعمل في بعض الطقوس الإفريقية.

صوتها انكسر، لكنها تمشي، مربّتة على الأيدي كي تضبط إيقاع نشيدها، تقترب، من المجموعة الأولى من الأكواخ، تمرّ ولا تتوقف. بلغت إيامبي ملكية عائلتها. منذ أن قرر المجلس إبعاد أولئك اللواتي فقدن أبناءهن، لم يأت أي أحد لرؤيتها.

أحدهم حيّاها بشفتيه. تجاهلت ذلك، يبدو أنها لم تسمعه، لفّت حول مسكنها الخاص. في الخلف، فناء صغير وأشجار من فصيلة الماكوب[3] زرعت إحداها يوم قدوم ابنها إلى العالم. ابنها الذي فُقد أثره، ويجب عدم الحديث عنه. الموتى يتم استحضارهم باستمرار داخل هذا المجتمع. الأحياء هم موضوع النميمة المستمرة والثناء في بعض الأحيان. منذ الحريق الكبير ظهرت طبقة جديدة من البشر؛ ليسوا من الأحياء ولا من الأموات. يُجهَل مصيرهم. رضي الناس أن يعيشوا دون أن يعلموا. التفت إيامبي حول «الديكوب»[4] حيث وارت أسفلها مشيمتها، يوم مولد ابنها البكر، الذي دفنته في عمر الرجال، فانتزعت منها بهجتها. هناك حيث أنت. قالت: هل تسمع قلبي يناديك؟ أعلم أنك عانيت. أمس قدمت عندي في حلمي.. اغفر لي عدم فهمي سريعا. إذا عدت فسأضمك إليّ وأسكنك أعماقي مرة أخرى.

كانت إيامبي تكلم ابنها دون أن تفتح فمها. وكان سكان الملكية يراقبونها، معتقدين أنها فقدت صوابها، يرونها وهي تفرك جبهتها على الشجرة، وتداعبها. المرأة تبكي. وقد منحت نفسها هذا الحق. في نهاية المطاف، ابتعدت عن شجرة الديكوب وقامت بخطوة إلى الوراء دون أن تتوقف عن النظر إليها. تسقط الشجرة، كما لو أنها اقتلعت من الأرض بواسطة يد قوية. نرى الجذور والحفرة التي خلّفتها. في الوقت الحالي،

---

(3) نخيل الدوليب.

(4) شجرة موز حلو بذورها تستعمل للخصوبة.

وحدها إيامبي من تعلم أن الحفرة تحتوي على نبتة. زهرة لا يمكن أن توجد في مثل هذا المكان أبدا. زهرة صغيرة جدا يضعها طفل على مرأى أمه، لتتأمل جمال الأشياء. الجمال رغم كل شيء، لأن الحزن لا يمكنه أن يمحو ما عاشه المرء، وما قدمه وأخذه من الحب، وما شاركه من الفرح والذكريات. تكفكف المرأة دموعها وتعود للغناء. الآن بظهرها المنحني، تؤدي رقصة الموتى. تضرب بقدميها العاريتين الأرض المغراء، إلى أن وصلت إلى عتبة كوخها الذي دخلت إليه.

لم يتبق من المسكن غير أعمدته، ونصف سقفه، وجدار ونصف جدار. لا يهم لن تنتظر تعليمات الشيوخ كي تستعيد ملكية فضائها وحياتها. ما إن وجدت في الداخل، حتى استولت على أضلاع مربوطة معا مُشكّلة حزمة نباتية، وشرعت بكنس أرضية كوخها، وبسطت الحصيرة التي ضفّرتها بنفسها، مددتها فوق الأرضية على امتداد الحائط الوحيد الذي مازال سليما وحيث كانت الحصيرة ملفوفة وموضوعة بجانبه. وقدور الطين مرتبة ومصفوفة على شكل عمودي، والتي تحتوي على أغراضها الشخصية. غيّرت موضع بعضها ووضعتها على الأرض إلى أن عثرت على مأربها. طلى دخان الحريق الأواني بسخام خضب باطن كفّيها. وهي تنظر إلى أصابعها الملطخة همهمت قائلة: يا امرأة، ماذا تقولين بشأن الظل؟ ومع ذلك، يكفي أن نفتح عيوننا، لكي نعرف بماذا نفكر.. داخل وعاء فارغ ترتب رداء الديباتو المعد من لحاء الديكوب. كانت قد ارتدته عندما ذهبت لتحية روح ابنها الذي لن تراه كما عرفته. لن ترتدي أبدا هذه الحلّة.

يشاهدونها داخل الكوخ لأن معظمه مكشوف للناظرين. سكان الملكية، أقاربها إذن يقفون جامدين كما لو أنهم يقفون أمام غريبة. من وقت لآخر يتبادلون العبارات بصوت خافت. ما زالت تستند إلى نصف الحائط المؤدي إلى بقايا المنزل المجاور الذي تقطنه «إكيسي» ضرّتها

التي توجّه لها نظرات عدائية. ردّت عليها إيامبي مشاعرها قائلة: أنا مندهشة عزيزتي من كونك مازلت هنا ترمقينني بنظراتك. ماذا تنتظرين كي تحذري المجلس وتطلبي حكما بالتعذيب؟ ثم التفتت إيامبي نحو الفضوليين المحتشدين في الساحة وقالت: لا يبدي أحد أدنى قلق بشأني، أقصد - أشارت وهي تبتسم ابتسامة واهنة - أنني لم أصبح فجأة شريرة. أرادت المرأة أن تقدم مزيدا من الشرح وأن تدافع عن قضية النساء اللائي فقدن أبناءهن. الأمر غير مجد. إنها تراه وتشعر به. لا ترجو العائلة عودتها. النساء وحدهن في الملكية برفقة أبنائهن الصغار يشبكن أيديهن فوق صدورهن في وضعية دفاعية.

دون استيعاب الأمر راقب الأطفال بتوتر الأجواء وهي تتعقد، كان بعضهم يبكي. احتل الخوف مكانه في نظراتهن، وكأن وجوده في هذه الأمكنة يكفي كي يندلع حريق جديد، وكي يختفي رهط آخرون. لابد أن زوجها موسيتغا في مكان ما داخل القرية أو خارجها ليقوم ببعض المهام التي كلفه إياها الزعيم. لو كان هنا فهل سيكون تصرفها مختلفا؟ وهل سينبري للدفاع عنها؟

تتذكر المرأة أنهما قضيا ليلة الحريق الكبير معا. كان الدور دور إكسي ليبيت عندها، لكنها تظاهرت بأنها لم تتذكر. عندما حاولت إقناعه بصوت العقل، ألح عليها قائلا: أنت تعلمين أني لا أحبها ولم أتزوجها إلا إرضاء لوالديّ.. لِمَ ينبغي حقا أن نتحدث في هذا الأمر؟ قلبي لا يجد راحته إلا بجانبك.

لم يدفع هذا الحب الكبير الرجل على تقديم الدعم لها. وإن فعل، فإنه سيخرق المحظور وعلى الأقل كان يأتي إلى الكوخ الجماعي ولو لمرة واحدة، لزيارتها، لكنه لم يفعل. فاتخذت غيابي قرارها، لن تقول شيئا حتى لزوجها.

جلس إلجانيا موكانو والداية وابنها تحت الشجرة المسماة «يوما»، وهي شجرة ضخمة ذات لحاء سميك وجذوع عريضة، وتعتبر الأكثر قدما من كل الموجودات فوق هذه الأراضي، كانت أوراقها تحميها من أشعة الشمس. مكث الثلاثة ينتظرون أعضاء المجلس، فقد زاد اختفاء وزير الشعائر الأمور تعقيدا، فهو الذي كان يتحكم في جزء من السلطة العقائدية في العشيرة، لكن ليست لديه الأهلية لتوريث وسيط يقوم بالشعائر عوضا عنه. كان موكانو شاردا ومنهمكا في مضغ غصن له خاصية التنوير الفكري. لم يعترف بميزة تلك الخاصية لأحد، لكن أمعاءه مشبعة بتلك الألياف التي طالما ابتلع منها منذ الحريق الكبير. في تلك الليلة شهد هو ومن يقيم في إقطاعيته - انطلاقا من الرابية حيث أسس زعامته - النيران وهي تعانق القرية. لكنهم لم يستطيعوا فعل أي شيء حينما التحقوا بالسكان. استعاد الرجل تلك اللحظات كأنه يحياها، رأى نفسه يقفز خارج مخدعه عند سماعه الضجة القادمة من القرية. ألسنة النار والصراخ في كل مكان. هرع موكانو صوب إقطاعية أخيه، قاطع حفلات الوجيه الكبير برفقة فتاة صغيرة لم تبلغ الرشد بعد. كانت الطفلة تبكي، تداري وجهها أمام الزعيم. وتهمهم: سانغو جنيا، أطلب عفوك.. لم يترك لي خيارا.. كانت ترتعد خجلا وخوفا. على الرغم من هيئة جسدها فقد أُدينت بالخطيئة وتخشى عقاب المجلس. حدجها الزعيم بنظرته، فلاحظ أن الفتاة هي إحدى بنات موتانغو. طفلة ولدت نتيجة أفعاله، والتي يجب ألا تكون هنا سواء كانت صغيرة أم كبيرة. احتقن وجه موكانو وقال: أنت لست سوى حيوان. سننظر في الأمر فيما بعد. تعالَ بسرعة، القرية تحترق.

يفكر موكانو أنه نسي في خضمّ الحريق الكبير أن يقدم أخاه للمحاكمة أمام المجلس. ونظرا لمكانته فإنه يراهن بشدة على أن المجلس لن يعلن

في حقه عقوبة الطرد. في مثل هذه الحالات. مع ذلك يجب أن يؤدب. ويجب أن تدلي الفتاة بشهادتها. هل ستمتلك الشجاعة للقيام بذلك؟ لن يتكلم أيضا حراس موتانغو لأنهم يخشون سيدهم جدا. ينبغي أن تستهلك الجذور التي يمضغها إلجانيا بطريقة معقولة. مع ذلك، ورغم كثرة رعاياه لا يشعر براحة البال. بالإضافة إلى ذلك فقد ضاعت منه لذة النوم. هذا الحريق كيفما كانت أسبابه، فهو فأل معتم وإعلان عذاب للعشيرة. أحيانا يتساءل عما سيجنيه من هذه الوظيفة مادامت قراراته يجب أن يوافق عليها نصف أعضاء المجلس.

منذ الحريق لم يستطع موكانو تمرير التدبير الوحيد الذي يعز على قلبه أكثر من إعادة بناء القرية. كان الزعيم يودّ أن مساعي محاربي قبيلته لا تتوقف عند البحث عن دلائل تساعد على تفسير الحدث. كانت رغبته تتمثل في أن يرسلهم إلى أبعد من حدود القرية، وأن يبلغوا شعب آل البويلي، وإلى حدود العالم إن لزم الأمر، أي أن تتخذ المحاولات جميعها للعثور على المختفين، وأن الأسلاف الذين لا يملكون طموحا سوى رؤية ازدهار أحفادهم لا يتخلون عن ذلك من جراء اختطاف الأبناء. على الرغم من اليقين الذي خلص إليه منذ اليوم التالي أن الأمر لا يتعلق بحريق فقد أبى أعضاء المجلس أن يصغوا لكلامه. يشك إلجانيا أن أخاه قد حشا عقولهم بأفكار غريبة. في حين من الجلي أن رجالا هم من قاموا بهذا الفعل. هؤلاء الأشخاص يجب أن يعاقبوا على ارتكاب الجريمة. منذ تأسيس المجلس كان الشعار يقول: أنا موجود، ما دمتم موجودين. لأول مرة ينتاب موكانو شعور بأنه أضاع الشعار حينما لم يتمكن من فرض إرادته. بالنسبة إليه، عدم محاولة المستحيل للعثور على المفقودين تشبه تخليه عن جزء من ذاته في الفَناء.

انقضت ثلاثة أسابيع، اليوم وبخلاف أي وقت آخر، هو في أمسّ الحاجة، لاستهلاك هذه الجذور التي يقال إنها تنير العقل. كما ينوي أن يتجاوز جبن المجلس، ويبادر برفقة رجال من حرسه المقربين، وبهذا لن يؤاخذ على إقحام المحاربين، الذين هم في خدمة الجميع، في معمعة أعمال محفوفة بالمخاطر. نعم، سيجوب الطرق سيرا على الأقدام، سيفعل كل ما في وسعه ليعيد الأبناء الضائعين. يبتلع إلجانيا العصير المر للجذور ويبصق الألياف ليس بعيدا عن المكان، وينظر إلى الرياح تغمرها بالغبار الأمغر. كان رفيقاه صامتين كحجرين، يظهران تعبيرات كئيبة لأولئك الذين كانوا بالكاد سيقابلونهما فور نهوضهما في الصباح، كان ظل جنيّ سيئ قادما من إنجاز أعماله الدنيئة. بدأ موكانو يضجر من الانتظار، عندئذ تهيّأ لفتح الجلسة رغم غياب أعضاء المجلس، لكنهم وصلوا في الأخير.

لم يكن الشيوخ مستعجلين، فمن الجليّ أنهم اجتمعوا سلفا، وقبل أن يمثلوا أمامه ما داموا قد حضروا مجتمعين. وحده موتانغو تخلف عن الدعوة، وهذا ليس مستغربا. شعر الزعيم أنه ارتكب خطأ حينما لم يجمع المعلومات التي أرادت الداية وولدها قولها أمام الوجهاء، قبل وصول الشيوخ. مازال يتصور بعد مضي هذه السنين كلها أن الاستقامة والنزاهة قيمتان رفيعتان. لم يكن اللجوء إلى الحيلة من عاداته، فهو لم يسمح لنفسه أبدا بأن يقلل من قيمة الأخلاق، ولم يمارس الخداع مطلقا. هذا هو السبب في أنه لم يكن يتم فصله بعد، رغم مؤامرات أخيه المتواصلة. ليس لدينا ما نلومه عليه. بعد التحايا المعتادة. فتحت الجلسة، فتناول موكانو الكلمة: أيها الإخوة، دعوتكم للاجتماع لأن موسيما ووالدته لديهما ما يقولانه. تخمنون الآن أن الأمر يتعلق بقضية الأمهات العشر اللواتي فقدن أبناءهن. ملتفتا نحو وزير الشعائر المبتدئ، ثم يختم الزعيم قائلا: نحن نسمعك.

جف حلق موسيما، وتحول صوته النابع من رئتيه المضغوطتين بالقلق إلى مجرد حشرجة. تكلم عن الحجاب السميك الذي أظلم توهج النهار الجديد. ارتجف أعضاء المجلس وهم يعلمون أن الظاهرة لم تحدث إلا فوق الكوخ الجماعي. لذلك كان من الضروري استجواب المقيمات فيه. إليهن جميعا وجّه هذا السؤال: أيتها النساء، ما قولكن حول الظل؟ قدمت تسعٌ من عشر الجواب نفسه. وحدها إيامبي المستجوبة الأخيرة أجابت بطريقة مختلفة ومتجرئة على سؤاله هو نفسه عما يمكنه قوله حول مويتيتي. حثها موكانو على شرح التفاصيل التي ذكرتها النساء الأخريات. يعمل وزير الشعائر الجديد ويستعيد حرفيا العبارات المسموعة. بقي المجلس أخرس. القضية غامضة. انتهزت إيبيزي حيرة الرجال لتعبر عن رأيها قائلة: أعتقد أنه يجب عدم الوثوق بالمظاهر، والتسريع بتجريم إيامبي بدافع أنها عبّرت عن رأيها الشخصي. تعرف الداية كيف تجري الأمور، عندما لا يتمكن أعضاء المجلس من تقديم الحلول فإنهم يختارون الأسهل. وقد أثبتت التجربة أن الحقيقة دائما أشد تعقيدا مما قد تظهر عليه.

بالنسبة إليها، ولا واحدة من اللواتي فقدن أبناءهن مذنبة بأي نوع من الإساءة إلى السلطة. كانت تختار كلماتها بعناية شديدة على أمل ألا يعلن الوجهاء حكما متسرعا. ردّ عليها أحدهم: يا امرأة من الطبيعي أن تدافعي عن قضية أخواتك، لكن تعاطفك لن يكون كافيا لإقناعنا. ماذا تقولين أنت في الهالة السوداء التي كانت تحيط بالكوخ الجماعي؟ ثم ذكّرها بأنه لولا نصائحك الحكيمة لكانت النساء العشر قد عدن إلى مساكنهن العائلية بعد الحريق الكبير. لقد فعلت حسنا بدعوتنا إلى إبعادهن لأن الأحداث برهنت لنا أنهن حاملات لطاقة مؤذية. لم تجد العجوز ما تقوله بخصوص الحجاب المظلم الذي شاهدته عند الفجر.

لكن حدسها يدعوها، مع ذلك، إلى أن تفعل كل شيء كي لا تُدان الأمهات الحزينات بممارسة السحر ويُطردن من العشيرة. هذا هو الحكم حينما لا يجد القلب ولا العقل وسيلة للاقتناع. يمنح الشخص المبعد في يد كوبا وفي اليد الثانية ماء للشرب. بصمت أشار لها أن تغادر المكان، وأن تذهب إلى الأرض البعيدة عن العشيرة. هذا هو الإجراء، الذي لم يتم تطبيقه منذ زمن سحيق، وإلا لكانوا قد تخلصوا من موتانغو. شعرت الداية بقشعريرة تدب في جسدها من فكرة أن النساء اللائي فقدن أبناءهن سيدفع بهن إلى التيه داخل الأدغال وما بعد الأدغال النائية التي لم تطأها أقدام البشر. لن تسمح بذلك.

كان صوت العجوز مترعا بالسلطة: المسألة بسيطة، إنهن فكرن بقوة شديدة في أبنائهن الذين تهيأ لهن رؤيتهم في الحلم. غير أن الألم كان عارما جدا إلى درجة أن الحلم أصبح ضبابيا. هكذا أفسر وجود هذا الظل. بعد كل شيء، أضافت قائلة، نحن نجهل كيف تتجسد أحلامنا خلال النوم إلى حقيقة. وقد رأينا اليوم تحقُّق هذا الأمر لأول مرة، النساء جُمِّعن في مكان واحد، كما أن الحالة العامة في القرية غير مسبوقة. توقفت عن الكلام. هزّ الزعيم رأسه مفكرا ومستفسرا عن توصيات موسيما. تنحنح ابن الداية مجبرا لسانه الجاف على النطق. وبنفَس واحد اقترح طقسا للتطهير من أجل النسوة التسع اللائي قدّمن الجواب نفسه عن سؤاله، دون أن يرفع عينيه تجاه أمه، التي شعر بجانبها أن جسده يتقلص، ثم قال: أتأسف، يا إيو، لا أشاطرك رأيك، بخصوص إيامبي. إن تصرفها أزعجني كثيرا..

نحن جميعا منزعجون.. قالت الداية وهي أكثر حدة مما كانت تريد. اثنا عشر رجلا اختفوا بعد هجمة. نحن نعاني، وعلى وجه التحديد، يجب ألا نترك مشاعرنا تُعمينا عن الحقيقة. كل واحد هنا يعرف مزاج إيامبي. إنها امرأة فريدة من النادر أن تهتم بشؤون الآخرين. هل سنحاكمها من

أجل هذا؟ ها قد حان الأوان لنتذكر المبادئ التي تحكمنا منذ الأزل، وأن يرعى بعضنا البعض عوضا عن أن نبحث بيننا عن المتهمين بالفاجعة. بعد هذه الخطبة الطويلة، حاولت إيبيزي أن تهدئ من روعها، مذكرة بجميع مخاطر الظلم المرتكبة عمدا. ليست ابنتنا من أضرمت النار التي بسببها حرم القرويون اليوم من مساكنهم، بل يجب إلقاء اللوم على الذين فعلوا ذلك، بدلا من استدعاء هذا الذي تسمونه طقس التطهير.

إن حزن الأمهات ليس دنسا بل هو نبل، وعلى وجه الخصوص، بين شعبنا، مادامت الأمومة تمنح النساء مكانة مشرفة. الرجال يهنّئون بعضهم إذا تزوجوا امرأة أنجبت مسبقا، وبذلك يكونون متأكدين من خصوبتها.. إذا كنت قد أمرت أخواتنا وبناتنا بعدم العودة إلى محمياتهن العائلية فورا، فذلك بسبب الصدمة التي تلقَّيْنها. ومن باب الاحترام ربما كان من الأفضل ألا نطالبهن بمشاركة أزواجهن المضجع، وما يستدعيه ذلك من خصومات مع ضرّاتهن والاعتناء بأبناء الآخرين لعائلاتهن. بينما كنا قد علمنا للتو أن مواليدهن الأوائل قد انتزعن منهن. في هذا الكوخ الجماعي يمكنهن أن يختلين بأنفسهن، أن يتحدثن في أشياء هن وحدهن يفهمنها. كنت آمل، تهمس الداية، أن يتحدثن بعضهن مع بعض. الظل أيضا شكل من الأشكال التي يتخذها صمتنا.

هذه الكلمات الأخيرة احتفظت بها إيبيزي لنفسها، ورجّعت صداها في داخل روحها، كما لو أنها تخفي رسالة سرّية.. نعم إن مويتيتي هو تجسيد للصمت. الشيء حقيقي، على الأقل بالنسبة لأربعة أعضاء في المجلس. منذ بداية النقاش لم يفتحوا أفواههم. بالكاد كنا نسمع تنفُّسهم، فبعدما اجتمعوا عند موتانغو ساعة الفجر، كانوا يعتقدون أنهم سيجدونه هنا، تحت شجرة البوما. عندما غادروا من عنده ذهبوا للبحث عن الرجل الخامس قبل أن يتوجهوا إلى مكان الموعد. كان صوت الوجيه مفتقدا في

هذا التبادل الحواري. لا أحد تجرأ على النطق بالكلمات التي كان يمكنه قولها: وحده التحكيم الإلهي سيخبرنا إذا كانت النساء اللواتي لم يتم العثور على أبنائهن هن من استدعين الظل.

تتجه مناقشة المجلس نحو طريق مسدود. شعرت الداية أنها أكثر شيخوخة. منذ الحريق، لم تجد الوقت الكافي للاهتمام بانشغالاتها الشخصية المتعلقة بمصير زوجها. تعبت إيبيزي من أن تمكث جامدة كصخرة. فاستعدّت لتطلب الإذن بالانصراف من الجلسة، حينما ظهر غلام حامل رسالة رفض أن يكشف عنها أمام رجال الحراسة، أعلن الغلام أن المدعوة إيامبي قد التجأت إلى محميّتها العائلية. ارتفع صوت إلجانيا مخاطبا الداية: يا امرأة أحضريها أمامي أريد أن أحدّثها. ثم أومأ بيده، ليقترب منه خادم له ما زال تحت إمرته، هامسا له أوامر بأن يذهب للبحث عن موسينغا، الذي يعد أفضل مخبريه: قل له أريد أن أعرف مكان أخي. دعه يأتِ هنا ليقدّم لي تقريره.

* * *

أمام الكوخ الجماعي، كانت النساء اللواتي لم يعثرن على أبنائهن منهمكات في النقاش. كان تصرف إيامبي يستدعي طرح الأسئلة. وكانت بعضهن مثلها أردن أن يلتحقن بمساكنهن. ليس القعود في هذا الملجأ الضيق ما سيمنحهن فرصة رؤية أبنائهن. كانت الداية من تتكلف عادة بنقل تقرير المجلس، لكنها قلما اقتربت منهم. إضافة لذلك فقد كانت هي من وقفت هنا يوم إيداعهن داخل الكوخ الجماعي. لكي تنقل إليهن القوانين المتبعة: ستذهبن لجلب مياهكن من البئر كل يومين كما كنا نفعل دائما، لكنكن ستنتظرن حتى تعدن أخواتكن من النبع. ستقطفن طعامكن من الحقل الممتد خلف مسكنكن. سوف تزرعن هذه الأرض كما تفعل نساء العشيرة كلهن. خلال مدة إقامتكن هنا لن تنالن حصتكن

من اللحم. كل ما ستحتجن إليه يوجد هنا.. إحدى ضراتي جمعت لكنّ القماش والألياف التي ستصنعن منها ملابسكن، وحُصُركنّ.

اختارت العجوز كلماتها بعناية، واتخذت مسافة مناسبة، كما أنها تفعل ذلك تجاه أغراب التقتهم فجأة عند منعطف طريق ضيق. فيما الحياة العادية تعود إلى مجراها الطبيعي. أولئك اللواتي لم يتم استرجاع أبنائهن لا يعرفن ما الذي يعتزمن القيام به لمعرفة ما الذي وقع لأبنائهن الأوائل. حينئذ تحدثن حقيقة ولأول مرة منذ اندلاع الحريق الكبير، كما أن نظراتهن تجاسرت لتلتفت نحو القرية التي منعن لحد اللحظة من النظر إليها، حتى ولو من بعيد. الأيام التي تلت الحريق وحينما تقرر إبعادهن أذعنّ لفكرة أنهن يستحققن هذه العقوبة. لن يكون اختفاء أبنائهن محض مصادفة. كان يجب أن يشعرن أنفسهن بأنهن متهمات بشيء ما، حتى دون معرفة هذا الشيء.

لم يفسر لهن أحد أن الكوخ يجب أن يضم أحزانهن، إلى أن يتأكدوا من أن الألم القاهر، من الآن فصاعدا، لن ينتقل إلى الأسر الأخرى. لم يقترح أحد على النساء اللاتي لم يعثر على أبنائهن أن يغنين، ويرقصن ليتخطين أحزانهن. رغم أن ذلك من العادات والتقاليد هنا. ولا أحد أيضا قال لهن إن بإمكانهن البكاء، لأن العبرات هي من حقّ النساء اللائي عثرن على الأجساد التي فقدت الحياة. لم يترك لهن سوى الصمت والعزلة. لم يترك لهن غير هذا الغياب الذي لا يمكن الحديث إليه بعبارات الحداد، تلك الكلمات التي تعبّر عن الخضوع قبل أن يفتح معبر نحو العالم الآخر: وحده نيابي سيد هذه الأشياء. أنا لا أملك أية سلطة، فليكن يا بني عبورك هادئا. ولتكن يا بني الأرواح دليلك إلى هؤلاء الذين يعرفون أسماءك كلها ووجوهك كلها.

الصمت.. العزلة.. الغياب.. مثل الاختناق، لا يعرفن ماذا يفعلن بكل

ذلك، ولا كيف يتخلصن منه. لقد اكتفين بالنظر إلى نساء العشيرة عندما توجهن إلى النبع محروسات بالمحاربين. ثم بعد ذلك سيذهبن بدورهن لجلب الماء. لا أحد سيرافقهن عند أي لحظة من لحظات خروجهن، ولم يخطر ببالهن الهرب. ولكن إلى أين سيذهبن؟ لا يحق للنساء أن يسلكن الطرقات. لأن النساء يجسدن ديمومة الأشياء. إنهن أعمدة الأكواخ. اليوم أصبحن يتحدثن لبعضهن، يعبّرن عن ضيق قلوبهن، وهن يشاهدن مرور صديقاتهن وأخواتهن الصامتات وهنّ في طريقهن إلى نبع الماء. لا يحتاج إليهن أحد. الحياة تنتظم، وتستمر من دونهن. أبناؤهن أصبح لديهم أمهات أخريات. رجالهن أصبح لديهم رفيقات في مخادعهم. أما اللواتي لم يُعثَر على أبنائهن، فيعلمن أن زعيمهن لن يساعدهن، إذا عُدن إلى مساكنهن العائلية.

الشمس عالية في كبد السماء، والوقت يمر دون أن يلاحظن ذلك. لم يتناولن أي شيء منذ الأنشودة الحزينة التي أخرجتهن من أكواخهن، لا يشعرن بالجوع. قابعات صامتات، تغوص كل واحدة في أعماقها حيث ترك الظل أثره، وحيث الصوت المسموع في الحلم يواصل رنينه. تقدمت إحداهن وهي إيبيزي، لتخرق الصمت معلنة: سأذهب لأرى إيامبي، وإذا امتلكت الشجاعة، فسأذهب لزيارة عائلتي. حاليا أصبحت اللواتي لم يعثرن على أبنائهن مثل نسيج منسلّ. كان تضامنهن ظاهريا فقط، كانت كل واحدة منهن منشغلة بأفكارها ومشاعرها، لأن لكل واحدة علاقة خاصة بابنها المختفي، علاقة مترسخة في ظروف ولادته، سواء كان نتيجة العنف أو الحب، وسواء ولد للحياة بعد أن تم خنق توءمه في بطن أمه أو تمت التضحية بالديوك قبل أن تعرضه أمه على مرأى أرواح موتى العشيرة، لأنه لم يصرخ ساعة الميلاد. تختلف الأمهات حسب إحساسهن الأمومي تجاه المجلس، لكنهن مع ذلك حضرن كلهن، عاريات حائرات،

يأملن عودة الابن المحبوب أو يرين في اختفاء النسل الذي ولد بطريقة سيئة يد العدالة الثابتة.

أولئك اللواتي سيفتحن بابا للأبناء كن حريصات على عدم القيام بذلك لأن الظلام كان يحجب وجهه. لم يكنَّ متأكدات ما إذا كان هو. في كل الأحوال لن يسمح الآخرون بأن يعود مرة أخرى إلى أحشائهن. حينئذ صدرت عنهن الحركة نفسها وهي جمع الركبتين نحو البطن ووضع اليد بين الرجلين لمنع أي اندساس غريب. عند تلك النقطة التي هنّ فيها. لماذا لا تتناول هذا الموضوع أيضا؟ لم تتردد إيبيزي طويلا، وهي تنهض للذهاب عند إيامبي، قالت: الليلة المنصرمة حلمت بأن أحدهم جاء لرؤيتي. كان كل شيء معتما لدرجة أني لم أرَ وجهه. ورغم ذلك فأنا متأكدة من أني عرفت صوته، صوت مولودي البكر. أراد شيئا، لم أسمع كلامه، فقد بدا خافتا جدا..

عرضت إيبيزي مشاعرها. غادرت الليل في حالة من الارتجاف. أخطرها حدسها أن ابنها مرّ من أهوال ليس لدينا أي فكرة عنها. ألم تفتقر إلى البصيرة؟ تختتم كلامها وهي تتوجه نحو خلفية الكوخ. ربما غادر ولدي هذه الحياة، لا أستطيع الجزم بذلك. كل ما تبقى لي فعله هو أن أتوجه إلى الأسلاف كي تحميه. ودون أن تهتم بصويحباتها تختفي وراء المسكن. أما الأخريات فينصتن لتصلهن أصوات الماء. المرأة تغتسل. هل ستظهر كما إيامبي مضمخة بالطين الأبيض؟ الفكرة تشعرهنّ بالرجفة.

* * *

تسير إيبيزي بخطوات وئيدة، يُبطّئ ثقل أفكارها تقدمها. تتساءل الداية إذا ما كانت قد اتخذت القرارات السليمة، وإذا ما أحسنت معاملة النساء الفاقدات أبناءهن. يحاصرها الشك، وفي نهاية المطاف لم تذهب عند إيامبي. تحتاج إلى أن تتكلم مع أحدهم. لديها صديقة وحيدة

شعرت بالذنب لأنها بالأحرى لم تذهب لتأخذ رأيها، وهي الوحيدة التي يمكن أن تسمعها. المرأة الوحيدة الأخرى توجد في مجلس الشيوخ. تلك التي اختفى زوجها مثلها بعد الحريق الكبير. تعرفان بعضهما جيدا، ومنذ زمن بعيد جدا مازالت الداية تتذكر أن هذه المرأة كانت دائما جزءا من حياتها كما أنهما تزوجتا في السنة نفسها ووضعتا مولودهما الأول، لا يفصل بينهما إلا بضعة أيام.

وهي تمشي كانت إيبيزي تنظر حولها. عادة تكون الأرض حمراء، لكنها مشوبة بالأسود في بعض الأماكن. حاولت النساء جاهدات أن تكنس أثر الشؤم خلال الأسابيع الثلاثة الماضية، لكنه لم يُمح. بنيت بضعة أكواخ، لكن كل ملكية عائلية تحتوي على خمسة أو ستة. ولا يوجد سياج حول المنازل. بالقرب من الباب، الثقوب التي تمنح مظهرا يشبه الكهف لموطن العشيرة، ثم عمود خشبي منحوت وموضوع ليمثل طوطم العائلة. بجانب المساكن التي في طور البناء لا يوجد طوطم ولا حماية. تتنهد العجوز وهي تتأمل هذا الأسى. من غير المعقول أن يحدث شيء كهذا. ومع ذلك فقد حدث، الأكواخ الطينية ذات أسقف من أوراق شجرة الليندي ملطخة بخطوط طويلة سوداء عندما لم تحترق. تقرر أنه لا ينبغي أن تشيد مستقبلا الأكواخ بالقرب من بعضها، لأن ذلك ساعد في المرة السابقة على انتشار النار بسرعة. كان يكفي أن تضرم النار في سقف كوخ كي تعانق النار فورا سقف الكوخ المجاور.

أخيرا، توقفت الأمطار. مازال بإمكان القرويين أن يعانوا من النوم تحت النجوم. هذا الهجوم لم يكن ليحدث خلال موسم الأمطار. خلال هذه الفترة يكون آل المولونغو معزولين. كما أن الطرق المؤدية إلى آل بويلي تكون صعبة الاستخدام، لذا تضاءلت التجارة بين الشعبين. سمعت الداية الكلام عن شعوب أخرى لكنها لا تعرفها. بلا ريب لا بد من عبور

مسافات طويلة داخل الأدغال، كي تصل إلى مناطق تلك القبائل المجهولة. لم تسنح لها الفرصة أبدا لتخوض تلك الرحلة، لتكتشف هؤلاء الغرباء الذين ربما أحرقوا القرية. بالنسبة لإيبيزي وكذلك لكل سكان آل المولونغو الباقين على قيد الحياة، تنتهي حدود العالم عند أراضي شعبها وشعب آل بويلي. وهي لم تر هؤلاء إلا مرة واحدة ومنذ زمن طويل.

صديقتها المفضلة وأول من لقنها المعرفة كانت لديها ميول للمغامرة. ما زالت تفكر إلى اليوم بأن النساء يحيين تحت عبء محظورات كثيرة، بدعوى أنهن حظين بامتيازات هائلة: تمنح الحياة، تنقل سلطة الحكم. لا يمكنهن قطع الدروب. ومعرفتهن للعالم غير مسموح بها. ومع ذلك، فقد لقنهن شيوخهن حكاية العشيرة التي تستحضر حمى الملكة إيميني التي كانت قد قادت شعبها إلى أرضه الحالية، وبالتالي حفظته من المذابح. كانت الأميرة قد نُصّبت من طرف والدها الملك لتخلفه في الحكم. ومن هنا مصدر أن العرش يصبح من حق الابن الأول كيفما كان جنسه. ولكي يستبعد ولي للعهد يجب أن يبرهن عن عدم قدرته أو أن يكون قد ارتكب جرما. كانت إيميني من دون عيوب، قبل أن تغادر هذا العالم إلى عالم آخر، كانت هي من أعطاها الملكُ عصا الحكم.

كان شقيقها المدعو مودورو ساخطا عليها، ويعد منذ مدة طويلة للانقلاب عليها، فقد ضمن ولاء عدد كبير من الوجهاء الذين وعدهم بالغالي والنفيس إذا ما اصطفوا إلى جانبه. وهكذا مع الأيام الأولى من ملكها رأت إيميني شعبها ينقسم وهو مستعد للتناحر. لم تصل الخلافات أبدا إلى هذا المنعطف. كانت تقتصر المواجهات في داخل هذا المجتمع على طقوس خالية من العنف الجسدي. ويتعلق الأمر بمبارزات كلامية، ومصارعات راقصة، وألعاب المهارات الفكرية. أما الأسلحة المستعملة في الصيد فقد كانت بقية الوقت مجرد وسائل احتفالية ورموز للقوة. ورغم كل شيء ها

هو مودورو وأتباعه، يهددون بقتل البشر. لكنّ المخلصين للملكة الشابة يعرفون قيمتها ويحترمون كلمة والدها إلى حد الموت من أجل ذلك.

في البداية أرادت الملكة أن تستبعد مجرد التفكير في التنازل. تستحق عصا الحكم أن يُدافَع عنها، لكي لا تؤول إلى إيد سيئة. إذا كان مودورو يريد الحرب، فسيحصل عليها، كانت مستعدة، وقد برهنت على ذلك آلاف المرات خلال الصيد وفي مجالات أخرى. لا يرهبها الموت. كانت تمثل امتداد الحياة. مجرد تغيير بسيط في ارتجاف يصيب البشر. في الوقت الذي كانت تستعد فيه للمعركة، قررت روح أبيها الملك أن تجرى الحرب بطريقة مختلفة. جاءت لزيارتها ذات ليلة لكي تذكرها بالتقاليد في حالة صراع خطير: بدلا من سفك الدم يجب على أحد المتحاربين مغادرة البلاد. لا يمكننا أن نأمل في الازدهار وتأسيس بنية صلبة إذا اضطررنا للسير فوق جثث أهالينا. وهكذا بدأ النزوح.

تمزقت الأمة، واختار مؤيدو الملكة مرافقتها، ساروا طويلا، وكل من يرغب في معرفة ما هو الأمل والإيمان بالوجود يجب عليه فقط أن يتصور مسيرة إيميني وهي تقود شعبها، لا يمكن للعجائز اللواتي يروين هذه القصة أن يحكمن على المسافة التي قُطِعت بمجرد تسمية الاتجاهات السماوية الأساسية للتعبير عن شساعة المساحة التي وجب قطعها بين شعب الأمير وشعب الأخت، كن يقلن: كانوا يمضون ويمشون ويسيرون من بونغو إلى ميكوندو حيث نستقر اليوم، ساروا، يا بناتي، أقول لكن ذلك، حتى التصق باطن أقدامهن بالأرض، حتى أصبح مستحيلا أن يقوموا بخطوة إضافية، تتذكر الداية ذلك كما لو أنه حدث البارحة، كن ملتصقات بعضهن ببعض داخل الكوخ الذي جمعت فيه الفتيات من فئتهن العمرية، هي وصديقتها تنصتان وهما متحمستان للمزيد من التفاصيل حول الملكة إيميني.

كن يتساءلن بالتناوب ثم جماعة معا: إذن جذور شعبنا من بونغو؟ ولكن ماذا كان اسم البلد السابق؟ لماذا إلى حدود ميكوندو؟ نعم لم لا جودو أو مبينجي؟ آه قولي لنا يا عمتنا هل صادفوا أشخاصا آخرين خلال رحلتهم؟ أليس هناك كائن على قيد الحياة خلال طريقهم الطويل؟ وماذا عن آل البويلي الذين هم اليوم جيراننا، كيف وصلوا إلى هنا؟ وما حكاية هجرتهم؟ وما حدود أراضيهم التي يقولون إنها أكثر شساعة؟ كانت توجد لبعض هذه الأسئلة أجوبة، لكن معظمها من دون إجابة، رسميا، كانت الأخبار الملقنة في ذلك الحين من إيبيزي لصديقتها العزيزة على قلبها تتحول إلى أحلام عن هذه المؤسسة الشجاعة لقبيلتهن، تغيرت وضعية النساء داخل العشيرة عندما انتقلت الملكة إيميني إلى بلاد الموتى، كان ولدها البكر المسمى مولونغو الذي تقلد مقاليد الحكم قد أمر، منذ عدة أجيال مضت، بأن ينقل الكرسي وعصا السلطة من الأم إلى الابن، ويمكن للرجال أن يتخذوا ما شاؤوا من الزوجات.

لم يعد ينطق اسم هذه الملكة القديمة، إلا في إطار التعاليم الممنوحة للفتيات أثناء بدء عملهن، إذا كان التابوت قد نحت لتكريمها، فإنها لم تلقَ توقيرا، التمثال المثبت فوق التجويف الذي يحتوي أشلاءها لم يُعد بحب واحترام، لا تتلقى روحها القرابين إلا نادرا، وحدهن النساء اللواتي يقال إنهن يمتلكهن قوة رجالية يستحضرن في الخفاء الملكة المنسية، عندما يضطررن لمواجهة موقف صعب، فينادينها: إيميني أنت التي سرت من بونغو إلى ميكوندو كي تمنحي شعبك أرضا، ساعدينا.. ذات يوم، عندما كانتا شابتين وحينما كانتا تذهبان لجمع الأعشاب من الغابة، شاهدت إيبيزي وصديقتها إليكي فرقة من رجال العشيرة وهم يحثون الخطى للذهاب عند شعب آل البويلي، لحقت الفتاتان بهم مختبأتين خلف الأدغال والأشجار الكبيرة كاتمتين نفَسهما، وحينما توقف الرجال خلال الليل، توقفتا أيضا.

لم يُكتشف أمر المراهقتين إلا في اليوم التالي، عند نهاية النهار، بينما كانت القافلة تصل إلى وجهتها، توعدوهما بالعقاب، لكنهما تمكنتا من رؤية جزء من عاصمة بلاد آل البويلي، كانت عبارة عن أكواخ فسيحة ولم يكن شكلها دائريا كما في بلادهما، ولم تكن كذلك مسقوفة بأوراق الشجر، كانت سقوف هذه المساكن مصنوعة من الطين، وكانت الأبواب من الخشب المحفور تغلق مداخل المساكن، على جانبي الجدران في الخارج، كل أسرة رسمت أفاريز، تصور الطوطم المعبّر عن الأسرة القاطنة، التي توجه رسالة إلى الآخرين، ذات صلة بحدث كبير، كانت نساء قبيلة آل البويلي من يرسم هذه الأشكال بواسطة قطع من الحجر المخضب بالصلصال الأبيض ومستخلص من الأعشاب المنتجة للصباغة ذات لون داكن.

كان لكل مسكن مخزن يحيط به، عندما كان هناك واحد فقط لثلاث أو أربع عائلات في نفس المجمع العائلي، تلقت الشابتان المغامرتان الأمر بالبقاء على حافة المدينة العظيمة لآل البويلي بينما ذهب الرجال للمتاجرة، لكنهما شاهدتا هذه الأشياء مصعوقات من المعاملة بين رجال عشيرتهما ونساء آل البويلي، لم تستطع أية فتاة غيرهما من قبيلتهما السير إلى هنا. عندما سردتا ما شاهدتاه اتهمتهن أخواتهما بالمبالغة لإثارة الاهتمام، كانتا قد عوقبتا بأيام من العمل المنزلي لخدمة الشباب من الفئة العمرية نفسها، وقد نجتا من العقاب الجسدي بفضل مولد النبيل إليكي. تبتسم العجوز وهي تستعيد ذكرى هذه المرحلة.

تشرع بخطوات صغيرة في الصعود إلى أعلى التل حيث تعيش صديقتها، خيّل إليها أن الصعود سيدوم أبدا، يبدو المشهد من حولها قد تحوّل كثيرا، ليست هناك أكواخ محروقة، الأشجار المورقة تمد أوراقها فوق المساكن الأكثر مهابة من تلك الجماعية، أعضاء العائلة الحاكمة لم تختبرهم المحن

بعد، مازالت طواطمهم في أمكانها، تنتصب بفخر نحو عنان السماء، شعرت إيبيزي بلظى حريق في فخذيها، وبتشنج في الساقين كلما واصلت التسلق، فقدت تنفسها، قريبا ستتوقف أمام الملكية السكنية للزعيم، كان الحراس الذين يرتدون قلنسوة للرأس مصنوعة من الألياف النباتية تذكرنا بلبدة الأسد واقفين على طول الطريق الذي من خلاله يدخل المرء إلى المواقع، عندما تعرفوا عليها أخفضوا رؤوسهم مفسحين لها الطريق ومحيين إياها: عمتنا، كيف غادرت الليل؟ أجابت المرأة بإيماءة من رأسها.

تقف الآن أمام الكوخ، نادت العجوز: يا إليكي.. هذه أختك جاءت لتراك. سامحيني، تأخرت عن المجيء، هل يمكنني الدخول؟ خرجت امرأة شابة على الفور، خافضة عينيها وحيتها، نعم، يمكنها الدخول إلى البيت، كانت صديقتها تنتظرها منذ زمن طويل، لكنها لم تلمها عن أي شيء، تمر الداية عبر الباب إلى غرفة وحيدة ودائرية، وكما في الأكواخ كلها التي تقيم فيها النساء، كانت هناك جرار تحتوي على المتعلقات الشخصية مكدسة على طول الجدران الجانبية، يتم الطهي في الخارج ولكن الأواني وصحون القرع (الكلاباش) والأجران والمدقات، فإنها مرتبة في الداخل، كوب يحتوي على راتينج عطري يذوب ببطء تحت تأثير الجمر، يتعلق الأمر بلحاء معروف بتطهيره للجو، إليكي ممددة فوق حصيرتها محمومة لا تقوى على ترك فراشها، إحدى زوجات أبنائها تسهر على رعايتها، إنها المرأة الشابة هي من جاءت لاستقبال الزائرة.

شعرت الداية بصرير مفاصلها كلها وهي تنحني لتجلس بجانب الحصيرة ممررة ببطء كفها فوق جبهة صديقتها وهمست: يا إليكي، ألا يريد إذن هذا المرض أن يتركك؟ لو كان ميريدين هنا لخلصك منه منذ مدة طويلة.. بعد تفوهها بهذه الكلمات سكتت إيبيزي، إحساس بوخز خفيف يصعد إلى حافة جفنيها يشير إلى أنها ستجهش بالبكاء، وبصوت

أجش قليلا تخاطب المريضة: هيا اذهبي وأعدي قليلا من بوبولوبولو، أنت تعرفين أنه يجب أن أتناولها بانتظام، عرجي في طريقك على عمتك إلوكان، اسأليها إذا ما كانت تحتفظ بالأليكين.. استوعبت المرأة الشابة الأمر وتركت العجوزين، فورا وبعد انصرافها أجهشت الداية بالبكاء، أمسكت صديقتها كفها وقالت:

- يا ابنة إيميني، ماذا فعلت بقوتك؟

- آه يا أختاه (ردت الداية) قوة أمنا تخلت عني منذ زمن طويل، أصبحت أشك في قراراتي، ثم هناك اختفاء زوجي، كما أنه لم يتجلَّ لي ولا إلى ابني الأكبر، وهذا غير عادي، إني خائفة..

إليكي وحدها من يمكنها سماع الداية تتفوه بمثل هذه الكلمات، أمام هذه المرأة فقط تسمح العجوز لنفسها بأن تصبح امرأة عادية، وفريسة للذعر وللخوف من الفشل. يا إيبيزي، قالت المريضة بصوت خافت، أنت محقة في مخاوفك، ما حدث شيء جسيم.. أخذت كف إيبيزي التي تمسكها صديقتها تهدأ شيئا فشيئا، بدا لها كل شيء واضحا، يتعلق الأمر بالنساء اللائي لم يُعثَر على أبنائهن، كما كان عليها أن تتصرف بطريقة مختلفة، وبتواضع حكت وقائع الأسابيع الماضية، تتنهد المريضة: لا تلومي نفسك كثيرا، ليس من السهل التصرف بطريقة أفضل، عندما لا يمكن للمرء الاعتماد إلا على نفسه فقط، نحن نعرف أن هذه عصابة من العجائز المحتالين، لن تساعد في أي شيء عندما يكون الأمر جللا، أنا أتأسف لأنني لم أستطع مساعدتك.. شرحت إليكي طبيعة الحمى التي ألمّت بها، في اليوم الموالي للحريق، ليس مرضا عاديا، يمكن علاجه بتناول بوبولوبولو لتطهير الدم، ولأنها تحمل صفة معالجة للعشيرة، فقد اعتقدت أن بإمكانها بسهولة التغلب على مرض بسيط، ستحتاج إلى استشارة المرشد الروحي، لكنه غير موجود، تكافح بواسطة رؤى تداهمها منذ أن اختفى الاثنا عشر

رجلا من العشيرة، أحد هؤلاء زوجها موتيمبو الذي تزوجته لأن قلبه اختارها، وقبِل بألا يتزوج امرأة أخرى كي يقترن بها.

ولأنه لا ينتمي إلى سلالة نبيلة مثل إليكي، فإنه كان من الممكن ألا يتزوج النساء من الطبقة السامية إذا ما اختار تعدد الزوجات، ليس من اللائق أن توضع فتاة من سلالة ذات مقام رفيع، بين زوجات مع وضع اجتماعي أقل. عندما تزوجا ترك موتيمبو الملكية العائلية وقطن الربوة حيث تقيم من اختارها، تعرّض إلى التهكم والإهانة من طرف عائلة زوجته التي يجب أن يواجهها عموما الأزواج الشباب، هذا هو الرجل الذي تفتقده إليكي، في اليوم الموالي للحريق الكبير لاحظت أنه غير موجود، ماذا حدث عندما اندلعت النيران؟ وما الوجهة التي ذهب إليها موتيمبو؟ لماذا تظن أنه جريح؟ إليكي لا تعرف، كل ما تعرفه أنه متغيب منذ ثلاثة أسابيع، وأن صوتا من دون وجه يأتي لزيارتها. الجميع يعتقدون أن العجوز تهذي، بيد أنها لا تكف عن التكرار بصوت خافت وبرعشة شفتيها المتيبّستين كلام المتحدث بلا وجه، هي في الغالب كلمات مبهمة ومبتورة، تستعيدها المرأة كما تُليت عليها، ما تزال تسمعها دون وضوح، في تلك اللحظات كانت تصرخ وتزمجر وتطلب أن تعلم ماذا حصل لزوجها ومحبوبها.

وبعد تفسير الرسائل، أكدت أن آل البويلي يعرفون الجواب عن الأسئلة التي يطرحها آل المولونغو، يعلمون مصير هؤلاء الذين اختفوا، كان الصوت الذي يصلها رغم أنه مكتوم قليلا إلا أنه طوال الوقت يكرّر لها. حان الوقت، قالت معلنة، يجب أن يذهب زعيمنا شخصيا إلى ملكة جيراننا، تحدثي إليه على انفراد لأنني أرتاب من أخيه الجاسوس، وفيما يتعلق بالنساء المقيمات في الكوخ الجماعي تظن إليكي أن الداية قد أدركت خطأها، ليس من السهل إصلاحه، لكن يمكنها أن تكسب بعض

الوقت، لا تتخلَّي عنهن، ألحّي على إرسال لجنة عند قبيلة آل البويلي قبل أن يصبح مصير أبنائنا محتوما، ومن غير المقبول أن يخضعن لطقس التطهير مادمن لا يدنسهن أي شيء، يجب اتخاذ إجراء آخر، أسرعي، بعد هذه الأيام من العزلة سيبدأان بالتداعي وسيبدأ الخلاف ينشب بين المجموعة.

تسعل إليكي، نوبة من السعال جافة وطويلة ترجّها بعنف، إلى درجة أن صديقتها يجب أن تدعمها بكلتا يديها كي لا يشرع جسدها بالدوران في أرجاء الغرفة، جسد إليكي ملتهب وشفتاها متشققتان، وقاع عينيها أصفر، يبدو أنها لا تتغدى كثيرا، تشتكي من ألم حاد في الفخذ، لكنها لا تعرف كيف تعالجه مادامت ليست هناك ثنية، وليس هناك أدنى خدش، بقيت العجوزان معا لحظات أخرى، لكن الداية لديها الكثير للقيام به، يريد الزعيم رؤية إيامبي، ستذهب لإحضارها مستغلة ذلك لنقل كلام صديقتها إلى الوجهاء، ثم يجب عليها أن تلتحق بالنساء اللائي فقدن أبناءهن، لم يترك لها اليوم أدنى لحظة راحة، لم تتناول شيئا ولو رشفة ماء، وبينما تستعد للانصراف شدّت إليكي على كفّها بقوة: انتظري، انتظري.. لست الوحيدة التى تسمع أشياء منذ الحريق، ليس من الممكن له أن يقول أي الرسائل التي تلقاها الآخرون، ومع ذلك أكدت إليكي أن امرأة على الأقل من بين النساء اللائي فقدن أبناءهن قد دخلت في مناجاة مع ابنها البكر. ستتعرفين عليها، أنصتي لقلبك، هذه المرأة شجاعة، ابنة مشرفة لإيميني، وممثلة مقدامة لإنيي، لا تتركيها تظهر أمام الحكماء، إنها تمشي نيابة عنا.

أمام أكواخ الملكية كانت النساء يضفرن شعورهن بواسطة خادماتهن، كن يصففنه عاليا وكأنه شلال، كانت هذه التصفيفة منتشرة بقوة في القرية. التي اخترعت هذه الطريقة هي ضمن المعزولات داخل الكوخ

الجماعي، يتعلق الأمر بإيامبي تلك التي يريد الزعيم رؤيتها، شعرت الداية بانقباض قلبها، كل واحدة من هؤلاء اللواتي فقدن أبناءهن تتكفل بعمل محدد داخل القرية، كل واحدة تضيف شيئا إلى العشيرة وتمتلك حساسية فريدة.

وبينما أسماء ووجوه ومميزات هذه النساء تستعيدها من الذاكرة أحست العجوز بالندم لأنها نسيت ذلك كله يوم أشرفت على إبعادهن داخل الكوخ الجماعي وهي تعلمهن ببرود أي نظام يجب عليهن العيش وفقه من الآن فصاعدا. لم أكن نفسي، لم أكن بطبيعتي، همست لنفسها، يا إميني أمّنا تلطفي بمساعدتي كي لا أضل أبدا، ويا إنيي، أنت الحقيقة والعدالة والانسجام ساعدني على احترام مبادئك خلال المحن التي تضرب شعبنا. وختمت وهي تمنع نواحها، اغفر لابنتك تصرفها دون أن تلتمس أولا مساعدتك، كانت عينا الداية مغرورقتين بالدموع وهي تصل إلى مخرج الملكية الجماعية. النهار سيؤول إلى الزوال، والشمس ارتدت ملابس النساء الأنيقة كي تتحول إلى «إنانج» غامرة الأرض بوميض عذب، منسحبة خلسة عن أنظار البشر، تاركة مكانها لليل، وحينئذ ستخوض رحلتها عابرة العالم السفلي، ثم تنبعث من جديد بعد أن تكون قد واجهت وصرعت الوحش المسمى: سيبوبو.

تريد إيبيزي أن تصل إلى قاطنات الكوخ الجماعي قبل حلول الظلام، لديها اعتقاد بأنها لم تعد قادرة على التفكير، انفعالات كثيرة تضطرم بداخلها، غادرت للتو صديقتها الوحيدة وهي تخشى ألا تراها مرة أخرى لفرط ما أظهرته من هشاشة، كما أن الكلمات التي أرادت أن تنقلها إليها وهي تجمع قواها الضعيفة قد فاقمت علّتها وزادت من تعبها. تجادل الداية نفسها، لا يقرر البشر من يجب أن يعيش أو يموت. نيامبي الكيان الذي هو في نفس الوقت أب وأم للأحياء كلهم، تعرف اللحظة والطريقة.

في هذه اللحظة، التي تمر على هذه المرأة القوية لا تدرك فيها سوى مكامن ضعفها، أحيانا تريد أن تكون من اللواتي لا يلفتن الانتباه واللائي لا يُنتظَر منهن شيء.. خطواتها بطيئة عكس رغبتها، تريد العجوز أن تركض صوب مخدع إيامبي للانضمام بسرعة إلى اللواتي يقطنّ في الكوخ الجماعي، العينان مثبتتان على الطريق متفادية الترويح عن نفسها بالمشهد المحيط بها والابتسام لأغاني القوة التي يترنم بها رجال منشغلون ببناء مسكن جديد.

لم توجه كلمة واحدة للمراهقتين العاكفتين على تليين طعام المبا بانتظام، ورغم ذلك فقد كان كل شيء يحرك مشاعرها بعمق شديد لدرجة أنها سوف تذهب لمعانقة كل واحدة منهن، إذا أصغين إلى كلامها، فورا بعد الحريق اتخذت القرارات التي أرادت أن تمحو أثر الفاجعة، نحن لم نتحدث ولم نعرف ماذا سنقول.

إذا كان مويتيتي هو أيضا الشكل الذي يأخذه الصمت، فليس فوق الكوخ الجماعي، فحسب، خيّم بهالته السوداء، ومن أجل تبديدها غنى الرجال، والبنات أجهدن أنفسهن للمحافظة على الإيقاع، ثم يسحقن درناتهن من أجل تقديم الطعام مساء. ساهم الحريق واختطاف اثني عشر فتى من العشيرة في عزل النساء العشر وإغراق الحياة اليومية للمونولغو في العتمة، وليست هي من سيدّعي عكس ذلك، مذاك هجرها النوم، مذاك صارت ضراتها ينمن في كوخ واحد، تقضي سحابات يومها وهي تستخدم ذخيرتها من الحيل والذكاء كي تتفادى أسئلة أبنائهن الصغار القلقين على مصير آبائهم، هل تركنا ورحل؟ يعلم الجميع أنها تملك قوة جبارة لمواجهة أي نوع من الأوضاع، هذا ما يسمعونه دائما عنها، وإذن ماذا جرى؟

تسير إيبيزي مطأطئة رأسها، وبذلك لن يرى أحد دموعها، ولن يكتشف

أحد ضيقها، ساعدها البكاء على الحثّ من سيرها، هذا لم يحررها كليا من القلق، لكنه خلصها قليلا من كربتها، كانت عيناها جامدتين، ورأسها شامخا. عندما بلغت المحمية العائلية لإيابي حُيّيت باحترام وأفسح لها الطريق، بدت الداية تعرف إلى أي اتجاه تمضي، وهذا لم يدهش أحدا، لم تشاهد هذه المرأة قط فريسة للتردد، عندما وقفت أمام كوخ إيابي، كان الكل ينتظر أن تأمر هذه الأخيرة للخروج وأن تخبرها بعقوبة المجلس المعلنة في حقها، لأنها تجرأت على مغادرة الكوخ الجماعي، لكن صوت العجوز كان لطيفا حينما نادتها مستأذنة في الدخول إلى المسكن، من الخارج لا يمكن رؤية صاحبة البيت وهي ممددة في أحد الأركان أسفل الحائط المهدم نصفه، الذي مازال يحافظ على خصوصيتها، بلغت عبارتها إلى مسامع الجميع: «هيا، ادخلي يا عمتنا».

عندما دخلت إيبيزي إلى الكوخ، لم تكلف المضيفة نفسها عناء الوقوف، واكتفت بالقول: «اغفري لي يا عمتنا، أنا منهكة». تومئ العجوز برأسها وتجلس على الأرض، لم تبد أية ملحوظة حول جزّ المرأة شعرها على شاكلة النساء في حالة الحداد. جمعت خصلات الشعر داخل وعاء طيني في انتظار حرقها وخشية استخدامها في أغراض السحر، ودون أن تعرف السبب، لم تخبر الداية إيابي أن الزعيم يطلب حضورها، اكتفت فقط بتمرير يدها فوق وجه التي لم تعثر بعد على ابنها، وقالت: «يجب ألا تمكثي هنا». ردت المرأة فورا: «ليس في نيتي البقاء، هنا». «حسنا» أضافت العجوز «سنحرق شعرك، ونغادر المكان». همهمت إيابي أنها لم تمتلك الشجاعة قبل قليل، لتفعل ذلك، كان هناك حشود في الخارج، أيضا هذه الزهرة، لكن من الضروري أن يوارى الثرى ما تبقى من المشيمة.. من المستحيل الذهاب دون القيام بذلك، هنا أيضا لم تطرح العجوز أي سؤال، لقد فهمت.

عند طرف هذا الكوخ المهدم بعضه، نزلت عليها السكينة، ليست محوا للحزن، وإنما شيء آخر. سلفا وقبل أن تجد نفسها أمامها، فكرت إيبيزي أن من الضروري حماية إيابي ووضعها في مكان آمن من رعود المجلس، في الوقت الحالي، استوطنها من الداخل شعور يقيني: هذه المرأة هي نفسها التي حدثَتْها عنها صديقتُها، حينئذ فسّرت لها قائلة: لن يكون هناك سوى التراب، الآن، يمكنك أن تأخذي الكمية الكافية، سأذهب معك، في البداية سنذهب لإحراق شعرك، وهي تهمس هذه الكلمات تطلعت العجوز من فوق الحائط المهدم، فلمحت ضرّات إيابي على بعد خطوات منهما يحاولن استراق السمع لبعض العبارات، دفعتهن نظرات العجوز إلى التراجع والالتفات، هذه المرأة أرسلت طفلا لإبلاغ الوجيه «إلجانيا» عنك، غمغمت إيبيزي: هيا نغادر.

* * *

عند مغادرة الملكية العائلية لإيابي، صادفت المرأتان إيبيزي التي غادرت للتو الكوخ الجماعي، كانت بدورها معفّرة بالطين الأبيض، قالت لها الداية آمرة: اذهبي عند الوجيه «إلجانيا» قولي له إن إيابي لا يمكنها الحضور في الوقت الحالي، أخبريه بأني سأقضي الليلة في الكوخ الجماعي، وأرجوه أن يأتي بنفسه للقائي هناك. وقبل أن تتبلور أدنى فكرة في ذهن إيبيزي التي كانت لديها مخططاتها الشخصية، أخذت العجوز رفيقتها، كانت هذه الأخيرة تمسك بين يديها وعاء يضم قليلا من التراب، آخذة بعين الاعتبار المحافظة على الزهرة المكشوفة أسفل جذور الشجرة التي تشبه وعدا بالانبعاث، لم تر ضرتها إكيسي وهي تحوم حول الحفرة حيث شاهدت مليا هذه الغرسة المزهرة المفاجئة، كان يجب المحافظة على هذا الشيء الهش، لكي يبقى سليما، كانت بقية الأسرة تراقبها مذكرين إياها بأنه لا يجوز الاقتراب من الشجرة التي دفنت أسفلها مشيمة امرأة، وقد

شرحوا لها أن الأمر يشبه لمس الأشياء الحميمية لهذه المرأة، ردّت إيكيسي غير عابئة: لم تعد هناك لا شجرة ولا مشيمة، كما لو أنها رجعت على أعقابها كان عزمٌ يُغرس بقوة في قلبها، فيما بعد حينما لا أحد سيرتاب، ستذهب لإغراق هذه الزهرة بالتبول فوقها.

عندما لمحن إيابي عائدة رفقة الداية ارتبكت النساء اللواتي لم يعثر على أبنائهن بعد، لاحظن خصلات شعر رفيقتهن المقصوصة، فتهيّأ لهن أنهما قادمتان لإخضاعهن للطقس الذي سيجمد حالة حدادهن. لا يحب بعضهن ذلك مفضلات أن يترك لهن الأمل، بصيص من الأمل، كانت ثلاثة أسابيع غير كافية للتفكير في أبنائهن كمثل روح تحاول أن تشق طريقا صوب العالم الآخر، يردن أن يشاهدن أبناءهن أحياء وأن يظهروا من جديد رفقة إخوانهم قائلين بابتسام: يا للغباء! لقد تُهنا داخل الغابة.. فليضحك سكان القرية كلهم على هؤلاء الشباب المبتدئين الذين مازالوا غير قادرين على إيجاد طريقهم داخل هذه الأعشاب المتشابكة التي تحيط بأراضي العشيرة، ولتقم الجماعة الولائم لأيام مديدة للاحتفال بعودة الأبناء الأوائل لهذا الجيل.

لا دواء لأسى بعضهن اللائي يحلمن برؤية أبنائهن المتبخرين. بالنسبة لهن، حان الأوان للتخلص من كل شيء، وأن يحدث شيء على الأقل، هذا العزل وهذا النفي لا ينبغي أن يستمر، وإذن، فلتجزّ شعورهن، لم يتبقَّ غير هذا كي يسمح لهن بعيش حياة عادية وجديدة، فليقدمن قرابين إذا لزم الأمر، وليحرق اللحاء المساعد على النسيان، لأن هذا الفتى الذي لن يرينه، كان جرحا دائما. ورغم السنين لم يكن من الممكن النظر إليه دون تذكر ظروف تكوينه أو المحن المرتبطة بمولده الشاق، والنظرات التي كان يجب تحمّلها والطقوس التي كان عليهن القيام بها، إذا كان مولودهن البكر قد مات، فلتذهب روحه، إذن، حيث تشاء، وليحلّ في أي مكان

يشاء، وليس في داخلهن. عندما قدم الظل اعتمدن على عزمهن، معلوم أنهن أصبحن صمّاوات لهذه التوسلات، نعم، فليحلقن رؤوسهن ولننته، مثل أخواتهن اللائي ينصتن ويتبعن أكبرهن.

ومع ذلك، بمجرد وقوفها أمامهن لم تجد العجوز نصائح لقولها، لا شيء تقوله يتعلق بالطقوس الجنائزية، وبخصوص رقص الموتى، لا شيء أعددنه لمراسم دفن رمزي للذين لم يعثر عليهم، كما لم تطلب الداية من النحات إعداد نصُب يجسد ليس صورة المالوبا وإنما التعزيمات والابتهالات، إن النصب عبارة عن صلوات، يحتاج إليها اللائي لن يشاهدن أبناءهن. للأسف لم تتلُ الداية عبارات الخلاص، لأنها تريد أن تحض قاطنات الكوخ على الاتحاد، لأن المجلس يبحث عن مذنبات لما جرى، وسيكنّ في مقدمة المعنيّات، في الواقع لم تخبرهن إيبيزي أن المهددة الوحيدة بينهن هي إيابي، أما الأخريات فيمكنهن الإفلات إذا خضعن لإجراءات التطهر، لكنها أخفت الأمر عنهن معتقدة أن ذلك سيحافظ على انسجامهن.

كانت النساء اللائي فقدن أبناءهن يستمعن بصمت، حينما أخبرتهن العجوز أنهن من الآن فصاعدا سيمكثن في السكن الجماعي، غير أن هذا لم يزعزعهن قيد أنملة، همهمت إحداهن: عمتنا، هل تتناولين شيئا ساخنا؟ سأعده لك.. ردت العجوز: أشكرك يا بنتي، سنتناول الطعام جميعنا، ستساعدك إحدى أخواتك. خلال برهة، عم الصمت من جديد، يبدو أن النساء مشوشات بما حل في أعماقهن، إذا كانت الداية لم تفقد بعد نفوذها، فإنها تعاملت معهن بتسامح لم يعرفن مثله حتى اليوم، لم يسمح لهن أبدا أن يعاملنها على قدم المساواة، لأن هذا لا يوافق منزلة الأشياء ولا يسمح بأي نوع من الألفة بين الأشخاص الذين لا ينتمون للجيل لنفسه، كانت النساء اللواتي لن يرين أبناءهن يتساءلن إن كان من الجيد فرض شكل من أشكال الانتهاك، وكان قد حدث بواسطة الداية المحترمة

جدا في العشيرة، كانت مهارات إيبيزي تضعها في مرتبة عالية عن نساء المجموعة. خفضت المعبدات رؤوسهن بصورة غريزية، انسحبت إحداهن من المجموعة للالتحاق بالتي اقترحت إعداد الطعام.

خاطبت إيبيزي اللواتي مكثن برفقتها قائلة: لن يتأخر الظل عن النزول، سيكون من الأفضل إشعال النار التي ستجلس النساء حولها، وبعدما تشاركن الطعام استحضرن الأسباب التي دفعت معلم الأسرار الشاب لأن يحضر ساعة الفجر لاستجوابهن. في الوقت الراهن، ستخبر العجوز من ترغب بمعرفة أحوال عائلتها، وهن يحاولن إقامة موقد أمام الكوخ الجماعي، سحبت العجوز إيابي لتنفرد بها جانبا، ابتعدا بضع خطوات، أفهم ما تريدين تحقيقه، كيف ستتصرفين؟ حدقت المرأة في وجهها وقال: سأكون مسترشدة إلى المكان، أنا واثقة من ذلك، تلح العجوز، قد يكون الطريق طويلا، ليس من الآمن السير بمفردها.. بالمناسبة متى تنوي إيابي الذهاب؟ شرحت هذه الأخيرة أنها ستسير قبل طلوع النهار، سيكون الآخرون نائمين وفي الوقت المحدد لتغيير الحرس عند حدود القرية، خلال بضع لحظات لا تكون بها حراسة، ستتسلل خلال الفاصل الرهيف الذي يفصل الليل عن الصباح، تومئ العجوز برأسها، بينما تغرورق عيناها بالدموع.

بعد تأكدها من أن الآخرين لا يرونها، وضعت الداية يدها اليمنى على جبهة السيدة وهمست: إيميني اجعل روحك تهبط على ابنتك لتشفع لها لدى «إينيي»، مهد لها الطريق كي تعود إلينا سالمة آمنة، سحبت الداية تميمتها ولم تكن قد خلعتها من قبل، وضعت تلك القلادة حول عنق إيابي وأوضحت قائلة: أنا الآن امرأة عجوز، لن تنفعني تلك القلادة بشيء، ولكنها سوف تحميك، فأي شخص يريد أن يلحق بك أذى سيسقط قبل أن يلمسك بسوء، وكل سلاح أُعد أو صُوّب من أجل تدميرك سيكون عديم النفع.

- هل تريدين أن نتحدث إلى أخواتك؟

- ستخبرينهن، عمتي إيبيزي - قالت المرأة - عندما سأغادر القرية، دعي الشمس تطلع إلى ذروتها، حينئذ أخبريهم.

* * *

عندما استعدت للانضمام إلى النساء الأخريات، ظهر إلجانيا متبوعا بثمانية حراس، كان يرتدي الموسوكا التي كانت أهدابها تتدلى من أكثر من جهة على وجهه مغطية عنقه وكتفيه، كان لباسه عبارة عن سانجا طويلة منسوجة بألياف نباتية، كان هذا الرداء حكرا على الزعماء، تماما كجلد الفهد الذي يحيط بكتفيه، يشد موكانو بيده اليمنى عصا الحكم، كان مقبض العصا منحوتا على شكل فهد، رمزا مؤكدا على علاقة شعبه بسيد الأدغال، كانت العصا على طولها تحمل نقوشا تمثل عددا من الرموز التي تجسد تاريخ سلالته، يد شرعية واحدة مسموح لها بلمس العصا، كان الزعيم يغرسها في الأرض على مقاس خطواته ويتنقل بحضور من أسلافه وتحت وصاية أرواح العشيرة، في انسجام مع الطبيعة، كان حذاؤه يترك فوق الأرض أثر خطواته النبيلة، يرافقه عن يمينه قارع طبول يعلن بإجلال لحظة مروره. إيبيزي التي رجتها الداية لتذهب لعلاج الزعيم تسير في الخلف، مادام موكانو يسير أمامها، فهي ليست مضطرة كباقي قاطنات الكوخ، لتنبطح على بطنها علامة على الخضوع، وليست ملزمة بإعلان التمجيد والتبريك لتحيّته، يتوقف الرجل ومرافقوه على مسافة قصيرة من المسكن، مما اضطرها إلى التوقف أيضا، كانت تحس بالجوع الشديد، وترغب بالجلوس، لكن سيعيب عليها الآخرون جلوسها بينما موكانو ما زال واقفا، بعدما جلست على ركبتيها، لبرهة كما يفعل الذكور، احتراما للزعيم، تقدمت الداية تاركة خلفها المبعدات منبطحات على الأرض، لم يستطعن غض بصرهن لأن هذه المرة الأولى، منذ تجميعهن

تحت هذا السقف. يحضر موكانو إلى هذه المنطقة، يبدو قلقا، هل يجب أن تكون اللحظة خطيرة حتى يأتي إلى هنا؟ لا بد أنهم خبؤوا شيئا عنهن، بدت لهن العجوز مشتبها بها، شعرت اللواتي فقدن أبناءهن بالانقباض، كن يرغبن أن يخفضن رؤوسهن كما يقتضي الاحتشام، لكن من المستحيل بالنسبة لهن أن يشحن نظراتهن عن المشهد، وبخاصة أنهن لا يسمعن ما يقال.

تعبّر إيبيزي عن امتنانها: أنت الذي تربّيت خير تربية، أثني على عظمتك، لأنك سمعت نداء امرأة. وقفا كلاهما بعيدا جدا عن الحرّاس وقاطنات الكوخ الجماعي، سيبقى حديثهما سريّا، يومئ موكانو برأسه: تلزمني مكانتك داخل جماعتنا، خصوصا في مثل هذه الأوضاع، كان بودي أن أحضر فورا، لولا انتظاري تقرير المتعقب الذي أرسلته للاستكشاف، أخي غادر القرية وهذا لا يبشر بالخير.. أفترض أنك تريدين أن تتحدثي معي في أمر آخر. بصوت خافت توافق وتستعجل لنقل كلام صديقتها: ألحّت كثيرا، حيث إنك تعرفها، فهي لا تتحدث إلا عن الأشياء المهمة، ولا يمكنها أن تتحقق على أرض الواقع إلا عبر شخصكم. لم تخطر بباله هذه الفكرة، يشاطر موكانو رأي العجوز إليكي: حان الأوان للمثول أمام نجانجو، ملكة قبيلة البويلي.

كانت العبارات التي نقلت إليه تحمل في طيّاتها معلومة مقلقة، يمكن أن تكون قبيلة آل البويلي على علم بمصير المختفين الاثني عشر، يفكر موكانو في أخيه المسؤول عن العمليات التجارية في العشيرة وهو من يعرف جيدا الشعب الجار، هل يجب الاستعداد للحرب؟ استنكر أفكاره، فالزعيم يفضل أن يتصور الحلول الدبلوماسية، منذ إنشاء العشيرة لم يلجأ آل المولونغو قط إلى محاربة جيرانهم، بكل تأكيد العشيرة تمتلك محاربين، لكن هذه الهيئة لا توجد إلا من حيث المبدأ، معاركهم الأكثر

قسوة تتكون من الرقصات خلال الاحتفالات، يفتخر آل المولونغو بأنهم لم يسفكوا أبدا دماء بشرية.

ولإبعاد الشعور الأسوأ الذي أخذ يعصر أمعاءه، سأل موكانو: لماذا لم تحضري إيابي؟ تراجعت الداية خطوة، وهي تشبّك يديها خلف ظهرها: لا يمكنني أن أخبرك بالمزيد، يا جانيا، لكن ابنتنا لا يمكن أن تمثل أمامك في هذه اللحظة. ما خطبها؟ يسأل الزعيم، هل هي.. متوعكة؟ أبدت المرأة تخمينه: إلى حد ما، ادعت المرأة، سترى ذلك في أقرب وقت ممكن. وتضيف: يا جانيا لا تتعجل الذهاب عند آل البويلي دون أن تعرض نفسك على الأسلاف، على مالوبا وعلى نيامبي، اعلم أنك تستعجل القيام بهذه الرحلة.. يومئ الرجل برأسه، يستدير على أعقابه، خطا سلفا بضع خطوات، حينما قال دون أن يلتفت نحوها: يا امرأة احترميني، كما أحترمك.

يتقدم إلجانيا وحراسه أمام إيبيزي دون رؤيتها، يقرع الطبال الآن قرعا خفيفا، وبالصرامة نفسها، تنتظر المرأة ابتعاد الموكب كي تنصرف، يتناهى إليها صوت طبل الإبط كنشيد جنائزي. انصرم النهار، ولم تنجز الإيماءات المخطط لها، وهذا يمزق قلبها، تلوم نفسها لأنها لم تجد الشجاعة لتمثل أمام الزعيم وهي تضع الكاولين على وجهها وكتفيها، تشعر بالعار لأنها طالبت بالماء من عائلة إيابي، كي تنزع الصلصال الأبيض، دون أن تنظر إليها وجها لوجه، أحضر لها إناء الكالاباش ووضع فوق الأرض، عندما مدت يديها في اتجاهه، نظفت يديها بصمت، تعتقد إيبيزي أنها خانت ابنها للمرة الثانية، وهذا لا يطاق بالنسبة إليه، كانت الصرخات التي تريد إطلاقها تخنقها، حينما التحقت بالمبعدات عن العشيرة، بخطوات محسوبة.

* * *

ارتفعت نيران الموقد، النساء الآن جالسات في شكل دائريّ، لا يتبادلن أطراف الحديث، بعد أن ألقين أنفسهن على الأرض لتحية الزعيم، الجزء

الأمامي من أجسامهن معفر بالتراب، مازالت تحمل بعضهن آثاره على الخدين والشفاه والذقن، كل واحدة منهن تتفادى نظرات الأخريات، لم تقربهن محنة الإبعاد إلا فترة قصيرة. عند الفجر، عندما كان من الضروري أن يحتضن بعضهن البعض ولكي يكتشفن من يناديهن خارج الكوخ الجماعي، منذ ذلك الوقت لم يجدن سببا كي يفترقن عن بعضهن، لم تجلس إيابي ضمن حلقة النساء، كانت تجلس بعيدا عنهن، لم تفكر في الانبطاح أمام الزعيم، وكان الصلصال الأبيض الذي يضمّخ وجهها يدلّ على بُعد المسافة التي تفصلها عن رفيقاتها، وحتى اللائي لا يرغبن برؤية أبنائهن يتحفظن عن استعمال المساحيق بهذا الشكل، وتأكيد موت الطفل، لم تكن إيبيزي قادرة على التحمل إلى النهاية عبء أفعالها التي دفعتها في لحظة محددة إلى اختيار درب التمرد، فجلست بالقرب من النار دون أن تنبس بكلمة واحدة.

من الآن فصاعدا، تلاحظ إيبيزي وحدها في المكان الذي حدثت فيه الزعيم، المشهد. وصلتها رائحة الطعام، توجهت العجوز صوب المجموعة، شعرت بضجر وتعب النساء، فأخذت تسترجع كلمات إليكي المستبصرة حول ذبول الروح الأخوية، طقطقت ركبتاها وهي تجلس، عندما تسطحت خلفيتها الكبيرة على الأرض، سمُع صوت مكتوم، كانت إيابي قد سقطت على ظهرها، ولأنها لم تفلت الإناء المحتوي على التراب المأخوذ من أسفل الشجرة، انتشر قليل من الطمي فوق بطنها، كان جسدها كله يرتعش، ويصدر حشرجة الموت، ويداها متجمدتان حول الإناء الذي مازال يتدفق محتواه، وبحركة واحدة أمسكت النساء بكلتا اليدين أصداغهن، وفي الوقت ذاته فغرن أفواههن، لكن إيبيزي وحدها من أطلقت صرخة مديدة اخترقت القرية كلها، وترددت على جنبات التل حيث يقطن النبلاء، وتشظت

على لحاء الأشجار المتدحرجة على طول المسارات التي تفصل الملكيات السكنية: فلتكن شاهدا، أيها الشعب، يريد الموت أن يختطف مني مبكرا أختنا! يا شعب..

* * *

في الملكيات السكنية للقبيلة، تجمّد الجميع، من كان يتناول لقمة من طعامه، وجد عسرا في ابتلاعها، وهناك من بصق طعامه، وحاول بعض الجسورين ابتلاعه، لكن جميعهم بقي الطعام عالقا في حناجرهم مشكلا كرة متصلبة ومتحولة إلى حجر، سمع الجميع الصرخة النابعة من الكوخ الجماعي، هل يعلن النداء عودة نيران وخسائر جديدة؟ يجب الذهاب لاستطلاع الأمر، لكن الشيوخ أصدروا أوامر بعدم الاقتراب من ذلك المسكن، فاكتفوا بتبادل النظرات بصمت، وقد استبدت بهم ذكرى ليلة الحريق، يتذكرون صرخة استغاثة أخرى حينما كانت الأسر خالدة للنوم، كانت امرأة قد خرجت من كوخها كالإعصار، وصرخت بكل ما أوتيت من قوة إلى درجة أن صوتها تردد في أرجاء الكون كله، من الأرض إلى السماء ومن السماء إلى السديم: أيها الشعب، أيها الشعب، فلتكن شاهدا! في البداية اعتقدوا أنه مجرد حلم سيئ، فعادوا إلى فرشهم للقبض على النوم الذي يحاول الفرار من أعينهم، ثم أدركوا أن هناك امرأة حقيقية تبكي وتمزق صدرها.

هرع القرويون والنعاس مازال يغشّي عيونهم، كانت ألسنة النار تنتشر من سقف إلى آخر بسرعة البرق، صرخات أخرى قصفت إلى أن اجتاح النواح أراضي الموانغو كلها. يتذكرون أن إلجانيا وأخاه القاطنين فوق التل لم يستطيعا فعل أي شيء سوى مشاهدة الكارثة، يتذكرون الفرار الجماعي نحو الأدغال، حينما هددت النيران بإحراق المزار

المقدس الجماعي، المكان حيث حفظت عظام وأسنان وبوارز جلد أسلاف العشيرة، أولئك الذين تبقت رفاتهم ويمثلون ما نشأت عليه العشيرة من عظمة، هم الأسلاف الأكثر شرفا والأكثر جدارة.

ليلة الحريق الكبير تجمعت النساء حول الداية، بينما مكث المرشد الروحي بجانب المختنين الجدد الذين مازالوا محتاجين لرعايته، لبعض الوقت، بينما الآخرون حاولوا ببساطة إنقاذ أنفسهم. بدأت العشيرة تتفكك، عند بزوغ نور النهار قرروا العودة إلى القرية، فتوقفوا على بعد خطوات منتظرين أن تجتمع العشيرة كلها، لا أحد يرغب في العودة وحيدا، عندما عادت المجموعات المشرذمة من داخل الأدغال، لوحظ غياب اثني عشر رجلا: عشر مراهقين وعجوزين.

داخل فناء الملكيات العائلية استعاد القرويون الشعور بتلك اللحظات المشؤومة، بالنسبة للبعض فقد كانت الذكرى شديدة الوقع إلى درجة تقيؤهم ما في بطنهم من طعام دفعة واحدة. أدرك الموانغيون أن النار مندلعة في دواخلهم، منذ الحريق الكبير فقد الكثيرون القدرة على النوم، وآخرون يرون أنفسهم في أحلامهم وهم يهلكون داخل النيران، فيستيقظون شاردي الذهن، يتصببون عرقا. كثيرون آخرون يفكرون في الصديق والأخ وكل من لم يروه بعد ذلك، والذي لا يتحدث عنه أحد. خلال ثلاثة أسابيع بعد الاختفاء ألّفت النساء أغاني تحكي تفاصيل المـأساة، في الوقت الحالي، فإنهن يترنّمن بصوت خافت مرثيات الغضب والخسارة، وعند المرور من أمام الكوخ الجماعي يلزمن أنفسهن بعدم النظر صوب النسوة اللواتي لم يعثرن على أبنائهن، ومع ذلك كن يشعرن أن هناك شيئا يضطرم بداخلهن.

هذا هو الارتجاف الذي تنبثق منه الأغاني التي ما تزال سرية، والتي تساعدهن على الانتظار حتى يتم إعلان قرار المجلس، ويسمح

لهن باحتضان صديقة أو أخت وبأن يقلن: «أنا أيضا أبكي ابننا.. ». المختفون ليسوا أشخاصا مجهولين، خصوصا بالنسبة لنساء العشيرة اللائي يسهرن على رعاية الأطفال، عندما تكون إحدى النسوة منشغلة، فإنها تعهد بذريتها إلى امرأة أخرى، كل ابن غير مرغوب فيه من طرف أمه الأصلية، غالبا ما يجد أما تتبناه من داخل العشيرة، النساء اللاتي حرمن من فرحة الولادة، يتعلقن بشدة، بأطفال امرأة أخرى.

كل واحد ينتظر أن يتخذ غيره قرارا بالذهاب نحو الكوخ الجماعي، وعدم فعل أي شيء، لا شيء مادام يرى جيدا أنه ليست هناك نيران، لا شيء مادام أي فعل موجه بالجزع يؤدي إلى العجز ويحدث، وحده، المصائب العظمى، وإذا حدث شيء جسيم لدى النساء اللائي لم يعثرن على أبنائهن، فلا يهم، فهن عشر نساء وسيعرفن كيف يتصرفن، ومهما كانت المشاعر المضطرمة بين الناس في النفوس، فسيتدبرن أمورهن، وعندما تأتي لحظة الاستراحة داخل أكواخهن الخصوصية سيتوسلن من هو غير مرئي كي ينجيهن ممن تسببت بالصرخة.

لا ترتجف أيادي زعماء العوائل حينما تغمس في الصحن الجماعي، بصمت عبّروا عن رأيهم، إذا كان كلام النساء يجب ألا يلمس الأرض فإن الحشمة تقتضي أن يحتفظ بها محجوزة في الكوخ، أما اللائي يردن الحديث، فلينتظرن اللحظة المناسبة، وبحلول ذلك الوقت، سوف سنتظاهر بعدم ملاحظة أنهم لا يأكلن. هذا المساء، في اثنتين أو ثلاث ملكيات عائلية سيأمر زعيم الأسرة ابنه أو أخاه الصغير، قبل أن يغمس أصابعه في صحن الطعام، بأن يذهب لإخبار المجلس، في ملكيتين أو ثلاثة فقط، لأن الحركة الأولى من قلب الإنسان في مواجهة الشدائد نادرا ما تواجهه، يجب أن نعترف أيضا أن بعض المساكن

بعيدة تماما عن الكوخ المشترك، وبالتالي فإن صرخة المرأة وصلتها بطريقة مشوشة. بعض المساكن لن تسمع غير صوت شبيه بنعيب بعيد لطائر ليلي، هؤلاء لن يعيروه أدنى اهتمام.

* * *

يقف موكانو الآن وحراسه أسفل التل حيث تنتصب منطقة الزعامة، يقرع الطبال بصوت مكتوم، وهم يستعدون للصعود، وفي اللحظة التي كانت عصا السلطة ستغوص في التراب، سُمعت صرخة المرأة، صيحة تحمل في داخلها الصراخ الذي لم يطلق منذ الحريق الكبير، علق إلجانيا حركته، وحبس رجاله أنفاسهم، لم ينبس موكانو بكلمة واحدة محاولا التفكير سريعا واتخاذ قرار. يحتّم عليه واجبه أن يرسل أحدا للاستعلام وانتظار الأخبار، على الأقل هذا، هذه المرة لا يريد أن يفعل ما يجب عليه فعله، يرغب أن يذهب عند آل البويلي لمعرفة ما آل إليه الذين اختفوا، ولا يريد هذا المساء أن يجازف باكتشاف أي شيء وكيفما كان قد يؤخره أكثر، سيقضي اللحظات المتبقية داخل الكوخ المقدس في إقامة الزعامة دون أن يشرب أو يأكل ثم سيرحل عند الفجر.

سيرافقه حراسه الخاصون وليس محاربو القبيلة الذين لن يستطيع توجيههم حسب إرادته، هذا ما كان قد لقيه من معارضة عندما اقترح أن يتم دفع الاستطلاعات في الأدغال دفعا بعيدا وطويلا، وقف أعضاء المجلس وقفة رجل واحد قائلين: لن ترسل أحفادنا لمواجهة المجهول، عمَّ تبحث في النهاية يا موكانو؟ هل تريد أن يفترس أولادنا من طرف شيء لا نستطيع تسميته؟ كانت مماطلتهم سببا في ضياع الكثير من الوقت، رفع موكانو رأسه والتفت لينظر في اتجاه الكوخ الجماعي الذي صدرت منه الصيحة، لا يستطيع رؤيتها، يفكر أن المسافة لن تمنعه من رؤية ألسنة النار المرتفعة إذا كان هناك حريق جديد، فالسماء ستتوهج من

بعيد، أثناء الحريق الكبير، هنا لا يحدث شيء من هذا القبيل، تقريبا يبدو كل شيء على ما يرام حتى وإن تسببت هذه الصيحة ببعض الإزعاج.

الرجل يقول لنفسه إن الداية ستتصرف وستطلب عند اللزوم المساعدة من ابنها، ترك لابيز مهمة تدبير الوضع المجهول الذي دفع إحدى المبعدات لزعزعة سكينة العشيرة، دون أن يلاحظ ذلك أخذ إلجانيا يهمهم: ليست هناك نيران، تصرخ النساء في كل الأوقات. سمع أحد مرافقيه كلامه، فقهقه، لكن الزعيم حدجه بنظرة لا يمكن للغة المولانغو أن تصف برودتها، يغرس موكانو عصا الحكم داخل التراب ويتوكأ عليها كي تسانده ذكرى من هم محفورون على خشبها، كان متأخرا جدا.. للوصول إلى أعلى التل، يطلب أن تحضّر الهدايا للملكة نجانجو، ثم ختم قائلا: لا تزعجوني تحت أي ظرف من الظروف، سنرحل مع الفجر.

أمرت الداية إيبيزي بود أن تلزم الصمت، حركات العجوز متقنة عندما اقتربت من إيابي لتبقيها على الأرض، يجب الانتظار والإصغاء، هناك قوة موجودة هنا وترغب في التعبير عن نفسها، أي شخص يخضب الوجه بالصلصال الأبيض يتواصل مع العالم الآخر، تنهض النساء الجالسات قرب الكوخ الجماعي، يلتحق بعضهن بالداية بينما البعض الآخر يتراجعن إلى الوراء وهن ينفضن أجسامهن من الغبار العالق، يفكرن بشرود تام أن لا واحدة منهن ستفلت بجلدها هذا اليوم.

قالت إيبيزي: لن يأخذها الموت، قريبا سيهدأ الجسد ويرتخي، سيتخذ جلدها شكل الطمي، الذي تغوص فيه يدا الداية، تتبلور حبات العرق فوق جبهتها، تحرك رأسها يمنة ويسرة وهي تصدر شكوى، تتركها لحظة، وتمسك الإناء الذي يحتوي على التراب المأخوذ من أسفل شجرة الديكوب، وتضعه بهدوء على الأرض، بصعوبة تقول إيابي هذه الكلمات: أماه، ليس هناك غير الماء، مُحي طريق العودة، ليس هناك سوى الماء فقط..

كان بقية كلامها غير مسموع، لكنه أفرح النسوة التسع الأخريات، دفعتهن ذكرى الظل الذي قدم إليهن إلى مد أعناقهن لمزيد من الرؤية الجيدة، لكن دون التمكن من رؤية أي شيء، مع ذلك لزمن الصمت، وحينما طلبت الداية مساعدتها لحمل إيابي إلى داخل الكوخ الجماعي، أدركن أن الليلة ستكون طويلة، تقدمت ثلاث نساء لمساعدة العجوز على حمل جسد رفيقتهن، بينما الأخريات جلسن حول النار للسهر على أن تبقى مضطرمة كي تجعل الظلمات بعيدة عنهن.

الفصل الثاني
أقوال الظل

كان موتانغو منشغلا، فهو يعرف أن المجلس منعقد في هذه اللحظة، وحضوره مطلوب خلال هذا الاجتماع الاستثنائي، سيجد عذرا مناسبا، وعند الحاجة، سيشكو من عسر الهضم، وهذا لن يفاجئ أي أحد، حتى وإن كان أربعة أفراد من المجلس يعلمون أنه بصحة جيدة، فقد استقبلهم في الصباح الباكر بعدما غادر كوخ اللواتي لم يرين مرة أخرى أبناءهن، سارع الرجل ليخبرهم عن الظاهرة، ذلك الظل الذي شوهد يحوم فوق سكن النساء، ودون أن ينتظر رأيهن، بادر إلى الإفصاح عن شعوره مضيفا أن هناك خيانة من النظام الحالي الذي لم يتقدم بالتضحيات اللازمة عند اليوم التالي للحريق، كانت الظروف تقتضي ذبح بعض الدواب.

كانت الأدغال حوله تهدده باختراق بطنه بأطرافها الشائكة، فقد الوجيه عادة المغامرة وحده داخل الأجمة، لم تطأها قدماه دون حرس منذ إنهائه لمرحلة التعلم، في كل الأحوال، فهو لم يبتعد كثيرا في الغابة حتى في تلك المرحلة، عندما كان يريد أن يتعامل بسريّة مع الخفيّ، كان يذهب إلى فرجة هادئة في الغابة، تمكن من العثور عليها، لا تبعد عن القرية إلا مسافة ربع يوم وربما أقل ذهابا وإيابا. هذه المرة يفرض عليه الوضع أن يعبر مسافة طويلة دون مرافقين، بطنه تفيض فوق حزام

المانجوا كاشفة لبزغات بطنية تشكل جُدريّات داكنة حول السرّة، ليست تلك القلائد والأساور والتمائم هي التي ستحميه من وخزات الأشواك ومن قوة الحكة التي تسببها أوراق الماسيبو وتكشط جلد ساقه، ولكي يزداد الطين بلة نسي أن يحضر معه مدية، كان دائما أحد خدمه من يتكلف الأمر، وخنجره ذو الرأس المنحني المثالي لإزهاق روح لم يساعده سوى مساعدة يسيرة.

يتقدم الرجل بمثابرة متحديا ضراوة الطبيعة، وقد مكنته عدوانية البيئة من البقاء متأهبا، وهذا ليس شيئا سيئا، عندما علق غصن الجنبة بأطراف جدائله المزينة بضلوع أوراق الشجر والبذور، حبس شتيمة في صدره وهو يقاوم لبرهة قولا سفيها، ثم واصل مسيره للحصول على حريته مقابل جهد يسير، يمتد العشب بأقدامه الهائلة ساحقا أغصان الموكو يكو غير مبال بكل ما يمكن أن يغطي التراب أو يختفي تحته، إنه هذا الجزء من جسده الذي ينبغي النظر إليه - في عمق عينيه أيضا - لفهم مزاجه. لا يزين قدميه كما يفعل مع بقية مظهره الخارجي الوثير، هما إذن متيبستان وخشنتان، ومستعدتان لتدوسا كل ما هو موجود، قدمان بلا خوف ورحمة.

ليجعل الرحلة أكثر متعة أخذ الوجيه يلتهم شرائح اللحم المدخن التي ملأ بها خرجه، لقد نسي أن يتزود بقربة من جلد الماعز، كان سيملؤها بعصير حمضي يستخلص من أوراق البوغونجي. في ظل هذه الظروف، فإن اللحم الذي لا يكلف نفسه عناء مضغه على نحو لائق يتكدس في المريء، يستخدم الوجيه غدده اللعابية القوية التي تنتج كمية من السائل اللازمة لهضم صحيح للحم من معدته، يتجشأ بكثرة وهو ينظف أسنانه بواسطة أعواد من البوبيمبي المأخوذة من لحاء شجرة معروفة بقدرتها على التطهير، هذا هو الاستعمال الشائع لهذه النبتة التي يعود

لها الفضل في بياض الابتسامة البراقة التي تظهر من الوجيه والتي لا تعبر إطلاقا عن بهجته، كانت نظرته بدل أن تشرق لحظة ابتسامته، فهي تحمرّ، ثم ما تلبث أن تتعتم، كان سيولي هاربا أمام هذا المشهد، لكن مكانته الاجتماعية تمنعه من فعل ذلك، يحب أن يكون مظهره مصدر ترهيب للآخرين، وهذا يثيره بقوة إلى لدرجة تجعله يضحك في بعض الأحيان، ثم يصدر صاحب المقام الرفيع السمين نخيرا يشبه صوت خنزير الهلوف مما يعزز سماته المشتركة مع هذا الحيوان. يفتقد مصادر الدفاع فقط، لكن ذلك مجرد مظهر خارجي، لأنه يحملها معه في عقله.

لم تعد المسافة طويلة، كان يتوقف بين الفينة والأخرى ليتنفس الصعداء، وليلتفت ليتأكد من أنه لا شيء يتحرك هناك، بين الشجيرات، وإذا ما كان عن طريق المصادفة أرسل أخاه جاسوسا ليتعقبه. لا وجود لأية حركة، فقط الرياح في الجوار، ودون مبالغة، فهي ليس بمقدورها، في الواقع، أن تحرك هذه الغابة الكثيفة. يواصل الرجل طريقه، وقريبا سيوصله أمام صخرة، لقد حدد بنفسه مسلكه، مع حرصه على ألا يقترب من المناطق المأهولة بالسكان. خلف الصخرة وعلى بعد نصف يوم من السير توجد بيكومبو عاصمة قبيلة آل البويلي. كان موتانغو أفضل من أي شخص آخر في قبيلته يعرف هؤلاء الأشخاص، فقد كان مكلفا الشؤون التجارية، وهو من كان يأتي بانتظام لملاقاتهم، ومقايضة المؤونة والبضائع بالسلع التي لا تنتجها قبيلته أو تنتجها بكميات قليلة، كانت قبيلة آل البويلي أكثر ازدهارا من قبيلة آل المولونغو وأكثر قوة أيضا، كما أن أراضيهم شاسعة ومأهولة بعدد من العشائر التي أذعنت لهم على مرّ العصور.

ما إن بلغ موتانغو أمام الصخرة حتى تحول إلى اليسار، ذلك لم يغير أي شيء بالنسبة لحالة القدمين المنهكتين، لكنه الآن يسير في مسار سلس

تقريبا، مسار خُطَّ في قلب الدغل من قبل الصيادين في المناطق المجاورة، في النهاية يتدفق جدول بسلام تحت ظلال الأشجار العملاقة، الزهور البيضاء ذات البتلات الفاتنة التي تنمو رافعة إلى السماء مدقاتها الصفراء المتضوعة برائحة الجيفة النتنة. فجأة يتوقف الوجيه، ليس من أجل أن يتزوّد بشيء يسهل عليه عملية الهضم، ولكن لديه موعد في هذا المكان، جال بنظره باحثا عن مكان يابس ليجلس مؤخرته الفخمة التي تثقل على ساقيه، كنس كومة من الأوراق بواسطة قدمه اليسرى التي كشطت كل شيء دفعة واحدة فسمح ذلك بظهور تربة مغراء.

كان موتانغو يتأهب للجلوس حينما انبعث صوت رقيق وحادّ في الآن نفسه: «أنت متأخر، يا ابن المولانغو، لقد غيرت الشمس مكانها ثلاث مرات منذ أن بدأت أنا في انتظارك».

كان الذي تحدث للتو شخصا قصيرا جدا، إلى درجة يعتقد فيها أنه طفل، لولا لحية سميكة تغزو خديه وذقنه، كان يرتدي لباس صياد مصنوعا من جلود الحيوانات التي مازالت مكسوة بالشعر، أثار هذا مقت موتانغو قليلا، في قبيلته كانت تعالج الجلود قبل ارتدائها كما أن شعر الحيوانات يحتفظ بحرارة غير ضرورية في هذا الفصل، لم يقل شيئا لمحاوره الذي لا يخشى شيئا. صياد مهاب الجانب لا يفكر أي فرد من عشيرته بالسخرية من شكله الصغير. كما كان ينوي أن يفعل قبل مقاطعته، جلس الوجيه على الأرض مصدرا بصوت عال تنهيدة ورافعا عينيه في اتجاه الوجه المدعي، فيحييه قائلا: ابن قبيلة آل البويلي، كيف تركت الليل؟ أزاح الرجل السؤال بحركة منزعجة من يده وقال: لم يعد الليل كما كان منذ زمن طويل، وقد خرجت منه كما دخلته.

- حسنا، حسنا، أجاب الوجيه، فلنتحدث عن شؤوننا، ماذا لديك لتخبرني به؟

- لا تستعجل، أيها الشيخ، قال الصياد مردفا: أنت مدين لي.

أدرك موتانغو أن عليه أن يدفع قبل أن يخبره بما يريد، وهذا يتعارض مع نظرته للعالم، يجب أن يتأكد إذا ما كانت البضاعة تستحق كل هذا العناء، في الحقيقة وجيه المولانغو لا يخوض مخاطرة كبيرة، لأن ما أحضره كمقابل ليس تماما ما ينتظره محاوره، الذي لن يحصل إلا على القليل، ومع ذلك من المهم عدم الاستسلام بسرعة كبيرة، ستكون بينه وبين الرجل اتفاقات أخرى لإبرامها في المستقبل القريب أو على الأقل هو يعتقد ذلك، هذه المفاوضات ستغير مسار الأمور لصالحه، من خلال الاقتناع بالدفع قبل أن يتمكن من تقييم البضاعة، سيخسر بذلك السلطة والمصداقية المطلوبة في المعاملات القادمة. يخرج الوجيه من داخل مخلاة الصيد التي تحتوي حصته من اللحم للذهاب والإياب، خنجرا ذا نصل محدب، وحدهم حدادو شعبه من يعرفون صنعه، كان مقبضه منقوشا بزخارف دقيقة، ومعدنه القاطع يومض ملتقطا أشعة الشمس النادرة التي تخترق أوراق الأشجار الكبيرة المتكاثفة، وضع السلاح بجانبه بلين مدهش بالنسبة ليديه العريضتين، وتوجه بالكلام نحو الصياد: ما طلبته يوجد هنا، ولن أخاطر بخداعك، مادمنا وحدنا هنا ومقارنة بي، فأنت من يجيد استعمال الأسلحة.. يمكنك أن تتكلم.

دون أن تترك عيناه الخشب المنحوت للمقبض، يهز الصياد رأسه ببطء، مقدما المعلومات المنتظرة، عبرت مجموعة من الرجال الغابة خلال أيام وكانت حريصة على تجنب القرى غير أنها لم تمسح آثارها.

كان المتعقب بإمكانه تتبع مسارهم جزئيا، فهؤلاء الرجال وصلوا وتجاوزوا أراضي قبيلة البويلي التي تقع على بعد يوم من المشي - بالنسبة لشخص خفيف الحركة - من المكان الذي يجتمعان فيه في هذه اللحظة، لن يذهبوا أبعد من الساحل، لا توجد أراض وراءه يمكن للبشر أن

يستطلعوها. هل أنت تقول لي، يسأل موتانغو، إنني إذا ذهبت إلى ما تسميه «الساحل» يمكنني أن أعرف يقينا من كان هؤلاء السائرون وماذا حدث لهم؟ يجيب الصياد دون لف أو دوران: لقد قمت بهذا التحري من أجلك حتى دون أن تطلب مني ذلك، من جهة أخرى لم يكن ذلك صعبا.

يتقدم خطوة، ويقرفص أمام محاوره، يتوقف عن تنظيف أسنانه ممعنا النظر فيه. كاد وجهاهما أن يتلامسا لولا الاختلاف في الحجم الذي يعطي للوجيه أفضلية طفيفة، أصبح الصمت بينهما جسيما، حصل موتانغو على المعلومات المبدئية المطلوبة، لمعرفة المزيد من العلومات سيحتاج أكثر من الخنجر مهما كان جماله وخطورته، فكر الوجيه أنه ليس مستعجلا إذا لم يقدم بعد على تناول الشيء وتسليمه للصياد قبل أن يعود أدراجه، يجب أن يذهب بنفسه إلى هذا الساحل الذي حدّثه عنه الصياد من أجل استكمال عمليات البحث، وللنظر بأم عينيه إذا ما كان الذين اختفوا يوجدون هناك، ومهما قال له الصياد في الوقت الحاضر يجب أن يخوض هذه الرحلة، تناول الخنجر ومدّه إلى المتعقب خاصته: استعمله استعمالا جيدا، أمسك الرجل الصغير السكين ولمس شفرتها، وبصوت خافت مستعلما: هل وزير طقوسكم الدينية بارك السكين؟

لا ينوي موتانغو أن يقول له إنه لم يعد لدى قبيلته وسيط بين هذا العالم والعوالم الأخرى، سوى ساحر متدرب يحمل على وجهه أثر التيه الكبير الذي وقع فريسة له منذ اختفاء والده. اكتفى الوجيه برد غير مباشر: لا تقلق، فإن أداة كهذه محكومة بروح صاحبها، حدثني بالأحرى عن الذين يعيشون على تخوم الخليقة، يهزّ الصياد كتفيه، يعرف شعبه جيدا هؤلاء الذين يعيشون على الساحل، لأنهم جيران، أضحى الذين يعيشون على تخوم العالم حسب رأيه، متغطرسين بشكل رهيب، منذ أن التقوا بالغرباء القادمين من خلال المياه.. كان أصدقاؤهم الجدد

يزودونهم بأثواب مزركشة مجهولة في هذا الجزء من الميسيبو، وأعطوهم أيضا الأسلحة والحلي وأشياء أخرى لا يستطيع أحد تسميتها. وأخيرا يدعي السواحليون أنهم أبناء الماء، رغم أن الجميع يعرف أن أسلافهم قد تم إجلاؤهم إلى حافة اليابسة خلال المعارك القديمة من أجل الأقاليم. واليوم يدعون أنهم إخوة للرجال أصحاب أقدام الدجاج. يوسع موتانغو عينيه مندهشا: رجال ذوو أقدام الدجاج؟ يتساءل منفعلا، لاحظ الصياد أنه تكلم كثيرا، فرفض قول المزيد.

وهو يحاول النهوض، أمسكه موتانغو من ذراعه، يجب أن يعرف المزيد، اسمع لا أطلب منك أي شيء عن رتل السائرين الذي حدثتني عنه، أنا راض، في المقابل، أريدك أن تشرح لي من هم هؤلاء ذوو أقدام الدجاج.. يهز رجل قبيلة آل البويلي كتفيه من جديد، خلال عبوره الأخير من الساحل حيث يحدث له أن يذهب لعرض طرائده، رأى تلك المخلوقات، هؤلاء الأشخاص، يعلن، كانوا يتلفعون من رؤوسهم إلى أقدامهم، فوق الساقين يرتدون لباسا يمنحهم مظهر الدجاج، ومن هنا جاءت التسمية بـ«رجال ذوو أقدام الدجاج» التي أطلقها عليهم رعاع بلاد الساحل، الأعيان لا ينقصهم الكثير من الاحترام نحو هؤلاء الذين يطلقون عليهم: «الغرباء القادمون من بونغو عن طريق المياه»، ولكي أقول لك الحقيقة، فإنني لم أقترب بعد من أي واحد منهم..

ألقى نظرة إلى السماء، لاحظ الوجيه أن الوقت ينسلّ، تلك الأسئلة حول الغرباء ذوي أقدام الدجاج جعلت الصياد يخرج ما في جعبته، فقد كان مفتونا بتلك الكائنات رغم أنه لم يحدثها قط. قدم الرجل كل ما يعرفه، وكل ما يقال حول الغرباء، الذين لم يحضروا أبدا في قبيلة آل البويلي، وحيث إن هذا الأخير يعد جارا للمناطق الساحلية، فقد علم أشياء مدهشة عنهم، يقال إن هؤلاء الغرباء هم مبعوثو شخصيات بعيدة

يتوقون إلى التحالف مع نظرائهم في هذا الجانب من الخليقة، ولإثبات نواياهم الحسنة قاموا بحماية أمراء السواحل الحاليين، السبب الذي جعل هؤلاء يقولون الآن إنهم إخوانهم ويستضيفونهم في ممتلكاتهم.

لقد مضى وقت طويل منذ أن نزلوا من قاربهم الضخم المحشو بالأقمشة المعدة لتحجيم هبوب الرياح والمبلل قبالة بلاد الساحل، وكانوا يمنحونهم نساء لتسليتهم وخدما للسهر على رفاهية الأكواخ المؤقتة التي يقيمون بها.. فجأة بدأ الصياد الذي علم موتانغو أن اسمه بويمبا يتكلم بصوت خافت، لكي يقدم اعترافاته الأكثر دهشة.

يملك الرجال ذوو أقدام الدجاج أسلحة قاذفة للبرق قادرة على القتل عن بعد، وهكذا نتلافى المواجهة المباشرة، وخطر الإصابة بجروح، منذ الآن يحلم موتانغو بامتلاك إحدى هذه الآليات، خلال لحظة المسارّة بينهما كشفا لبعضيهما عن اسميهما، حاولا ضمنيا أن يتلافيا ذلك، حتى الآن، بسبب الحذر، لأن كشف كل عن اسمه لشخص آخر يعد بمثابة تسليم جزء من ذاته إليه وكأنه ينكشف أمامه تماما. يكفي أن تهمس اسم شخص خلال طقس من الطقوس حتى يصبح بإمكانك مهاجمته عن بعد وتعريضه لقوى الشر، كما أنهما لم يتناديا أبدا إلا وأشارا إلى آباء شعبيهما الخاصين، وبالتالي كان أحدهما ابن قبيلة آل البويلي والآخر ابن مولونغو.

تبادرت إلى ذهن موتانغو فكرة، توجد أراضي شعب قبيلة آل البويلي على مسافة يوم من السير من المكان الذي تواعدا على اللقاء به، وإذن سيقضي الصياد الليلة في مكان ما من الغابة، على الأرجح، في ملجأ يقع في منتصف الطريق، إذا غادرا الآن، فإنهما سيكونان هناك مع حلول الظلام، لن يضطر الوجيه إلى أن يستوضح الأمر مع الرجال الذين كلفهم أخوه مراقبة ضواحي القرية من الشروق إلى الغروب، هكذا هو الوضع منذ الحريق، علاوة على ذلك، يريد موتانغو على نحو جازم أن يعرف

المزيد عن الرجال ذوي أقدام الدجاج، لا يعرف لماذا، ولكنّ حدسا ما يخبره أن هناك علاقة بين هؤلاء الغرباء بسفينتهم الضخمة وهؤلاء الذين اختفوا، لا يوجد حيوان بين الأكثر ضراوة في الأدغال، يمكنه أن يلتهم عشرة فتيان ورجلين راشدين، قد يكون على خطأ ولكن إذا لم يكن الأمر كذلك، فسيعلم ذلك قبل أخيه.

كما أنه وجّه هذه الكلمات مخاطبا بويمبا: بعد فترة وجيزة، سيرحل النهار، حان الوقت، بالنسبة إليك، كي تبدأ السير، وإذا سمحت، فسأرافقك. جحظت عينا الصياد، نعم أكد الوجيه، سأل بويمبا كيف سيفسر حضوره داخل عشيرة قبيلة آل البويلي بينما هو لم يأت من أجل المتاجرة. لا تقلق من أي شيء سأذهب لأقدم نفسي أمام الملكة نجانجو، هيا بنا سنصل عندكم مع منتصف النهار، وهذا هو التوقيت الأفضل، ستكون المدينة عاجّة بالحركة ولن يلاحظ أحد قدومنا. لا يعرف موتانغو بعد كيف سينفذ ذلك، يرغب بالذهاب إلى الساحل ليرى بأم عينيه ما حدّثه عنه مرافقه، لكن المزعج أنه لم يخطط لهذه الرحلة الطويلة، حمل معه بطبيعة الحال جواز سفره قناعا صغيرا من الطين المحروق الذي يضعه دائما، والذي يتدلى من إحدى القلائد العديدة التي يحملها حول عنقه، والتي يدرك من ينظر إليه من أين هو آت، وإلى أي فئة عمرية ينتمي، وأي ميزات ومكانة يحتلها داخل قبيلة آل المولونغو.

ومع ذلك لم يجلب معه أي هدية لتقديمها إلى نبلاء الساحل، ولا أي عملة نقدية لاستخدامها، ليس في تبادل البضائع وإنما تقديمها كتعبير عن الاحترام، وسيكون من غير اللائق أن يحضر أمام الملكة نجانجو دون أن يضع أمام قدميها أي قطعة ذات قيمة، لكن سيعرف كيف يطلب الغفران وسيجد حكاية ليرويها لتغفر له تقصيره، بيد أن أمراء الساحل الذين ذكرهم الصياد، لا يعرفونه، لذلك، لن يكون هناك سبب للترحيب

به، وبهذا فمن المستحيل الالتقاء بهم خلال الزيارة الأولى لأراضيهم، ولا مانع لدى الرجل من الدخول خلسة ما إن يصل إلى البلد الساحلي، إذا كان ذلك سيسمح له برؤية الغرباء ومعرفة الأسباب الحقيقية لوجودهم في هذا الجانب من الخليقة، إذا ما قدموا عبر مياه البونغو فبالتأكيد سيكونون قد خاضوا رحلة محفوفة بالمخاطر، لا يعتقد أن تعرضهم لمثل هذه المحن فقط من أجل تكوين أصدقاء جدد.

يعتبر موتانغو أن المجتمعات لا تمتلك مشاعر، وإنما لديها مصالح، زعماء أقدام الدجاج الذين أرسلوا مبعوثيهم إلى أمكنة بعيدة يرغبون شيئا، ويريدونه لأنفسهم وليس لأجل سكان البلاد الساحلية. سيعرف نهاية القصة، وسيرى بعينيه الرداء الغريب الذي يمكن أن يعطي انطباعا بوجود علاقة نسابة بين البشر والطيور، إذا تمكن من ذلك فسيعاين هذه السفينة التي توصف بالضخامة، وهو الذي ينتمي إلى شعب تربطه بالماء علاقة بسيطة، يشربونه وينظفون به ويغتسلون به. سيكتشف كيف يمكن شق طريق بين أرضين، تبدو له سلفا الزوارق الساحلية التي حدثه عنها بويمبا شيئا أشد عجائبية. في أعماق الوجيه مولونغو يوشك أن يضع إنسانية الرجال أصحاب أقدام الدجاج على محك الشك. وأخيرا قال لنفسه إن أي شخص يمكنه أن يميز الاختلاف بين رجل وروح، وإذا كان مرافقه يدعي أن الغرباء هم بشر، فهو يريد أن يصدقه تماما في الوقت الحالي.

لم يتشاطر الوجيه أفكاره مع الصياد، سارا بصمت تام مستسلمين لأصوات الطبيعة، لا أثر لكائنات حية في الطرقات التي سارا فيها، ولا حتى لحيوان أو قارض قد يُرى هاربا بين الأدغال قد يغلق ركضه الأوراق الصغيرة لأشجار الميكو إيو النبتة الرعديدة التي تتراجع مختبئة لتحمي نفسها من الاعتداء. لا يشغل موتانغو نفسه بهذا الأمر، فهو

يستعد ذهنيا لما سيقوله بمجرد وصوله عند قبيلة آل البويلي، وبالتحديد يفكر بالحكاية التي سيرويها لذويه عندما يعود أدراجه إلى قبيلته، لن تكفي ذريعة عسر الهضم لتفسير غيابه عدة أيام، قبل رؤيته من جديد لا بد أن الشكوك ستساورهم من أن يكون بدوره ضحية المصير نفسه الذي عرفه المختفون، يفكر في استغلال ذلك لصالحه ونسج واحدة من حكاياته الخرافية المصطبغة بالروح الباطنية التي يعرف وحده سرها، طالما أنها ستحدّ من أسئلتهم الكثيرة. يوشك الغروب أن يحلّ، عندما وصل الرجلان إلى ملجأ الصيد حيث كان بويمبا يعتزم قضاء الليلة وحده.

إنه عبارة عن كوخ مصنوع من فروع الأشجار التي تتماهى مع الطبيعة، إلى درجة أنه لا يمكن أن يُرى نظرا لصغره، وبالكاد يمكن أن يقطنه شخص واحد، لا يستطيع الوجيه تصور نفسه محشورا داخله، سينام إذن على الأرض بجانب الملجأ المؤقت، يحتوي جرابه على ما يكفي من اللحم كي يقتات لغاية اليوم الموالي، لا مخاوف من هذا الجانب، وفيما يتعلق بالحيوانات التي تجوس في الأرجاء فهو يعرفها كلها، ولن يخشاها إطلاقا. إلى جانب ذلك، فإذا كان موتانغو صيادا فقيرا، فذلك لأنه يمتلك صداقة كثيرة مع الحيوان أكثر من صداقاته مع البشر، عندما يلتهم أطنانا من اللحم، فإنه يفعل دائما ذلك بحب، وبمجرد ابتلاعه يسمح له اللحم بأن يصبح واحدا من الحيوانات، لهذا يعطي الرجل عناية خاصة لأطباق اللحوم التي يتناولها، إنها قطع مدخنة من لحم الحيوانات الرشيقة الذكية التي يقضمها منذ مغادرته القرية، ولا تهمه إلا هاتان الخاصيتان الأخيرتان. يترك للعامة لحم الماعز والدواجن.

وكباقي أفراد قبيلته، يمنع عليه أكل لحم الفهد، يعد هذا الحيوان حارس شعبه، إنه سيد الغابة الذي قدّم له أسلاف المولانغو قرابين بشرية عندما استقروا في الأراضي الحالية وقبل أن يسكنوا بسلام في إقليمهم

الجديد، بطبيعة الحال سمح مولانغو لنفسه بخرق هذه القاعدة في بعض المناسبات، ليس فقط لمعرفة مذاق لحم الفهد، لكن ما كان يريده هو أن يمتلك قوة الحيوان، والتفكير مثل الفهد وأن يكون قادرا أيضا على القساوة، وأن يمتلك الوعي ويكون راضيا بالعزلة وألا يرتبط بأي شخص.. لم يكن ذلك سهل المنال عندما قام بالحصول على لحم الحيوان المقدس، المرة الأولى عندما كان في حوالي العشرين من العمر فقام برشوة صياد قبيلته الأمهر واعدا إياه بالزواج من إحدى بنات الزعيم الأب بينه وبين موكانو، كانت الفتيات خلال المراهقة، في قبيلته يخضعن لطقوس وتعاليم خاصة قبل الزواج، ولا يمكن لأي فتاة أن تعرف شروط وقواعد العلاقة الحميمية بين المرأة والرجل، بينما الشخص الذي سيصبح رجل الغد، فإن أوهام وتخيلات الدخلة تكاد تفقده صوابه عندما يؤكدون له أنه سيكون أول من يمتلك جسد أميرة.

ومن أجل ذلك أخذ كل المخاطر، لأجل تسليم الجثة وهي مازالت ساخنة لسيد الغابة. شكره موتانغو وناوله قربة مليئة بالماء قبل أن يشاهده يتهاوى بفعل تأثير المخدر الموجود في الشراب. زرع النصل المنحني لخنجره في بطن الصياد واستأصل القلب وهو مايزال يخفق، مزق بأسنانه قطعة من العضو وجمع في إناء الكالاباش الدم وشربه - وهو يحبس نفَسه على الرغم مع ذلك - ورأسه يغمغم بتراتيل التعويذات، ثم أخذ الشاب وقته ليقطع النمر ويأخذ بعض اللحم الذي يتغذى عليه سرا لعدة أيام خلالها لم يتناول فيها أي نوع آخر من الطعام، وتخليدا لذكرى هذه اللحظة العظيمة احتفظ بأنياب الحيوان في تميمة من صنعه، دفنها تحت لحاء سميك جدا لشجرة الديكوب، ثم وضع التميمة المسطحة ذات شكل المربع فوق صدره العريض.

بعدما ابتلع كمية وافرة من اللحم المحظور ارتدى القاتل لباس

الحداد على غريمه، وكباقي أفراد القبيلة حضر مراسم الدفن متحسرا، بينما كان الشيوخ يزرعون جذع شجرة للدلالة على الجثة التي لم يعثر عليها أحد، وبعد ذلك انتظر موتانغو تجلي الخفيّ ويصبح رهن إشارته لينصبه على كرسي الحكم، مازال ينتظر ذلك، يعتقد البدين موتانغو أنه يوجد بالضرورة شخص من عائلة أخيه لجأ أيضا إلى القوى الخفية، ليس لفشله في تفسير آخر، مازال موكانو الزعيم منذ ذلك الوقت، لأن أحدهم سفك الدماء نيابة عنه، لأن أحدهم لطخ يديه من أجله، لطالما جاء ليشتمه في مسكنه عند اللحظة التي يجد فيها إحدى بناته في مرقده، هذا المنافق ليس بأفضل منه، وعلاوة على ذلك، لو كان يخشى على ذريته، لما كان قد سمح بتزويج بناته الفتيات الصغيرات للرجال، كل ما يوجد هو من صنع سماوي، بينما الشر والخير فهما شيء طارئ، الخير هو كل ما يعتمد ويفيد، أما الشر فهو كل ما تبقّى.

حالما باليوم الذي يمسك فيه عصا الحكم، ليست فقط صفة المرسول التي منحت له عندما بدأ المتاجرة مع آل البويلي. قال موتانغو لنفسه إنه سيضع حدا لهذه العاطفة التي يمررها أخوه على أنها أخلاق، سيكون عصرا جديدا أشد وحشية كما هو الواقع، سينتقل فيه الحكم من الأب إلى ابنه، وإذا كان للزعيم ابنان في العمر نفسه فسيخضعان لاختبارات للفصل بينهما، وسيتم تعيين من أبرز افتقاره للعاطفة وعبّر عن قدرته على فرض وجهة نظره، الغاية تبرر الوسيلة، وبعد السهر على أن يتدرب المحاربون جيدا سيرسلهم لاستكشاف الأمكنة التي يخشون اليوم السير فيها، يعلم الجميع أن الأرض ليست مجرد منطقتين قريبتين من الساحل يقطنهما آل البويلي وآل المولانغو، الجميع يعرف لأن حكاية هجرة المولانغو مازالت تُروى للمتعلمين الصغار، سيذهب ليرى ويستكشف مناطق أخرى كي ينشر نفوذ شعبه وينافس آل البويلي، وقد يسيطر عليهم في يوم من

الأيام، لم لا؟ وبينما كانت هذه الأفكار تراوده ألقى الرجل نظرة حادة صوب مرافقه.

أمام مخبأ الصيد بدا بويمبا حائرا متسائلا عن الطريقة التي يمكنهما معا قضاء الليلة في جحر صغير، طمأنه الآخر قائلا: لا تقلق بشأن أي شيء، يا ابن آل البويلي، سأنام تحت النجوم، لم يلح الصياد وانحشر إلى داخل المأوى، من جانبه شرع موتانغو بتفقد الأنحاء فوجد بجوار الكوخ شجرة وارفة الأغصان، هذا ليس موسم الأمطار لكنه يفضل أن يكون في مكان آمن، تمدد مباشرة على الأرض الخشنة، مستعملا جرابه كمخدة، أغمض عينيه متسائلا للحظة عن عدد المكامن المنتشرة في أرجاء الغابة، يملك آل مولونغو واحدا، فقط واحد يستعملونه خلال الأسفار نحو أراضي آل البويلي، ومادام هؤلاء أكثر عددا، فإنهم بلا شك يملكون عددا من الملاجئ المؤقتة.

وضع الوجيه حدّا للتفكير في هذه التفاهات، لكنه لم ينم فورا، يتساءل عما قيل هذا الصباح خلال اجتماع المجلس، بلا ريب سيطالب أخاه بالبحث عنه، لن يكون بميسوره أن يرشو الحراس الموجودين عند مدخل القرية والادعاء بأنه لم يغادر أراضي القبيلة، يحتاج إلى عذر، وسيعثر عليه.

* * *

انسل النهار هاربا، وجاء الغروب أشد ظلمة من منتصف الليل، لا شعاع من النور ينسلّ بين أغصان الأشجار المحيطة التي أخذت تنحني بفعل هبوب الرياح، هجر النوم موتانغو، ومن المخبأ يتناهى إليه شخير بويمبا الذي يشبه نعيبا يطلق في الأثير لتحدي الأبدية، كيف بمقدور هذا الجسم الصغير أن يحدث هذه الضوضاء بمثل هذا الانتظام؟ هذا من الأشياء الأشد غرابة، يحاول الرجل أن يركز تفكيره حول نقطة محددة، دون أن يتمكن من ذلك، استولى عليه جزع غير عادي وهو ذو القلب

الذي لا يزعزعه شيء، يشعر أن حضورا يجتاح إليه وسماكته تغلفه وتسمّره على الأرض.

يكافح موتانغو مناديا مرافقه، لكن الصياد لم يسمعه، فقد أصبح أصم لفرط شخيره، حاول أن يستجمع قواه ليحدد، بالضبط، طبيعة ما يحاصره، استحضر ذكرى الظل الذي كان يحيط عند الفجر كوخ اللواتي لم يعثرن على أبنائهن، إذا كان قد قدم نوعا من التفسير للظاهرة إلى أعضاء المجلس المجتمعين لديه، فإنه قدمها دون أن يستوعب كنهها، راوده حدس وهو ملقى على الأرض بأن ذلك الظل الصباحي هو ما يمنعه من أن يحرك أعضاءه، مادامت تستحيل عليه أدنى حركة، يركز لكي تتمكن روحه التي لا يمكن عرقلتها، من أن تنفلت وتراقب من الخارج، ترى عين الروح وتسمع كل شيء، في الجوار قدمت له أشجار معروفة بقواها الباطنية الغامضة مثل البوبينغا والبونغون مساعدة ثمينة، سيعرف موتانغو متى يعود، لن يتخلى عن المعركة إذا حدثت فعلا، وفيما بعد سيعود إلى جسده.

يمكث الوجيه هادئا لكي لا يخمن عدوه كيفما كانت نواياه، تتطلب مغادرة الجسد وقتا، ستكون المخاطر كبيرة إذا اكتشف محاصره استراتيجيته الداخلية، يرتل العبارات التي تسمح للروح بأن تغادر الجسد، مازال في بداية التعويذة، حينما خاطبه صوت، لا أحد سواه يسمعه، ليس فقط لأن بويمبا ينام ملء جفونه، إنه وعي يخاطب وعيه، لأن الكلام يلمح نفسه إليه، لاحظ موتانغو أنه محمول بأصوات جوقة، حدث هذا بسرعة خاطفة: أيها العم، سألوه، لماذا ترافق هذا الشخص؟ ألا تعلم أن آل البويلي هم من ألقوا علينا شباكهم؟ فتح موتانغو عينيه على العتمة التي تُغلف الغابة، وقد تخلص من القلق، لا يشعر أبدا بالقوة الملزمة على الأرض، سمع بجلاء تلك الكلمات. المحنة الممزوجة بالغضب الذي

يمزقهم، لن يمنح ثقته إلى أي شخص وخصوصا إلى بويمبا، سيستدعي الخفيّ كي لا يغلبه النعاس، موتانغو متيقن أن مرافقه يخفي شيئا، ظن أنه سيخدعه حينما منحه الخنجر الذي لم يباركه وزير الطقوس الدينية بأي نوع من الطقوس، لكن يبدو أن الصياد من آل البويلي تلاعب به بشكل أكثر خطورة، يحتاج هذا الرجل كي يعبر بمعيته أراضي آل البويلي، المهم أن يبقى مستيقظا ومحتاطا في حالة ما خطط بويمبا كي يقتله، انتصب ابن آل المولونغو واقفا كي يتفادى الاستغراق في النوم، لا ينبغي البقاء مستلقيا، الوقت مازال طويلا، حتى مطلع الفجر حينما سيستأنفون السير، خيم الليل سدوله فعلا، وهذا ليس وقتا مناسبا للقيام بنزهة، استند إلى شجرة كانت ستكون مكانا لنومه، وأصغى السمع، ربما يفصح الصوت عن نفسه مرة أخرى، ينتظر، كانت هذه الكلمة الخفية غريبة، كأنها نابعة من حشد، لا يسمح الوجيه لنفسه بأن يجنح بخياله، لكن شيئا في أعماقه يضطرم، يعرف هذا الصوت، كل صوت من الأصوات عند انسجامها، لقّبوه بالعم، وعلى الأرجح، ليس هناك من داع لتحدثه الأرواح بهذه الطريقة، تجثم عليه من جديد ذكرى العتمة الحائمة فوق الكوخ، يمعن النظر بعينيه في الأرجاء محاولا تفكيك العتمات بعضها عن البعض الآخر: تلك الكامنة في الليل، تلك التي تأتي من مكان آخر، هذا مستحيل، إنها مظلمة جدا، تخلى موتانغو عن إضرام النار خوفا من إيقاظ الصياد الذي ما إن يره ساهرا حتى تساوره الشكوك، لن يكون معنى الرؤية ملاذا حقيقيا، يجب أن يسمع ويشعر كي يضاعف ويحافظ على تركيزه، يغمض عينيه، تاركا عضلاته تسترخي، بمجرد الاستقرار في حالة الاسترخاء، بنفَس بطيء، ومنتظم، ازدادت قدراته الجسدية، فأصبح الرجل نافذا إلى جوهر الأشياء كلها، ومتوحدا مع أي جسد يوجد في الغابة.

يسمع موتانغو ما لا يستطيع عادة سماعه الآخرون: يسمع حوارات

صف من النمل، تفريخ الخنافس، نمو خصلات صغيرة من العشب، لا يشعر فقط بالنسيم الذي ينساب من خلال أوراق الأشجار السميكة، ولا الزحف البطيء للأرض تحت مؤخرته، ولا فخذيه المستلقيين على الأرض، بل هناك أيضا الظل المرتجف في أعماق الغسق الليلي، ذلك الظل ليس الليل، إنه بارد، كل شيء حيّ في هذا المكان، كل شيء، ما عدا هذا الظل، لأن أولئك الذين يشكلونه، يحملون فيلقا ينتمي من الآن فصاعدا، إلى بعد آخر، إنهم يروون المغامرة التي يصغي موتانغو إلى حكايتها بانتباه شديد، مكتشفا أنها ليست موجهة له وحده، في هذه اللحظة الحاسمة من المرجح أن يكون آخرون يتلقون الكلمات نفسها، يعطي الرجل انتباهه الكامل لأولئك الذين يقولون إنهم الآن أسرى في أرض الماء.

* * *

ما إن حل منتصف النهار حتى وصلا إلى أبواب بيكومبو، مدينة آل بويلي الكبيرة، لم يكن موتانغو خفيف السير كما هو مرافقه الذي اضطر إلى الإبطاء من إيقاع خطواته، وهكذا أخذت الشمس هذا اللون الأرجواني الذي يعلن دخول الشمس إلى باطن الأرض، عندما وقف الرجلان أمام الحراس المتمركزين على حدود المدينة، كانت إجراءات المراقبة سريعة، أحد القادمين هو ابن البلد ويعرفونه جيدا، أما الثاني فيأتي كثيرا إلى هذه الأراضي، وقد شوهد سلفا، لكنهم مع ذلك ألقوا خلسة نظرة إلى قناعه - جواز سفره، ابتعد هو ومرافقه بينما تبادل الحراس بعض الكلمات البذيئة.

يقترح بويمبا أن يذهب ابن آل المولونغو ليخبر رجال الملكة بحضوره، لن يتمكن من تقديم الولاء هذا المساء، لكن الأجانب من الوجهاء يجب أن يعلنوا حضورهم لدى البلاط، وما إن تقدم في السير داخل قلب المدينة حتى أحس موتانغو بالإعجاب تجاه معمارها ومنازلها المشيدة بالطين

وذات الحيطان والسطوح المزركشة أفاريزها والمرسومة بعناية شديدة، يتأمل الأبواب المصنوعة من خشب الإيباندياند، الخشب الداكن الذي لا يُستعمل في قريته لأنه لديهم مرتبط بقدرات الظلام.

يعتقد أن قوى الظلام لها، بلا شك، مميزاتها، إذا كانت المادة التي ترمز إليها تكشف عن هذه الأناقة، ينظر البدين أيضا إلى ملابس النزر القليل من الناس الموجودين هناك، لاحظ براعة عمل حرفيي آل بويلي الذين يصنعون تحفا بواسطة حرفة نسيج الإيسوكو.

في قبيلته، تضرب الأقمشة الأكثر رقة فقط، التي لا ترقى إلى هذه المهارة، شعر موتانغو فجأة بأنه متخلف قليلا، بدا له الأمر وكأنه رث الثياب، أنسته ملابس الصياد فن النسيج عند آل البويلي، طمأن نفسه قائلا في داخله إنه رغم كل شيء فإن آل المولونغو أكثر ذكاء في صناعة الجلود، كان زعماء قبيلته يملكون لباسا مصنوعا من جلد الفهد يسمى مبوندو، ليشهدوا المراسم به، كان هذا اللباس جميلا يعطي لمرتديه حضورا وسلطة، حتى وإن كان شخصا أشد تفاهة مثل أخيه موكانو. في أحد الأيام القريبة، والرجل متأكد من ذلك، سيرتدي لباس المبوندو، ويمسك بيد قوية عصا القيادة، يحس أنه قريب، أشد قربا من الهدف، هناك صدى صوت في داخله، يؤكد أن هذا التوغل غير المتوقع في بلاد آل البويلي يشكل نقطة تحول، فهو لحظة من تلك اللحظات التي تسمح بتحقق القدر، يفكر موتانغو في ذلك، وينفخ صدره، كما لو أنه سيستقبل الترحيب بعظمته.

نعم، قريبا، سيصير زعيم آل المولانغو، سيميز صدره عن طريق أوشام طقوس القرابين، التي توحّد لحمه بالرابط غير المادي الذي يوحد كل زعيم قبيلة بأولئك الذين سبقوه ولتذكيره يوميا بأن وجوده ينتمي إلى المجموعة، كل من ولد يحمل في داخله الأحياء والأموات، أليس شعار آل

المولونغو هو: أنا موجود لأننا موجودون، وهو يمر من أمام نَسّاج منهمك في ترتيب معداته، توقف الوجيه ليتأمل الأداة التي تسمح بحياكة ثوب الإيسوكو، ثم فجأة يثيره شيء ويغضبه، يسأل بويمبا: الرجال إذن من يقومون بهذا العمل؟ يوافق مرافقه وبدقة أكثر يقول: في الماضي كانت تنتقل الحرفة من ذكر إلى ذكر في العائلة نفسها، أما اليوم فقد أصبحت حرفة بسيطة نتعلمها عند معلم، وهذا الحرفي يرتب أغراضه لأن الليل حلّ، لأن الحياكة ممنوعة بعد مغيب الشمس. يجد مولانغو صعوبة لتمييز مراحل الحياكة محاولا تقييم صعوبة هذا العمل الذي يجب، بالنسبة إليه، أن يمنح للنساء لأن الرجل لديه الكثير مما سيقوم به، وبينما كان الحرفي يستعجل جمع طاولته والدخول إلى مسكنه الذي كان مدخله على الجانب، أخذ الوجيه في التفكير بالمستقبل: سيخضع هذا الشعب، ويعطي للرجال صلاحياتهم الطبيعية.

عند نهاية مسيرة طويلة جدا لم يعد موتانغو يشعر بقدميه لفرط الإرهاق، بعدما اخترق الغابة، وصل إلى أمام الإقامة الملكية التي لا يسودها الهدوء، فقد كانوا يستعدون لجلسة خاصة للملكة، وهذا الأمر لم يكن معتادا عند نهاية النهار، لا يمكن للحدث أن يقع الآن فقد فات الأوان، ورغم ذلك، إذا كانت الاستعدادات الحالية قد جرت، فإن الملكة ستعتلي كرسيّ حكمها عند بزوغ النهار.

كان وجهاء آل البويلي المعروفون من خلال ملابسهم وشعرهم وحليهم وندوبهم قد تم استدعاؤهم، كما تم إعطاء الأوامر إلى الخدم المرتبكين الذين لم يعتادوا إلا قليلا الجلسات الاستثنائية، كانت المنطقة الملكية عبارة عن أرض مستديرة محاطة بسياج من الطين، في داخله ثمانية مبان على شكل قبة، شيدت بطريقة تتبع وتلتقي مسار الجدار المحيط، يوجد من بين هذه المباني أربعة ذات مساحات كبيرة، تقيم فيها العائلة الملكية

أو مستشاروها المقربون، أما الثلاثة المتبقة فهي أقل مساحة ومخصصة للخدم، بقي مبنى واحد أخير حيث يجب أن يقضي موتانغو ليلته فيه.

يتميز مبنى الملكة بمحيط وعلو أكثر ارتفاعا قليلا من مساكن الأسر النبيلة، الضجيج على قدم وساق في وسط الباحة وأمام الأبواب المفتوحة للمنازل التي تبدو وكأنها تحرس بعضها، يصف الخدم مقاعد أرجلها من التماثيل التي ستجلس عليها شخصيات بارزة، وبين صفي المقاعد، بسطوا ثوبا معدا من الإيسوكو، وتتمثل خصوصيته في أن نساء آل البويلي هن من طرزنه. اندهش الوجيه موتانغو من أن يراهم يبسطون فوق الأرض هذا الثوب، قال له الصياد إن النسيج ليس معدا للألبسة، ينسج هذا القماش كباقي الأقمشة من طرف الرجال، ويعد في الوقت نفسه كجزء من الأثاث وشيء للتجميل، وبعد حياكته من طرف النساجين، يعهد به إلى فئة محددة من النساء - لم يكشف عن هويتهن - يتكلفن طرز أشكال حسب مخيلتهن.

الرجل غير متأكد من استيعاب كل شيء: من هنا يأتي، بالتأكيد، ارتباط الحرفيون بجمال أعمالهم اليدوية، لكن ذلك مشروط بالموازاة بين الشيء ومعناه العميق، هذا بالتحديد ما ينفلت منه هنا: المعنى، ودون أن يسأله أسئلة إضافية، فكر أن محاوره، لم يفصح عن كل شيء، وواصل ملاحظة هذا القماش المصنوع من أجل أن تطأه الأقدام، كما لو أن الأرض ليست حسنة كفاية، وكما لو أنه لم يعد ضروريا للغاية الحفاظ على الروابط القوية معها، عندئذ أضاف الصياد أن القماش يستعمل أيضا لتكفين النبلاء قبل دفنهم، لم يعد الرجل البدين يحاول الفهم، لا يمكن أن نخصص المادة نفسها لاستخدامات جِدّ مختلفة، هذا سخيف، على ما يبدو لا أحد يهتم بالقادمين الجدد، يسأل الوجيه مرافقه: ماذا يجري بالتحديد؟

وقبل أن يصله أي نوع من الأجوبة، صاح أحد وجهاء آل البويلي: أحضروه إلى هنا يجب ألا يمثل أمام النجانجو على هذه الحالة، ثم التفت نحو امرأة من طبقته وأضاف: نحن متفقون إذن أنه يجب أن يصبغ الوجه والصدر والأعضاء العلوية، وخلاف ذلك، فإن هيبة ملكتنا ستضعف مكانتها.. اقترح أحدهم أن الإجراء يبدو مبالغا فيه، لدى الساحليين يستقبل الأشخاص كما هم عليه، وهذا لا يمنع من التعامل معهم على قدم المساواة. أنت من يتحدث عن المساواة! يضيف الشخص الذي تم الاحتجاج على اقتراحه للتو، بالنسبة لي، أؤكد أن إخواننا الموجودين على ضفة الماء ليسوا عديمي الإحساس تجاه الأجانب القادمين إلى البونغو، وإذا رجعنا إلى بشرتهم، فلا يمكن أن يكونوا أرواحا وبلا ريب عائدين من الموت، فهم ليسوا منا.

ليس عمليا أن نترك الملكة تنزعج أمام هذا الشخص، فمجرد وصوله إلى المدينة دون الإعلان عن مجيئه يكفي دليلا على أن الغريب يعتقد أن كل شيء مسموح به، من حيث المبدأ سيكون الساحليون قد أرسلوا رسولا إلى آل البويلي كي يخبروهم برغبته المجنونة في المجيء والذهاب التي استحوذت على ضيفهم، وقد أعطوه حرسا من أربعة أشخاص سيحاسبون فيما بعد، ما يهم في هذه اللحظة أنه لم يأخذ بعين الاعتبار إعداد جواز سفر ساري المفعول، لا نعلم شيئا عن هذا الشخص، لا شيء، أقول، احتياطان هما أفضل من واحد: سيمثل الشخص مقيدا أمام عظمتها، سننظف أسنانه مادام لا يعرف هذه الممارسة، وبخاصة الصباغة التي يجب أن نستعملها له كي يظهر بصورة بشرية، يجب أن تبقى نجانجو سيدة نفسها كي تتخذ قرارات تلزم شعب البويلي كله. أحضروه، يصرخ من جديد وجيه البويلي، أحضروا أيضا الصباغة، أقترح أن يضمخ من القدمين إلى الرأس، هذا أكثر أمانا.

وإذا بصوت نسائي يعلو، لم يتمكن الصياد ومرافقه مولونغو من ملاحظة أنها كانت تراقبهما، ومع ذلك فهي هنا منذ البداية، تستند إلى أحد الأعمدة الكبيرة عند مدخل الملكية بعيدا عن الهيجان، حدقت إلى الرجلين بإمعان ثم أطلقت تحذيرا: لا يمكننا القيام بهذا العمل مع وجود أي شخص، هناك دخيل بيننا.. صمت ثقيل يسقط على المكان، كجذع شجرة البوما، تركزت النظرات على بويمبا وموتانغو، ركع الصياد كعلامة احترام أمام المرأة التي تكلمت قبل قليل، وانحنى حتى لامست جبهته التراب وحافظ طويلا على هذه الوضعية، مكث مرافقه مشدوها أمام علامة خضوع رجل لامرأة، ودون أن يستقيم بويمبا شدّ إليه بقوة رداء المانجوا الخاص بالوجيه، مجبرا إياه على الانخفاض بدوره أيضا. يقبل موتانغو أن يضع ركبته على الأرض، ثم الركبة الثانية، لكن شيئا ما في داخله يمنعه من الانبطاح، بلغه صوت الصياد الخافت والأجش كما في حلم: أحييك، يا أميرة نجولي، نطلب مغفرتك من اقتحام هذا الرجل، كنت أتمنى تقديمه أمام جلالتك كما يفرض قانوننا.. هذا هو المكلف بالتجارة عند آل المولونغو.. لم أكن أعلم..

قاطعته قائلة: لا يمكنك أن تعرف، استثناء كان يجب أن تستضيف ضيفنا في بيتك، وغدا يمثل أمام جنابنا، حينها سنكون قادرين على أن نعبّر له عن احترامنا. يومئ بويمبا برأسه إعلانا عن موافقته، ودائما جالسا على ركبتيه، يتراجع القهقرى ببضع خطوات قبل أن يسمح له بالوقوف، أما موتانغو فلم يتحرك قيد شعرة، وحتى إن أراد ذلك فسيكون مستحيلا أن يقوم بمثل هذه المناورة، يحتاج الرجوع إلى الوراء على ركبتيه استعدادا ذهنيا لا يسعفه في تلك اللحظة، لكن ليس هذا هو المشكل الوحيد، لا يحس الرجل أنه مؤهل جسمانيا كي يحاول تقليد الصياد، وبالتالي سيتفادى أن يضع نفسه في موقف سخيف، في الحقيقة، فهو يجهل حتى

إن كان بإمكانه الوقوف على قدميه دون أن تتشابكا مع بعضهما، حينها مكث موتانغو جامدا أمام النظرات الماكرة للأميرة نجولي، خلال برهة صفقت المرأة بيديها مشيرة لخادمين: أرجو مساعدة جارنا على الوقوف. يا بويمبا ستتركه تحت رعاية رجالك الذين سيسهرون على راحته، سأنتظرك مع بداية النهار، بمفردك.

* * *

هذه أول مرة يستضاف فيها موتانغو في منزل لآل البويلي، قلّت لقاءاته مع بويمبا، أيام الرحلة إلى مناقشات حول المكانة المكرسة للتجارة داخل هذه المدينة المسماة بيكومبو. لو لم يكن قد أخذ زمام المبادرة وطلب خدمة من مرافقه، لما كانت الأمور ستذهب أبعد من ذلك، يواجه هذا المساء حقيقة كان قد ارتاب منها، دون أن يقلقه ذلك حقا، وهي أن بويمبا القصير رجل محترم داخل قبيلته، كانت محميته السكنية المسيّجة مثل تلك التي يملكها من يتمتعون بمكانة راقية، تتكون من ثلاثة منازل ذات أحجام متوسطة وواحد صغير، هذا الأخير يقطنه الخدم الذين انبطحوا أمام قدميه لحظة رؤيته، بحركة غير مبالية من يده أمرهم بالوقوف ثم أعطى أوامره. اكتشف موتانغو بسرور الطبع المتواضع لزوجتي الصياد في حضور زوجهما، جاءت الزوجتان لاستقباله من داخل منزليهما، لكنهما لم تصلا إلى درجة الركوع أمام الذكور، ولكنهما صافحتاه بعذوبة: عودة ميمونة يا رجلنا، حللت أهلا ونزلت سهلا، أنت ومرافقك الغريب.

بينما كان بويمبا يشرح من هو ضيفه، ولماذا يجب عليه قضاء الليل في منزله، كان موتانغو منشغلا بتفحص المرأتين دون خجل، يتحسس بنظراته ملمسهن شاعرا بالسعادة لأن هناك على الأقل مجالا لا يمكنهن فيه إلا الخنوع. تضيء الفناء مشاعل مثبتة فوق مدخل المنازل، بشكل

جيد، كي يمعن وجيه المولانغو في ملحوظاته، أيقظه صوت مضيفه من استغراقه في التفكير: أتركك تحت رعايتهم، سنلتقي غدا بعد مقابلتي مع الأميرة، انتظر عودتي. يبتعد بخطوات قصيرة، لكن سريعة، ويتجه صوب المنزل الرئيسي الموجود في وسط الملكية، تستدعي المرأتان الخدم وتضيفان الأوامر إلى تلك التي أمر بها الزوج مسبقا، ثم تنصرفان تاركتَي موتانغو الذي لم يجد نفسه تحت رعايتهما وإنما تحت مسؤولية الخدم. اقتيد إلى أصغر بيت، أعد لإقامته، حيث يوجد هناك سرير خشبي دون فراش مزود بمسند الرأس منحن قليلا، وهناك كرسي بمتكأ عريض. أيها الغريب، قالوا له، نأتيك بشيء لتأكله وبماء لتغتسل به قبل حلول الليل.

مكث الرجل وحيدا يتأمل الأثاث الداخلي باحثا عن فراش، لكن لا أثر له، لذلك يجب أن يرضى بهذا السرير الذي يضايقه، في الواقع، إنه لا يعرف كم عدد الآخرين الذين أراحوا أجسادهم هنا، ونحو أي أحلام جالت بها عقولهم فوق مسند الرأس الثابت هذا، يبدو أن آل البويلي كثيرون وأقوياء وبارعون، لكن تنقصهم أشياء يجب أن يتعلموها فيما يتعلق بالقوانين التي تحكم الحياة، ولكي لا يخاطر سيستعمل الأثاث بطريقة مريحة قليلا، وضع قدميه فوق مسند الرأس واستخدم جراب الصيد كوسادة كما فعل في الغابة، وبعد أن أنهى هذه المسألة شرع موتانغو في التجول ببطء داخل الغرفة مفتشا زواياها كلها، وحين شعر بالارتياح لأنه لم يلاحظ أي شيء مريب، جلس على حافة الكرسي. عاد الخدم من الخارج وطلبوا الإذن بالدخول.

نهض ليفتح الباب، فوجد أمامه شابين، فتاة وفتى، لم يثيرا انتباهه من قبل، تحمل الفتاة طبقا ساخنا يحتوي مرقا بالأعشاب والدرنات، وتمسك أيضا إناء الكالاباش مليئا بالماء. قدم له الفتى ما يشبه قطعة قماش مطوية، تكلم هذا الأخير أولا. بنوبة من الرفض ضغط على شفتيه:

أيها الغريب، سأسمح لنفسي، بتطرية.. ملابسك الخاصة غدا، ستتركها فوق السرير وترتدي هذه، قال وهو يمد له الثوب، بينما مرافقته تختم قائلة: عندما تنهي طعامك اترك فقط الطبق أمام الباب. وعند دخولها إلى الغرفة وضعت الطبق والكالاباش بجانب الكرسي، ثم غادرت المكان وهي تقول: نحن في الجوار، ويكفي أن تنادي، فلتكن ليلتك طيبة.

يصطفق الباب أمام موتانغو الشارد، بدت له قسمات وجهي الخادمين مختلفة عن تلك الخاصة بآل البويلي الذين اعتاد على لقائهم، لا بد أنهم أُحضِروا من تلك المناطق العديدة من البلاد والتي لم يسافر إليها أبدا. في الحقيقة، الموضوع لا يشغله، يشعر بالجوع والإرهاق بعد سهره لليلة كاملة، ثم السير النهار كله، ليس مستغربا مادام لم يذق طعم النوم فمن المستحيل أن يسير بسرعة وراء مرافقه، ماقتا الكرسي فضّل أن يجلس على الأرض لكي يستطعم وجبته، وفي اللحظة التي غمس فيها يده في الطبق، استرجع عبارة ملأ صداها أرجاء الغرفة: ألا تعلم أن آل البويلي قد ألقوا علينا شباكهم؟ معدته تغرغر ومع ذلك لم يتذوق الطعام، غسل يديه، ألقى نظرة داخل جراب الصيد فلاحظ أن اللحم المدخن مازال كافيا لنصف يوم آخر من السير في اتجاه قريته، لا يعرف أي اتجاه ستأخذه الأشياء، ففضل المحافظة على قطع اللحم التي اختارها بعناية، لن يأخذ قسطا من النوم هذه الليلة، من باب الاحتراس ألا ينام، وبخاصة أن الأرواح تأمره بالحيطة والحذر تجاه آل البويلي.

حيطان الغرفة لا منافذ لها على الخارج ما عدا الباب الموصد، إذا أغمض عينيه، فلن يعلم حتى بطلوع الصباح، ولن يحضر بويمبا عنده قبل أن يذهب عند الأميرة نجولي، كما أن الخادمين لن يعكرا صفو راحته ولن تقلق زوجتا الصياد على مصيره، السهر مرة أخرى هو الحل الوحيد، يقف البدين ويقوم ببضع خطوات في الغرفة يصغي السمع على أمل أن

يلتقط صوتا قد يثير انتباهه، لا شيء، تناول اللباس الذي سُلِّم إليه وشرع بفتحه، راودته فجأة فكرة أنه إذا ارتداه، فلن ينتبه إليه أحد. قد تكشفه بعض التمائم التي لا يتخلى عنها أبدا، ولكن بالكاد يمكن رؤيتها من بعيد، في هذا البلد حيث يمكن أن تكون به الأزياء بعيدة عن التبهرج.

تخلص الرجل من لباسه المانجوا، ولف القماش حول وسطه العريض، مفكرا للحظة، ثم قرر ألا يترك جرابه. فتح بحذر الباب، تفحص الفناء بنظرة حادّة، فكّر فيما سيقوله إذا ما فاجأه أحد: خرجتُ بسبب رغبة ملحة. عندما خرج لم يجد أي أحد، عبر الفناء وتوجه نحو البيت الرئيسي، قام موتانغو بجولة كاملة حول البناية قبل أن يعثر على المكان الذي سيقضي فيه ليلته، سينام هنا حيث لا أحد سيشكّ بوجوده، وكذلك بعيدا عن نظر الذين يقيمون في المنازل الثلاثة الأخرى، وإذا حدث أن نام رغما عنه، فسيسمع، على الأقل، ضجة الصياد وهو يغادر داره.

* * *

نام الرجل كمولود جديد، استند إلى جانب المنزل وبين يديه وضع جراب الصيد، بلا شك، رأى حلما في منامه وربما رأى أحلاما كثيرة، لكنها امّحت كلها، وهذا فأل سيئ. في قبيلته يعتقدون أن من لا يحلم توقف عن الحياة، وما زاد من قلقه أنه لم يحضر مغادرة مضيفه. الشمس لم تتخذ مستقرها في السماء، لتبدد الظلال الليلية التي لا تزال تتباطأ مثل الوجود غير الملموس، ومع ذلك فهي حقيقية جدا، هذا لن ينجح في طمأنته، يعرف أن الصياد غادر قبل طلوع النهار لملاقاة الأميرة نجولي، يحدثه حدسه أن اللقاء سيكون مهمّا جدا، وبينما هو يتساءل عن كيفية التسلل وحيدا إلى المنطقة الملكية والعثور على الأحياء التي فيها الأميرة، سمع صرير الباب وهو ينفتح على الفناء، نادى سيد البيت خادما يطلب منه طعاما. موتانغو على استعداد

للوثوب خلف الأشجار المزروعة هنا، انتظر عودة الرجل إلى داخل المنزل.

بعد أن سار أمامه قليلا، لاحظ أن الخادم يختفي داخل المسكن الصغير للملكية، ودون أن يأخذ وقته للتفكير، أطلق موتانغو قدميه للريح في اتجاه باب الخروج، قدماه وبلا رحمة رسمت دربا فوق التراب، قد تخال أن اثنين أو ثلاثة من الفيلة تحدوا بعضهم في السباق، ولحسن حظه، طلع نسيم صباحي وجعل جسيمات التراب تدور، لمحو الأثر الهائل لخطواته، لم يسبق له أبدا الركض على هذا النحو وبطنه على الأرض والرياح تعصف داخل أذنيه. أمسك بيد تلابيب لباسه، وما إن وصل إلى الخارج، حتى شعر أن قلبه يصعد إلى حنجرته وأن رئتيه قربتان فارغتان داخل قفصه الصدري. ترنح باتجاه شجيرات شائكة تنمو على امتداد الطريق.

يخفى الوجيه المولونغي، بطريقة أو بأخرى، جسمه الضخم محاولا أن يستعيد أنفاسه بصمت، ومداعبا جرابه مهنئا نفسه لأنه لم يتركه وراءه، بعد قليل سيلاحظون غيابه، سينظر إليه، على أنه بمثابة إهانة. كان مضيفه قد رجاه ألا يترك الملكية قبل أن يراه من جديد، يعرف موتانغو أنه لن يكون بمقدوره العودة إلى هنا، ما تبقى له من قطع اللحم المقدد ستساعده كثيرا، تشكل في هذه اللحظة ثروته الوحيدة.

مازالت المدينة غارقة في الظلام، عندما خرج الصياد الذي يرتدي لباس الذكور لدى شعبه ويظهر خصره المطوق بلآلئ صغيرة، والنصل العريض المستدير للسكين الاحتفالي المتدلي من حزامه يسقط من رأس فخذه الأيمن، ثم يشع بوميض كما لو أنه بريق نجم تهاوى من السماء، يحمل بويمبا أيضا سكين رماية لها ثلاث شفرات، اثنتان منها منحنيتان، والثالثة أصغر قليلا على شكل رأس رمح، توجد قريبة من المقبض الذي لا يترك لليد إلا مساحة صغيرة، إن مجرد امتلاك مثل هذا السلاح يتطلب رباطة

جأش، لا يترك موتانغو نفسه تتأثر بذلك، عيناه ثابتتان على الأشرطة الجلدية التي تتشابك فوق صدر الصياد وظهره.

سمح له بالتقدم قليلا وتبعه على الطريق محاولا التخفي بكل ما وسعه من وسائل، خلف الأشجار الكثيفة والمخازن القريبة من المنازل، مر الرجلان بمحاذاة البيوت الموصدة، أحيانا يسمع صوت، قد تكون أصوات أواني مطبخ وهي تتصادم، بكاء أطفال. يتوقف الصياد أمام ملكية سكنية محاطة بسور خارجيّ، هذا السياج دليل على أن الذين يقيمون هنا هم من علية القوم، ومع ذلك فالبدين متأكد من أن هذه البناية لا تنتمي لمنطقة الملكية، المنزل الذي يقف أمامه بويمبا يجاور مساكن متشابهة جدا. عندما دخل بويمبا إلى الفناء، تردد موتانغو بين الدخول أيضا أو انتظار خروج الرجل أو مواصلة سيره نحو المنطقة الملكية، وبينما هو يدنو من المدخل لاحظ ما هو مريب، فقد كان السور يحتوي في الداخل على مساكن ليست عديدة بل مسكن واحد، وزد على ذلك فهو صغير ولا يمكن أن يستعمل لإقامة أشخاص من علية القوم، لا يوجد حراس في الأفق، ولا جمرات الشعلة، التي انطفأت، الآن، بعدما استخدمت للإضاءة الليلية، إلى درجة يمكن أن نعتقد أن لا أحد يقيم هنا. تسلل الوجيه موتانغو بحذر إلى المكان، يطرق بويمبا الباب ويبدو أنه يقول شيئا، يبتعد ويحوم حول البناية، بعد ذلك لاحظ ظهور خيال امرأة ودون أن يتعرف عليها حقا - لأنه يوجد في مكان بعيد عنها - يدرك موتانغو أن آداب السلوك والتقاليد تمنع الأميرة والصياد من الالتقاء في مكان مغلق، ومن أجل المحافظة على الشرف سيتم اجتماعهما السري خارج الجدران. حان الوقت للتقرب وللتعرف على ما يجري.

إنها الأميرة بشحمها ولحمها تجلس وجها لوجه أمام الصياد، كلاهما جلس خلف المنزل تحت إفريز تدعمه أعمدة كبيرة، هنا، قدم بويمبا

تقاريره الأكثر إثارة للدهشة، والتي جعلت موتانغو يعض لسانه لكي لا يتفوه بأية كلمة وأن يتحكم في أعصابه لكي لا ينقضّ عليهما في الحال سموّك، لقد تصرفت على النحو المتفق عليه، قال الصياد، الموفد التجاري لدى آل المولانغو يرغب بمعرفة مصير الذكور الذين أسرناهم، إنه رجل داهية، إلى حد أنه لم يسألني بهذه الطريقة بل اكتفى بسؤالي إذا ما كنت رأيت رتلا من الأشخاص يمر عبر أراضينا، فأجبته، وأعطاني خنجرا موهما إياي أن وزير الطقوس الدينية قد باركه، بينما كان يكذب.. تومئ المرأة برأسها: وإذن يمكننا أن نضع ثقتنا في هذا الرجل لكي ننفّذ ما خططنا له، علاوة على ذلك، لماذا جاء عندنا؟ يهز الصياد كتفيه، لم يكن يتوقع أن يرغب الوجيه في مرافقته، لقد استثاره سماع حديثي عن أصحاب أقدام الدجاج، فساورته أفكار سخيفة.

حان الوقت للعودة إلى القرية، ما من داع لملاقاة الملكة نجانجو فهي بلا ريب، تعرف كل شيء، ولكي يخوض رحلة إلى المناطق الساحلية لا ينبغي، في كل الاحوال، أن يقوم بذلك وحده، كان تصور ذلك ضربا من الجنون، وبينما هو على وشك العودة شعر بشيء حديدي مسنّن يرشق أسفل ظهره، سمع صوتا نسويا يأمره: تقدم! دفعوه تحت الإفريز، في هذه اللحظة بالتحديد، التعويذات كلها التي تعلمها والتي كررها آلاف المرات طارت من باله، لم يشعر موتانغو بأي شيء سوى الجوع الذي يعصر أمعاءه، بينما فكرة واحدة لا تنفك تتردد في أعماقه: ألا تعلم أن آل البويلي من نصبوا شباكهم لنا؟

* * *

غادر موكانو وحرسه المقربون أراضي آل البويلي عند الفجر، بدؤوا المسير والليل في نزعه الأخير، وحينما أخذ في التلاشي كانوا على طريق مبينغي في اتجاه بلاد آل البويلي، لكن غروب الشمس حال دون مواصلتهم

التقدم، لم يستأنفوا رحلتهم إلا مع البصيص الأول لضوء الصباح، تناولوا طعاما قليلا وبالكاد تبادلوا بضع كلمات، والتوتر جليّ على محياهم، عندما اقتربوا من أراضي آل البويلي، كانت مدينة بيكومبو ماتزال محجوبة عن الرؤية، لكنهم سيبلغونها خلال مدة وجيزة، حينما ستكون الشمس في ذروتها. يشعر الزعيم أنه فريسة لقلق يثقل خطواته، حاول التركيز حول التفاصيل: قيمة الهدايا المختارة للملكة نجانجو، الألفاظ الحسنة التي ستقال في حضرة الملكة، وفجأة توقف الرجال الموجودون في المقدمة، وعندما استعد لتوبيخهم، أدرك لماذا.

اعترض فصيل من محاربي آل البويلي طريقهم، قائدهم يعتمر قبعة رأس طويلة مرصعة باللؤلؤ، أعطى أمرا بسيطا وبنبرة حازمة وصارمة: ألقوا عليهم القبض! حاول موكانو جاهدا التذكير بمكانته الشخصية، فمن غير اللائق أن يحدث مثل هذا التصرف مع جيران مسالمين. جُرِّد وجنوده من أسلحتهم والهدايا المحمولة لقائدة نجانجو، وعندما أبدوا اعتراضهم، حذروهم بضرورة التقدم إلى الأمام حتى لا تكمم أفواههم، وأن هذه أوامر الملكة، هذا هو الجواب الوحيد الذي سمعوه بعد احتجاجاتهم. يتساءل ما القوى الفاعلة التي سعت، كي يعامل بهذه الطريقة، هل ارتكب خطأ؟ هل هذا هو عقاب نيامبي لأنهم تأخروا في البحث عن المختفين من القبيلة؟ جرت الدموع من مقلتيه وانسابت فوق خديه، لا يسمع تعليقات شعب البويلي، عندما داس ورجاله أرض بيكومبو فإن سخرية المراهقين وأسئلة الأطفال الصغار لأمهاتهم.. لا شيء من ذلك يتناهى إلى سمعه.

اقتيدوا إلى القطاع الملكي، حيث ينعقد اجتماع استثنائي في الصباح، مازال الوجهاء الذين قدموا من مختلف أنحاء البلاد حاضرين، في اللحظة التي أدخل فيها الأسرى من آل المولونغو إلى الملكية الفسيحة حيث تقيم

الملكة وأقرباؤها، لاحظوا موتانغو هناك، جالسا على ركبتيه، كان ظهره مضرجا بالدماء، وركبتاه كذلك، ووجهه متورم، ومحاط بنساء مسلحات بسهام وأقواس، بينما الأميرة نجولي تخاطب المجتمعين: هذا الرجل ألقي عليه القبض عند الفجر، لقد تسلل إلى مساكن الرماة، نعتقد أنه جاسوس أرسل من طرف جيراننا، وكذلك قمنا باستجوابه لكننا حتى اللحظة لم نحصل على اعترافاته، لقد طالبت بحراسة الطرق المؤدية إلى أراضينا في حالة قدوم آخرين دون استدعاء. حينما رأت مجموعة الأغراب التي أحضرت، صمتت. بالنسبة لآل البويلي لا يوجد شيء ليقوله من أن آل المولونغو نواياهم سيئة، ورغم ذلك فقد طلب منهم الحديث، رفض موكانو التحدث حتى يحرَّر من قيوده، إلى حدود اليوم لم يتهم شعبه أبدا بأي فعل يبرر ما يحدث له، لا ينظر إلى أخيه الذي يستعطفه: باسم الروابط التي تجمعنا، قل لهؤلاء الأشخاص، إنني لم أفعل أي شيء! لكن صوت البدين كان مجرد نفس هش.

ينظر زعيم آل المولونغو مباشرة إلى الأمام، ورأسه مرفوع تجاه الملكة نجانجو، في نظره هي الوحيدة الجديرة بسماع كلامه، وهي من جاء للقائها، وإذا كانت هذه هي اللحظات الأخيرة التي سيمارس فيها وظيفته، فسيتصرف بصفته «إلجانيا» حتى النهاية، ولكي لا يقال، عندما ستنتقل هذه الوقائع إلى الأجيال القادمة، إن موكانو تراجع أمام العدالة، ولكي لا يقال إنه بمجرد مثوله أمام الملكة لم يجرؤ على استجوابها عن مصير الاثني عشر من المختفين. ينتظر زعيم المولانغو. يحاكي رجاله تصرفه محاكاة، يغرسون أقدامهم بحزم فوق الأرض، صامتين شامخين، لا أحد خفض بصره تجاه موتانغو الذي يواصل النحيب.

تنهض نجانجو، إنها امرأة صغيرة، لكن تنبعث منها سلطة لا أحد يفكر إطلاقا بالتشكيك فيها، وهي ترتدي غطاء رأس مطرزا يلف وجهها،

مربوطا من أسفل الذقن، وبحركة من يدها أمرت بأن يحرَّر نظيرها من آل المولونغو ومرافقوه من قيودهم، وقالت: موكانو، أهلا وسهلا بك، اعذر جنودي، لم يفعلوا سوى تنفيذ تعليمات أختي نجولي. يومئ الرجل برأسه، وازدرى المقعد الذي قدم له، ومكث منتصبا مفضلا الدخول فورا في الموضوع: نجانجو، منذ مدة طويلة لم أحضر شخصيا إلى هذه الأراضي، كنت أتمنى استقبالا آخر حتى وإن كنت لم أعلن زيارتي من خلال رسول، حسب ما تفرضه الأعراف.. قاطعته الملكة فورا: تقول إنك لم تفوض هذا الشخص للتجسس علينا؟ وأشارت بإصبعها نحو موتانغو.

لأول مرة ينظر موكانو إلى أخيه دون أن يرفّ له جفن، ثم يجيب: جاء هنا دون أن يخبرني، ولا أعلم شيئا عن دوافعه. تسأل نجانجو: هل تسمح لنا إذن أن نعرضه على عدالتنا؟ بقي موكانو جامدا وصامتا وشريط الصور يمر أمام عينيه، يرى ما اقترفه أخوه من مساوئ منذ سنوات، مؤامراته، تحركاته السيئة، إلى غاية ليلة الحريق التي وجده خلالها يرتكب المحظورات مع إحدى بناته في غرفته، هذه الذكرى تغلي دمه، كان الفعل جسيما جدا ويجب أن يعاقب ويحاكم مقترفه بالنفي، ولن يفلت موتانغو من هذا العقاب مهما كانت مكانته. صوت زعيم آل المولونغو قوي وواضح حينما أعلن: افعلي به ما ترينه مناسبا.

احتاج الأمر إلى ثمانية جنود أمرتهم نجولي أن يحملوا المتهم الذي يقاوم ويصرخ بأن الأسلاف لن يسمحوا بهذا العار. حافظ موكانو على هدوئه، مانعا نفسه من قول أن الأسلاف قد تعبوا، وطفح كيلهم من تصرفات أخيه، الذي استحق ما يحدث له. وبمجرد مغادرة الراميات، أمرت نجانجو أن تعاد عصا الحكم إلى موكانو. الآن، تدعوه أن يحتل مكانته على المقعد، إذا لم يجلس، فإن زعيم آل المولونغو سيهين مستضيفته، وهذا ما لا يرجوه. في البداية سنتاول الطعام، لقد

بذلنا أنا وأعضاء مجلسي جهدا كبيرا منذ الصباح الباكر، ولم نتناول شيئا مذاك. انتهز الزعيم الفرصة كي يضع الهدايا أمام كرسي الحكم الذي تحتله الملكة، تسلم رجالها الهدايا من الجنود، لم تقل الكلمات المتعارف عليها، لم تقل كلمات التبريك المعتادة، ولم تغتبط نجانجو أمام الأشياء التي أهديت لها، لا شيء جرى حسب القواعد.

* * *

في داخل زنزانته، يستشيط موتانغو غضبا، كان غضبه شديدا إلى درجة أنه لم يعد قادرا على التفكير في وسيلة للإفلات مما هو فيه، كما أن شدة الصدمة جعلته ينسى أصغر تعويذة. لقد رموا محتوى جرابه، لا يأكل آل البويلي نوعية لحمه المدخن. قالت له إحدى الراميات: أنتم متوحشون حقا، يجب أن نخضعكم كي تتعلموا طريقة العيش، ثم ختمت قائلة: أعتقد أنه كان علينا أن نفعل ذلك سلفا لولا أن أراضيكم عسيرة المسالك خلال مواسم الأمطار، يجب أن يكون المرور ممكنا بين أقاليم البلاد كلها. يتمدد موتانغو دون حراك فوق الأرض، يؤلمه كل جزء من جسمه، والجوع يبلبل ذهنه، يحاول أن يستعيد، على الأقل، أحداث الأيام الماضية كي يستشف الخطأ الذي اقترفه، لكنه لم يتبين أي شيء.

يشعر أن شيئا ما ينفلت منه، لكنه يجهل كنهه، عينه الوحيدة التي ماتزال مفتوحة - الثانية متورمة بشدة - تجول فضاء الغرفة المعتمة، ذات السقف المنخفض إلى درجة أنه لا يستطيع الوقوف، وذات رائحة البول التي تملأ المكان والممتزجة برائحة المرق بالأعشاب بلا لحم الذي قدمت له. قالت له المرأة التي قدمته: كلْ، نحن لا نريدك أن تموت. في هذه الحالة ماذا تريدون؟ يحبذ الموت على أن يعرف الإجابة، لو أنه ارتاب وهو يتسلل إلى هذه الملكية السكنية في الصباح الباكر، وأدرك أنها تضم حامية عسكرية تحتوي على محرمات لا ينبغي انتهاكها، إذا كانت

كذلك، ربما كان سيعود أدراجه إلى بلاده، عندما اكتشف وجوده في هذه الأمكنة، تحولت حياته إلى كابوس، إذا لم تقتله تلك النساء، فإن عليه أن يخشى من كل شيء.

تدور الأفكار داخل رأس الرجل البدين دون أن تستقر على قرار، حينما سمع صوتا: ابن آل المولونغو، لن أسألك كيف استطعت أن تخرج في الظلام؟ احتمال ضعيف أن تفلت منه، من الآن فصاعدا، ستغرقك رامياتنا في الظلمات وإلى أبد الأبدين، تستحق مني هدية أخيرة، إذا كانت لديك تساؤلات فأنا على استعداد للإجابة عنها. يقف بويمبا عند مدخل الغرفة، لم يفكر موتانغو لحظة في دفعه على أم رأسه والفرار، لكنه ما إن يخطُ خطوة إلى الخارج حتى تنقضّ عليه النساء. انسابت عينه في اتجاه الزائر، ليس وجوده على الأرض ما يجعل الصياد أكبر، وإنما لأنه كان يتفوق بمعرفته معلومات كثيرة منذ البداية. لا لن يسأله، وأغمض عينه، لكن بويمبا يضطرم بداخله كلام كثير يريد أن يقوله، اليدان مشبوكتان، والابتسامة مرسومة على الشفتين، وأخذ يحكي عن ليلة الحريق الكبير واصفا العملية التي قام بها رجاله، حينما كانت القبيلة نائمة، لم يكن صعبا إضرام النار في المساكن البدائية جدا بأسطحها من أوراق أشجار الليندي الجافة وركائزها الخشبية.

كم قهقه آل البويلي وهم يرون جيرانهم يركضون هاربين كالحشرات، كان هو نفسه موجودا عندما ألقي القبض على اثني عشر ذكرا من آل المولونغو، جعلوهم يغفون داخل الغابة، فلم يشاهدوا أي أحد قادم. لم نحملهم إلى هنا في بيكومبو، مفضلين قيادتهم عبر طرقات أخرى، وجعلهم يعبرون بلاد البويلي حتى الساحل، كان يجب السير لياليَ طويلة كي يبلغوا إلى الوجهة المنشودة، وخلال اليوم، تم احتجاز المختطفين في ملاجئ الأدغال التي أقامها آل البويلي، على طول المسارات المؤدية من

منطقة واحدة من أراضيهم إلى البلد الساحلي، هناك سلم رجال المولونغو إلى أمير الساحل، الذي سلمهم بدوره إلى الأجانب القادمين من البونغو عبر البحر. لم يكن أمامنا خيار، يشرح بويمبا، لكي نتفادى صداما مع الساحليين، يجب أن نزودهم بالرجال، لقد تم التوصل إلى اتفاق معهم، لأنهم يبثون الرعب في بعض المناطق من البلاد، للحصول على الأسرى لصالح رجال من ذوي أقدام الدجاج.

يصمت، ويخطو بضع خطوات داخل الغرفة، اقترب من موتانغو، ثم أضاف بصوت خافت: شقيقك لم يفعل شيئا لإخراجك من الورطة، سنتركه يرجع إلى أراضيكم، وسننتظر بعض الوقت، لكي نضرب مرة أخرى، وإذا حدث واندلعت الحرب مع آل المولونغو، فسنكون نحن المنتصرين فيها، سيكون من السهل علينا القيام بما نشاء.. ولأنه زعيم، ستتم التضحية بموكانو، لم يتقرر الأمر بعد، يرى البعض أنه ينبغي ببساطة تسليمه إلى الساحليين، قياسا إلى أنه لم يهاجمنا أبدا، ويرى آخرون أن مجرد القتل الشعائري سيكون وسيلة إجلال وتقدير له: أنت تعلم أننا لا نقدم قرابين أيا كان، ومهما حدث، فستقبع هنا، وبعد كل شيء أنت اخترت أن تأتي إلى هنا. يبتسم الصياد، يجب أن نقول أيضا إنك بدين جدا كي نسلمك للساحليين، أنت وحدك، ستحتل مكان ثلاثة رجال، داخل سفن الأجانب القادمين من البونغو عبر البحر، يا رجل أنت لست صفقة جيدة. يصدر الصياد قهقهة صاخبة وشريرة رجّت كتفيه قبل أن تختم: سوف تخصيك رامياتنا أو يقطعن لسانك، هذا إذا أخذتهن الرأفة بك، إنهن يُجدن استعمال الخناجر، وما إن تشفَ من جروحك، فستعمل على خدمتهن، تنفتح أمامك حياة جديدة، احرص على ألا تفسدها.

ينصرف بويمبا، ستستمع الملكة قريبا إلى الرجل ذي أقدام الدجاج الذي غامر بالدخول إلى أراضي آل البويلي، مرفوقا ببعض الرجال

الساحليين، يحدث هذا للمرة الأولى، بويما متلهف لرؤية هذا الغريب، الذي حرصوا على تلوين جلده لإعطائه شكلا بشريا، لا منفذ لآل البويلي في اتجاه البحر، لكن ربما ذات يوم يمكنهم أن يتعاملوا مباشرة مع القوم القادمين من البونغو عبر البحر. لا يستطيع الانتظار، يريد أن يعرف ما سيقال فيما بعد خلال المجلس، يقهقه من فكرة أن الساحليين خاطروا بخسارة امتيازاتهم، أراد موتانغو الصراخ بأنه سيتحالف مع آل البويلي ضد أخيه.. يريد أن يتوسل إليهم لكي يضعوا حدا لحياته، يغمض عينيه، محاولا استدعاء العبارات المقدسة التي ستسمح له بأن يترك جسده هنا ويرسل روحه تبحر في أي مكان، لا يوجد بداخله غير الفراغ، لقد هربت الكلمات السحرية، الرجل ليس سوى جسد من العذاب.

* * *

موكانو لا يعرف المزيد عن المختفين، عندما وطئ مرة أخرى تراب قريته، أقسم رجاله أن لا يذكروا اسم أخيه، لا أحد سيعلم أنهم تركوه ليواجه مصيره، لم يشعرهم هذا، في أي حال من الأحوال، بتأنيب الضمير. أخيرا ستتخلص القبيلة من كائن شرير، سيكون للزعيم حرية الحكم الصحيح. استدعى موكانو المجلس، وعرض تقريرا عن مقابلته للملكة نجانجو، وقد تحدثت ملكة آل البويلي معلنة أنها لا تعرف شيئا عن الأبناء المختفين من العشيرة، وأنهم لم يمروا عبر أراضيها، وهي متيقنة من ذلك. إن بلاد آل البويلي تدار بشكل مثالي، لا يمكن تصور أن مجموعة من الغرباء تمكنت من المرور دون أن يلاحظوا.

من ناحية أخرى، فقد أخبرته نجانجو أن أثر رتل من الرجال قد اكتشف فعلا في أعماق الأدغال، بين أراضي آل البويلي وأراضي آل المولونغو، هذه الآثار التي تتبّعها المقتفي قليلا في حالة إعلانه عن خطر، كانت تتحرك في اتجاه الجودو، لم يبحثوا عن معرفة أكثر من ذلك. قناعتي، يؤكد موكانو

أمام الحكماء المجتمعين، أننا يجب أن نذهب في هذا الاتجاه كي نعثر على أبنائنا وإخواننا، ومهما كانت القوة التي دفعتهم إلى أخذ هذا الطريق، يجب أن يعيدوهم إلينا. لم يعترض الشيوخ هذه المرة، لم يعد موتانغو، وفي غيابه لم يجرؤ المقربون منه على معارضة الزعيم.

سوف يعد جنود إلجانيا فريقا، لكن الشيوخ ألحوا ألا يقوموا بذلك قبل اللجوء إلى الأرواح. خصص نهاران وليلتان إلى طقوس الحماية، والصلوات. طلب الزعيم من ابن المرشد الروحي، الأكثر تجربة أن يتكلف هذه العمليات، يجب أيضا إخبار الداية والنساء اللواتي سيذهبن لإحضار أبنائهن، سيأتين إلى ساحة القرية حيث الشعب كله سيكون محتشدا، فيما بعد من أرادت أن تعود إلى منزلها، فلتعد إليه، لقد دام الفراق طويلا جدا. أريد، ختم الزعيم، أن يجدن أبناءهن أمام عتبة أبواب ملكيتهن العائلية، عندما نحضرهن.

ينوي موكانو المشاركة شخصيا في البحث، ليس هناك أفضل من الزعيم، يجب أن يجسد شعار القبيلة؟ أنا موجود، لأن الجميع موجود، كما يقال في هذه الأراضي، منذ الزمن الذي كانت فيه الملكة إيميني تقود ذويها كي تؤسس شعبا جديدا، بالنسبة لإلجانيا هذا المبدأ الأساسي لا يناقش، يلوم نفسه، لأنه تأخر في بدء البحث عن الذين اختفوا بعد الحريق الكبير، لقد ترددوا كثيرا كما لو أن الأمر يتعلق بالتخلي عن دماء خاصة لصالح المجهول والصمت، سيلتزم بنفسه بالتعليمات المقدمة إلى المحاربين: لا تقفوا أمام العشيرة دون إجابة مقنعة وواضحة عن مصير المختفين.

الفصل الثالث

مسالك الماء

في اليوم الذي بدأ فيه الزعيم ورجاله من الحرس رحلتهم إلى بلاد آل البويلي، غادرت المرأة القرية متوغلة داخل الفجوة التي تفصل الليل عن الفجر، كانت تتقدم عليهم في المشي دون خوف من المسالك التي تتشكل تحت قدميها، راسمة مسارا لا ينتمي إلا لذاتها وكأنه طريق في الحياة، وهي في طريقها، لا شيء، ولا أحد، يملك القدرة على إيقافها. تحمل سلة مربوطة فوق ظهرها يحجب شريطها جبهتها، ويتدلى فوق ظهرها، وضعت داخلها الطعام وقليلا من الماء في قربة مغلقة، وكيسا يرتطم بجانبها الأيمن، يحتوي على وعاء مليء بالتراب. لا تتساءل إيابي عن الاتجاه الذي يجب أن تسلكه، لأن شيئا ما يدفعها ويقودها، إنه حب الأمهات لأبنائهن، ولا تهمها النجوم التي ترشد المسافرين، إن الابن هو النجم بعينه.

تشعر المرأة بالسكينة، عندما تصل سوف تتعرف على المكان وتنثر التراب الملتقط من أسفل شجرة الديكوب، بإجلال ستقرئ السلام لروح مولودها الأول ورفاقه، سيستغرق ذلك الوقت الكافي. إنها تمشي، تمتزج أنفاسها بالرياح، وتلتحم بالطبيعة، لا تحرك أي غصن من أغصان الشجيرات وتحرص على عدم سحق أي من سكانها الصغار، الأمكنة،

اليرقات أو الحشرات الملتصقة بالعشب، إذا لامستهن عن غير قصد، فإنها تطلب المغفرة بكل تواضع، وتستمر في طريقها. كل ما ينبض بالحياة هو موطن للروح، وكل ما يحيا يعبّر عن الخالق. عندما انسدل الليل، ولم تعد ترى كفاية كي تتقدم إلى الأمام، تتوقف، وتضع محفظتها، غطاءها، وتجد أرومة يمكن أن تكون بمثابة مسند للرأس، تغفو، وفي أحلامها، يكلمها صوت ابنها من بلاد الماء.

ليست هذه الأرض رطبة، كما يقال هنا، الماء والتراب، إنها السماء والرياح، لا تشكك إيابي في ذلك، لديها الثقة، وهي لا تعدّ الأيام، تمشي نحو الجودو، ما يروى من الحكايات في القرية لا تتحدث عما يوجد في هذا الجزء من الخليقة، لا يتحدثون إلا عن رحلة الملكة إيميني الرائعة، من البونغو إلى مايكوندو، حيث توجد أراضي المولونغو حاليا، مقارنة بالبلاد التي لم يتعرف عليها أحد من قبل، فنحن نتحدث فقط عن إقليم البويلي، الذي يقع في منطقة مبيجي، تسلك إيابي طريقا غير معروفة لدى الجميع، ولا يمكن الوصول إليها، لكنها تعبرها بسهولة، عندما تبدأ قدماها بالغوص في الأرض الموحلة، فكرت أن هذا هو السبب في عدم وصول أي شخص إلى هنا، تنبعث رائحة الرطوبة من الأرض، كما يحدث بعد هطول الأمطار الغزيرة، تعلم إيابي أن هذه ليست أرض الماء، المكان الذي يجب أن تنثر في أرضه ترابها وحيث رأت نمو العشب المزدوج لابنها.

الآن وهي تفكر في الأمر، يبدو لها سقوط الشجرة إشارة أخرى، مما يؤكد نهاية رحلة ابنها الدنيوية، هل أرض الماء هي العالم الآخر؟ كم عدد الأبعاد الأخرى التي تستضيف أرواح الذين غادروا عالم الأحياء؟ هل من الممكن أن يتجسد المرء مرة أخرى عندما نموت داخل أعماق الماء؟ بلا شك إنها لن تعرف ذلك أبدا، وهي تتقدم كانت تتساءل عن المكان الذي يمكن أن تقضي فيه ليلتها الثانية بعيدا عن القبيلة، الخامسة أو

السادسة، فهي لا تعرف، كما أن الأمر سواء بالنسبة إليها، وهي تصغي السمع إلى صوت امتصاص قدميها في الوحل، فإنها لا تحتاج إلى فحص الأرض لمعرفة أنه من المستحيل الاستلقاء طلبا للراحة، هل يجب أن تتسلق قمة إحدى تلك الأشجار ذات الجذور الظاهرة؟ إنه بالكاد يمكن تصوره، لأن خطر السقوط كبير جدا، علاوة على ذلك، فإن الفروع، رغم أنها كثيرة، فهي تبدو هشّة، وغير قادرة على تحمل وزن جسم بشري.

تحاول إيابي ألا تصاب بالذعر، يجب أن تحافظ على ثقتها، يكاد التعب يغلبها، تتقدم والوحل يغطي ساقيها، ويثقل أطراف منجاتها، لكنها رغم ذلك تواصل التقدم، تهاجمها حكة حادة في باطن قدمها، فلا تتجرأ على حكها، دون أن تكون لديها فكرة عما يعيش هناك في أعماق هذه المستنقعات، وحتى لا يربكها القلق، تتذكر المرأة اللحظات الأخيرة التي قضتها في القرية.

حينما كانت اللائي لم يُعثر على أبنائهن قد غلبهن النوم بعد ليلة من السهاد، ويجلسن إلى جوارها حول جسمها المحموم، أصغين السمع إلى الصوت الذي يعبرهن راويا قصة حزينة، والذي يتحدث عن الفراق، والعنف، والعجز، ويقول باستحالة العودة، وهي ليست موتا، لم تكن كذلك، لأنها قد لا تسمح بانبعاث جديد، موت غير تام، وخلود من العزلة، لكن صمت الأرواح، يتضرع بلا هوادة، أولئك اللاتي لم يُعثر على أبنائهن تعهدن بعدم نشر هذه الكلمات بين أفراد القبيلة، حتى اللواتي لم تكن لديهن الرغبة في رؤية أبنائهن شعرن بأن قلوبهن تنقبض، لم يحببن كفاية هذا الابن أو ذاك، لكنهن يعترفن في النهاية، بأنه جزء لا يتجزأ منهن.

ليس مجرد جسد اختارهنّ كممر، وليس مجرد قطعة من لحمهن، بعضهن قطعن شعورهم، وآخريات لم يجرؤن على القيام بذلك، ذهبن جميعهن إلى النوم مستنزفات ومرهقات.

وحدها الداية حضرت رحيل إيابي، سارا معا إلى حدود أراضي المولونغو، مع الحرص على عدم جذب انتباه الحراس الذين كانوا على وشك ترك مراكزهم. من حيث المبدأ، يجب أن ينتظروا المبادلة قبل العودة إلى منازلهم، لكن الأمور نادرا ما تسير على هذا النحو، لا ينفذ هؤلاء الرجال تدابير السلامة جيدا، والتي اتخذت بعد الحريق الكبير، يحرسون كل ليلة، لكن لا شيء يحدث، حينئذ تراجع اهتمامهم، وأخذوا يتصرفون على سجيتهم، ويحرصون على العودة قبل نهاية الليل، حتى وإن كان النهار لم يستقر بعد لا في الأرض ولا في السماء. لم يتبادلا كلمة واحدة، كل شيء قيل، وضعت المرأة العجوز يدها اليمنى على جبين إيابي، ودعت لها، وسلمتها درع الأمان، احتضنتا بعضهما فترة وجيزة، حاولت إيبيزي الاستعجال للالتحاق بقاطنات الكوخ الجماعي، حيث يجب أن يعرفن برحيل رفيقتهن التي تخوض في الوحل. تتساءل إيابي عن الكلمات التي انتقتها الداية كي تعرض الأمور، كيف فعلت ذلك للتأكد من أن أيا منهن لن تخون، ولن تذهب إلى المجلس لتقول لهم: واحدة منا تسير في الطرقات، بحثا عن بلاد الماء، المستقر الأخير لأبنائنا؟

التشنج يعذب فخذها الأيمن، ويدفعها إلى التوقف للحظة، حابسة أنينا في أعماقها، تمسح باطن كفها من العرق الذي يقطر على جبهتها، معتقدة أنها وقعت ضحية الهلوسة عندما تراها، بلا حراك أمامها. وعلى بعد خطوات قليلة، تواجهها فتاة تقف على جذع شجرة ملقى على جانب الطريق، يحدقان بعضهما في بعض برهة، تسرع الفتاة بالانسحاب، وتختفي كما ظهرت، لا تشعر إيابي بأنها قادرة على الوصول إلى جذع الشجرة، والذي يبدو أنه حقيقي تماما، الأرض لا تشعر بها من تحت قدميها، لكنها تشعر بالدوران، تتناهى إليها همهمة، هي غير متأكدة، ثم تظلم الدنيا أمامها، لم تتناول الطعام منذ مدة طويلة، من المستحيل

أن تتوقف في وسط هذه المستنقعات، كي تضع سلتها الظهرية فوق الأرض وتتناول طعامها، من الآن فصاعدا، ترفض قدماها الحركة، ستموت هنا، واقفة داخل الوحل، وقبل أن تدنو من بلاد الماء حتى، هل فسرت الإشارات جيدا؟ والكلمات الملقاة إليها خلال حالة السمو الروحي؟ ترفع إيابي كفها نحو بطنها وتشد بأصابعها المرتعشة التميمة التي سلمتها إليها الداية.

إذا كان من الممكن أن يكون حدسها قد خدعها، فإنها لن تستطيع تضليل العجوز، إيابي تنتظر واقفة، إنها تنتظر شيئا ما، شخصا ما.

* * *

غيرت الشمس عدة مرات موقعها، وخفتت أشعتها حينما عادت الفتاة التي ما تزال صامتة، تشير إلى المرأة العالقة أقدامها في الوحل، تظهر وجوه وراءها، وجوه لا تستطيع إيابي رؤيتها، يخرجون من بين النباتات المحيطة، مثل البراعم الكبيرة في وسط الخضرة، فم يفتح ويغلق، ماذا يمكن أن يقول، إيابي لا تسمع أي شيء، ودون أن تلاحظ ذلك، تشرئب متطلعة، تدرك أن الكلام موجه إليها، لكنها لا تفهم هذه اللغة، في حين تشعر أنها هي المعنية، هل يجب أن تقلقل رأسها أم تحركه؟ لا تعرف، حينئذ ابتسمت المرأة ابتسامة واسعة، مشيرة بيدها إلى قدميها الغائصتين في الوحل، وقالت بلغتها إنها لا تستطيع التحرك، في الجهة المقابلة لها، لم تقم الطفلة بأية حركة تجاهها، تنسحب الوجوه خلف النباتات، وتتوارى، وحدها الفتاة تمكث أمامها، فوق جذع الشجرة، عيناها السوداوان الكبيرتان تتفحصان المجهول دون أن تُلاحظ أدنى حركة حولها، تنتبه إيابي إلى أن رجلين يقفان على جانبيها قد قدما من خلفها، وألقيا فوق الأرض طوفا مصنوعا من الأغصان المجمعة بواسطة النباتات المتسلقة وعروق الشجر، أحدهما يستخدم عصا طويلة لتحريك الطوف

إلى الأمام، خلّص رفيقه المرأة من سلتها الظهرية ووضعها فوق الطوف، ثم بدأ يجر إيابي، وهو يشدها بقوة من كتفيها، ويقول كلمات لا تفهمها، إن نظرات الرجل هي التي أرشدتها، فبدأت تقلد حركاته، فشعرت بقوة الجسد الذي يسحبها من الوحل، ضمها إليه، وهمهم بكلمات هدأتها موسيقاها، عندما لمست قدماها الخشب، انثنت ركبتاها تحتها، يسلك الطريق الذي جاء منه الرجلان لمساعدتها، يفسح الوحل الطريق إلى مجرى مائي ثم إلى النهر، إيابي لم تر من قبل مثل هذا التيار الهائل، ومع ذلك يخبرها قلبها أن هذا المكان ليس الذي يجب عليها الذهاب إليه، ستعرف المكان عندما تراه، في أعماقها تشكر أرواح الأسلاف، لأنهم توسطوا لصالح نيابي وأرسلوا هذين الرجلين.

لا تعرف لغتهم لكنها تشعر بطاقتها، عندما بلغوا ضفة النهر، كانت الفتاة واقفة هناك، جاءت نساء أيضا، طائفة من السكان تعيش هنا، على بعد مسافة أيام من السير عن أراضي المولونغو، إذا أخذنا الطريق المؤدي إلى الجودو.

على طول الشاطئ، تطفو الطوافات بلطف فوق الماء، إنها مصنوعة من ثلاث طبقات من الفروع المركبة، والمتماسكة بشدة، وبعضها مربوط إلى وتد مغروس في الأرض الموحلة المطلة على النهر، عندما تشرع الأمواج المتكسرة بسحبها، فإن الحبل الذي يشدها يمتد قليلا، ثم يعيدها إلى اليابسة، طفلان صغيران، جاثيان على الضفة، يغطسان أيديهما في الماء، ويضحكان على الحيوانات ذات الجلد اللامع، لا يوجد شيء مماثل لذلك في بلاد المولونغو، تراقبهما الوافدة الجديدة لفترة طويلة، تشاهدهما وهما يلقيان بصيدهما في السلة، مندهشة من مرأى هذا الحيوان الذي لا يسمع صراخه.

أنزلوها إلى اليابسة، تركاها برفقة المرأتين اللتين اصطحبتاها، مررت

كل واحدة حول عنقها ذراع الغريبة، شعرت إيابي بجسديهما حولها، منحها هذا التواصل قوة كبيرة، الأرض ليست موحلة كثيرا كما حيث كانت سجينة، ولكن المدهش أنه مبلل، كما لو كانت قد أمطرت لعدة أيام، ما تزال مشية رفيقتيها حذرة، بنيت أكواخ هذا الشعب على بعد خطوات قليلة من النهر، بعيدا عن الضفة، تغوص الأعمدة التي تدعمها عميقا في الأرض، وترتفع إلى مستوى غير متناسب مع قامة إيابي، قبل أن تظهر الأرضية الخشبية، تتساءل المرأة عن كيفية الوصول إلى هذه المنازل، ولماذا يجب أن تكون مرتفعة على النحو؟

يتوقف السير أمام منزل، عندما تشير إحدى رفيقاتها إلى سلم، تضم الإيماءة إلى الكلمة لتوضح لها كيفية الصعود إلى المنزل، تقول إيابي إنها لن تستطيع فعل ذلك، فتنفجر المرأتان ضاحكتين، ثم دعتاها كي تحاول. فهمت كلامهما من إيقاع الكلمات، وفجأة بدأتا تصفقان بأيديهما لتشجعاها، وترتجلان أغنية، عندئذ بدأت بالتساؤل عما إذا كانت الأرواح تقف إلى جانبها فعلا. يظهر وجه، من خلال باب الكوخ، يتحدث لغتها: يا امرأة، سيرتفع مدّ المياه قريبا، وستختفي اليابسة، وإذا بقيت هناك فلن يتمكن أحد من فعل أي شيء من أجلك، الليل قادم.. تصدر إيابي صرخة طويلة، عرفانا بموتيمبو، أحد هؤلاء الذين لم يعثر عليهم بعد الحريق الكبير، أحد كبار السن الذين اختفوا رفقة الأطفال العشرة، شعرت إيابي بالكثير من العواطف، والكلمات، وهي تضطرم بداخلها، مما جعلها ترتجف، وتسقط مغشيا عليها.

* * *

حينما فتحت عينيها وجدت موتيمبو أمامها، مضى النهار، لكنها لا تعلم ذلك، إنه الليل، لكنهم لم يشعلوا النار لإضاءة الموقع، هم حذرون من أي شيء يمكن أن يكشف عن وجود القرية، حتى وإن كانت

المستنقعات تجعل من الصعب الوصول إليها، الماء يرتفع، كما هو الحال دائما، في هذا الوقت من اليوم، هذا ما قاله لها، عندما سألت عن الضوضاء، إنه الماء، قال بابتسامة، أخبرتك أنه سيغرق العالم قريبا.. الأمواج تنزلق على ركائز الكوخ بوتيرة منتظمة، إلى أن تصل إلى مستوى معين، فيصبح هدير الأمواج مجرد دمدمة، تهيأ لإيابي أنها تسمع أغنية «ويا»، الأرض الأولى، هذا الأمر بلبل تفكيرها قليلا، منذ أن بدأت في البحث عن أرض الماء، وهي تعتبر سكان الماء سلطة معادية، وقوة مؤذية سلبتها طفلها البكر، الطفل الذي كرس مجيئه إلى العالم أنوثتها أمام القبيلة.

منحها الابن الفرصة لاكتشاف نفسها، لتتعرف على نفسها كما لم تتخيلها، الأم الخلاقة: كم عدد الألحان التي راودتها عندما كان عليها أن تؤرجحه؟ الأم العالمة: التي تملك الإجابة عن أسئلته، ليس دائما، ولكن في كثير من الأحيان، العذبة: نعم، وهي التي كانت تذهب في مراهقتها للتنافس مع أشقائها على الرماية، غير مستوعبة بالتأكيد المنفعة من صناعة السلال، منذ ذلك الزمن المضطرب، احتفظت بجسد قوي ونحيل.

بقيت إيابي امرأة قوية كالرجال، ولم يعب عليها محبوبها هذه الشخصية، وكذلك زوجها، في بعض الأحيان، وخلال مرحهما كان الزوج يقول أحيانا مبتسما: «هل تعرفين أنني أنا الرجل؟»، فتجيب: «وإلا، فلن أوافق على الاقتران بك، يجب أن تعرف، مع ذلك، أنني أنا أيضا رجل». إذا كانت إيابي خبيرة في فن تصميم تسريحات الشعر، فذلك لأنها لم تبدُ لها أبدا كمهمة خاصة بالنساء وحدهن. في مولونغو، يعد تصفيف الشعر مهمة يقوم بها أيضا الجنسان كلاهما، يأتي الجميع عندها لتصفيف شعورهن لأنهن يقلن إن يدها بارعة، عندما ظهر وجه زوجها موسينغا متراقصا في ذاكرتها، أزاحته بعيدا، لم يأت لزيارتها في الكوخ الجماعي، هي لا تريد أن تعرف بعد الآن أي شيء عنه.

القرية تبدو بعيدة جدا، كانت غارقة في الظلام، عندما غادرت أراضي القبيلة، بعد فترة توقفت عن إحصاء الأيام وتوقفت عن تسميتها، الوقت لم يتبخر في الهواء، مازال حاضرا هنا، لكنه ببساطة، ضعف معناه، لا يهم كم مضى من الوقت، مادامت لم تستعد ابنها إليها، لأنها لن تراه كما كانت تعرفه، لن تراه أبدا وهو يقترن بزوجة، ويصبح أبا، وحده وهج الشفق ينفذ من خلال الجدران المصنوعة من زند الخشب، شخصان آخران موجودان في الكوخ، لكن وجودهما لا تدركه الحواس تقريبا. بدأت عيناها تعتادان على الظلام، وتتمسكان بوجه الرجل، بالنسبة إليها، لا يوجد أحد سواه، ولا توجد إلا الأسئلة الكثيرة، التي تريد أن تسأله إياها، عندما اقترب من الحصيرة التي ترقد عليها إيابي، أدركت أنه يرتدي فقط رداء إيوبو الذي يستر عورته فقط، ويتحرك بصعوبة، لأن إحدى ساقي موتيمبو مصابة.

لقد وضعوا كمّادة لتغطية جرح بليغ، يعرقل ارتداء ملابس أكثر لياقة. يقطب وجهه وهو يمشي نحوها، ولكن سرعان ما ندّت عنه ابتسامة أزاحت عن محياه معالم الألم. لقد صليت كثيرا، قال، وقد سمعتني الأرواح، ظننت أنني كنت سأموت ألف مرة، دون أن تتاح لي الفرصة لرؤية أي أحد من ديارنا، أحد ما لأروي له.. أحد يخبر الآخرين، كما ترين، سوف يستغرق الأمر بعض الوقت قبل أن أتمكن من العودة إلى القرية، يتحدث موتيمبو عن الحريق الكبير، في تلك الليلة عندما تغير وجه العالم.

يقول ما يعرفه لإيابي، وأيضا ما لا يمكن تخيله، من أن ظلال الليل كانت لا تزال في السماء، عندما ألقى الرجال من آل البويلي شباكهم عليهم. كنت رفقة مونديم وأبنائنا، في أحد أركان الغابة، وخلال وقت وجيز أقل مما يتطلبه الأمر، كمموا أفواهنا، وقيدونا، واقتادونا بعيدا عن أراضي المولونغو. لا يتذكر إذا ما كان قد صرخ أم لا، لا هو ولا أي أحد

من رفاقه، لم يفكروا في ذلك، أو ربما فكروا في ذلك، لا يعرف مطلقا، بعد الحريق، جعل القهر قلوبهم أشد ثقلا.

كل شيء حدث كما لو كان حلما، لم يكن ذلك حقيقيا فلا يمكن أن يعيشوا هذه الفظاعة، كنا نأمل أن نستيقظ، لنقيس حجم الكارثة الناجمة عن الحريق الكبير، ونشد أزرنا ببسالة لإعادة البناء وتبجيل أسلافنا، لأننا لا نبكي الخسائر البشرية، كان الحريق، على الأقل، قد ادخر حياتنا، لذا، كنا سنعيش، لم ننجُ من الحريق لكي نواجه محنة أخرى، لم يكن هذا حقيقيا، لا يمكن أن نكون بصدد عيش هذا، كنا سنستيقظ من كارثة الحريق الكبير وسنتكاتف ببسالة، لإعادة البناء والعيش، كنا على قيد الحياة.

منذ أن أصبح موتيمبو هنا كان لا يكف عن التساؤل عن سبب استسلامه ورفاقه للسير، لماذا لم يقاوموا، وفضلوا السير بدل أن يعرّضوا أنفسهم للقتل، ولأن هذا السؤال استحوذ عليه، فقد توقف، بعد مسيرة ثلاثة أيام حاول أن يستحث رفاقه على التوقف أيضا، لم تسنح له الفرصة للإلحاح عليهم، أحد أفراد آل البويلي رشقه بسهم في فخذه، عميقا بما فيه الكفاية ليخترق لحمه، فصلوه عن الآخرين، وتركوه وراءهم، مقتنعين بأن حيوانا ضاريا ستجتذبه رائحة الدم، وهكذا سيقضى عليه، كان لا يعرف مكان وجوده، ولا اتجاه القرية. في كل الأحوال، لم أكن في حالة تسمح لي بالعودة، لقد فقدت الكثير من الدماء، بالمناسبة، عندما أقول إننا مشينا لمدة ثلاثة أيام ونصف، هذا ليس صحيحا تماما..

كانوا يسيرون ليلا فحسب، أمّا خلال النهار فيقبعون في مخابئ معدة من طرف آل البويلي في أعماق الأجمة الأكثر كثافة وعتمة حتى في وضح النهار.

وبعد برهة، كانوا قد نسوا نور الشمس، وأمسوا لا يعرفون سوى الظل، والليالي الخالية من نور القمر، والأراضي القعرية التي يدفنون فيها مخابئهم المعدة لانزوائهم.

كان من المستحيل بالنسبة إليهم أن يعرفوا الاتجاه الذي اتخذوه، وعلى أي أرض كانوا يوجدون، لقد حلقوا شعر رؤوسهم ولحى أولئك الذين كانوا يحملونها، لمنحهم حال رؤيتهم هيئة أسرى الحرب، وجردوهم من تمائمهم، وزخارفهم، وملابسهم، ولو كان بإمكانهم محو أوشام تضحياتنا، أعتقد، لكانوا قد فعلوا ذلك.. كانت الأغلال عبارة عن حبال تُلفّ حول معاصمهم، وُضع اثنان من فروع شجرة الموينغي، مربوطين بمهارة، على أكتافهم، ولم يترك سوى الرأس ظاهرا، ولكنه لا يمكنه أن يتحرك، لهذا لا يمكن لكل واحد منهم أن يرى سوى رقبة الشخص الذي يسبقه في الطابور، كان من المستحيل أن يتواصلوا فيما بينهم، كما أن خشب الموينغي، المعروف بصلابته، كان يحزّ جلودهم عند أدنى حركة للرقبة.

في لحظة محددة توقف موتيمبو عن السير، وهو يتساءل للمرة الألف عن الأسباب التي تمنعه ومرافقيه من المقاومة أكثر، حتى وإن كانوا سيعرّضون حياتهم للخطر، سمع مهاجمين من آل البويلي يوشوشان لبعضهما، أحدهما يشتكي من أوامر الملكة نيجانجو، التي منعت رسميا أن يقتاد الأسرى خلال النهار، فردّ الآخر بأن هناك عدة أسباب لهذا، أولها، تجنب مواجهة الفضوليين وجها لوجه، وثانيا من أجل حرمان المحتجزين من التعرف على معالم الطريق، وأخيرا، يجب أن نعوّدهم على العتمة، وقال كلاما لن أنساه أبدا: «إلى حيث هم ذاهبون، لا توجد إلا العتمة وبشكل دائم، يجب أن يكونوا مستعدين لها». لا يعرف الرجل أكثر من ذلك، وهو يلتزم بالأوامر، كان موتيمبو الوحيد من استرق السمع إلى هذا الحوار، ولن تُترك له الفرصة لمشاركة مضمونه مع إخوانه، كانت آخر

صورة بقيت عالقة في ذهن الرجل هي مشاهدة ذويه وهم يدفعون إلى الأمام، مهانين من طرف آل البويلي، ومهددين بتلويحات سكاكين الرماية، موجهين إليهم سهامهم المسمومة، كانوا مدججين بالأسلحة، لا يحتاجون سوى إلى حركة واحدة ليقضوا علينا، كما أن قواعدنا الروحية تمنعنا من أن نلقي بأنفسنا إلى التهلكة، أي أن المقاومة في ظل هذه الظروف ستكون فعلا انتحاريا، وإهانة للأسلاف، ومالوبا، وإهانة لنيامبي، الذي كان قد قسم طاقته إلى نصفين لينشرها وليحيا، هكذا، داخل كل شيء.

أتصور أنه لهذا السبب كنا نسير، ضد إرادتنا، أتصور، دون أن نعرف إلى أي وجهة نسير، لم نكن نتحدث إلا لماما حتى أثناء وجودنا في المخابئ، كان بعض آل البويلي يعرفون لغتنا، كان فتياننا المتعلمون يوشوشون ويشجعون بعضهم للصمود حتى تسنح الفرصة المناسبة، لم يتوقف موندين وزير الطقوس الدينية عن لعنة المعتدين علينا، ومناجاة أرواح موتى عشيرتنا، كان أسرنا فعلا جبانا، كان الفعل، زيادة على ذلك، انتهاكا: لم نرتكب جريمة ولا جرما، لم تتح لنا الفرصة لمواجهة أعدائنا خلال معركة عادلة، لا يمكن أن نحرم من الحرية، لم يكن المعتدون يفكون القيود عن معاصمنا أبدا، لا لأجل الطعام ولا لأجل قضاء حاجاتنا، لم تتح لنا الفرصة أبدا.. هل كنا سنعرف كيف سنستغلها؟ كانت تكفي بضعة أيام من الإهانة المطلقة كي يتراجع حماسنا للقتال، وكلما مضى الوقت ما عدنا نحن أنفسنا، بدأ أحد أبنائنا يتحدى الأرواح، رافضا تناول الطعام رغم الضرب، بلا ريب سيكون قد مات أثناء السير.

بصوت خافت تسأل إيابي عمن يكون هذا الفتى: من يكون هذا الطفل؟ يجيب العجوز: إذا كانت ذاكرتي جيدة، فهو ابن إيبيزي، تومئ المرأة برأسها، طاردة رغبة بالبكاء تتنامى بداخلها بسبب تذكرها لرفيقتها خلال أيام العزلة، كانت الوحيدة التي تجرأت على مغادرة

الكوخ الجماعي، هل يجب أن نرى إشارة؟ هل ابنها البكر وابن إيبيزي هما الوحيدان اللذان ماتا في المجموعة؟ إذا كان قد هلك أحدهما نظرا لمقاومته مهاجميه برفضه تناول الطعام، فكيف مات الآخر؟ يبدو أن العبارة التي وصلتها تشير إلى أن العديد من أبناء القبيلة قد دخلوا أرض الماء، إنها تجهل ما يجب عليها أن تفهمه، تغمض عينيها عندما دعاها موتيمبو إلى العودة إلى القرية ليشرح للزعيم وللمجلس أن آل البويلي هم سبب اختفاء اثني عشر من فتيان آل المولونغو.

يريد أن يعود لملاقاة زوجته إليكي، يجب، يقول، أن تعلم أنه مازال على قيد الحياة، لم نفارق بعضنا أبدا أكثر من يوم واحد.. لا تعرف إيابي ما تقدم ولا ما تؤخر، تسمع موتيمبو يعرض الطريقة التي وصل بها لدى هؤلاء السكان الذين عالجوه وحموه، أخبرها أن هذا الشعب المرحاب ليس كتلة واحدة، بالمعنى المتعارف عليه عادة، هنا، ليس لدى الناس ذاكرة مشتركة، ليس لعشيرتهم أسلاف أو مؤسس، فقد أحضر الجميع طواطمهم ومعتقداتهم ومعرفتهم بطرق التداوي والعلاج، كل هذا، وضع، إلى حد ما، في وعاء مشترك، مشكلا مبادئ روحانية يتفق عليها الجميع، وقد اقتسم الرجال والنساء المهام بطريقة واضحة وبسيطة: يصيدون الطرائد ويصطادون السمك محافظين على السلامة الجسدية للعشيرة. يزرعون، ويتولون مسؤولية الحياة الداخلية، يوحدون قواهم كلهم لبناء المساكن، لا توجد سلالة للحاكم، يختار المجتمع قائدا، وإذا لم يرقَ إلى مستوى التوقعات يعزل.

عندما تسأل إيابي، لماذا هذا التنظيم كله؟ يشرح موتيمبو: الناس هنا هربوا من هجمات الساحليين وشركائهم، أولئك الذين يطلقون على أنفسهم أبناء الماء ينشرون الرعب في كل الأماكن التي تكون في متناولهم، ولا يدخرون سوى القرى التي تسكنها المجتمعات الشقيقة،

لأن هذه الأخيرة بمثابة وسطاء، عندما يكون من الضروري جلب الأسرى من الأراضي الداخلية، يأخذون زوارقهم وينصبون الكمائن على جنبات المحيط المجاورة لقريتهم، فهم يجوبون دوائر نفوذ الشعوب الصديقة، وبالتالي يصلون إلى الأماكن التي سينفذون بها عملية الأسر، يستغرق الأمر وقتا، وفي بعض الأحيان شهرا قمريا كاملا، لكي ينقلوا أسراهم إلى الساحل. في الواقع، لا غنى لهم عن مساعدة الشعوب الشقيقة، وحدها المسافة والأرض المستعصية تمنعهما من المجيء إلى بيبيدي، لاقتلاع سكان المنازل ذات الركائز المتينة، وأخيرا، يتعلق الأمر بنظام معقد لا يستطيع موتيمبو التحكم في عجلاته، لكنه يمكنه فقط، أن يؤكد شيئا واحدا: إنه في البلاد الساحلية يتحدد مصير المختطفين، لكن لماذا هذه الاختطافات؟ قالت إيابي مختنقة، وهي لا تصدق ما تسمعه، لأن هذا كله يفوق تصورها.

يومئ موتيمبو برأسه، لقد سمع أن أمراء الساحل قد تحالفوا مع أجانب يسمون أقدام الدجاج، إنهم لا يملكون أقدام طيور حقيقية، لكنهم يرتدون ملابس على أرجلهم تعطي هذا الانطباع، قيل لي إن التجار الساحليين يتاجرون منذ فترة طويلة مع هؤلاء الأجانب القادمين من البونغو عبر المحيط. في السابق، حسب ما فهمته، كانوا يدبرون لهم الزيت الأحمر وأنياب الفيلة، أما الآن فيسلمونهم الأشخاص، وحتى الأطفال، مقابل البضائع، يبدو أن الساحليين يملكون اليوم قصبا ينفث البرق، ويرمي القذائف القاتلة، هذا السلاح، الذي يقدمه رجال أقدام الدجاج، يساعدهم بسهولة على إخضاع أسراهم.

وخوفا من أن يبادوا من طرف أولئك الذين يملكون البرق بين أيديهم، والقادرين على القتل من مسافة بعيدة، بدأت المجتمعات المُهاجَمة تتدفق إلى الأراضي الداخلية، حيث يمكن أن تحميهم الطبيعة المتوحشة، هكذا تشكلت هذه القرية يحيطها نهر ومستنقعات، ليس من السهل

الوصول إليها دون أن يكتشف أمر القادم، سكانها يأتون من أماكن مختلفة، بعضهم من الأراضي التي غزاها آل البويلي، لكنهم لا يعتبرون أنفسهم رعايا الملكة نجانجو.

نحن ندرك حقيقة الأمر، عندما نعرف أن هذه الأخيرة تطلب، من أتباعها، إتاوة بشرية، هكذا أصبح آل البويلي أهم وسطاء الساحليين، في تجارة البشر، وعلاوة على ذلك، فإن بلاد آل البويلي هي أكبر مساحة من نظيرتها لأمراء الساحل.

ولم يتمكن هؤلاء الأخيرون من فرض الاحترام إلا بواسطة الجرأة والمكر والقسوة فقط، مهما يكن، فإن آل البويلي لا يريدون أن يصنعوا أعداء لهم، لأن البلاد الساحلية يملكون البرق. غطت إيابي بكلتا يديها كي لا تصرخ بأن العالم قد جن جنونه، وأن القوى المظلمة بدأت تهيمن، وحتى لو كان المولود الجديد سيعترف بوجه السحر دون صعوبة، فلا يمكننا أن نحتاج إلى الكثير من الأرواح البشرية، باستثناء التضحية بهم لفائدة قوى الشر، ينبض قلب إيابي في صدرها بقوة، ينبض بكثير من الغضب وأنها على وشك أن تنفجر، يبدو لها التفكك أفقا أكثر إرضاء من فكرة الاضطرار إلى العيش من دون عالم حيث يمكن أن توجد هذه الحكايات التي يرويها موتيمبو.

تتركه يواصل حديثه، وهو في حالة من الذهول، وعيناه مغرورقتان بالدموع، يقول الرجل إن السكان المختلطين في هذه القرية الضائعين في قلب المستنقعات يشعرون بالأمان، فلن تغامر قبيلة آل البويلي بالمجيء إلى هنا، لأن معتقداتهم تحظر عليهم الاقتراب من الأراضي المغمورة بالمياه. يمكنهم الذهاب إلى الساحل، ولكن سيتجنبون مثل هذه المستنقعات، الأرض هنا غير مريحة، لكن الناس تعودوا على العيش هناك، يعرفون الآن كيف يبنون أكواخهم فوق ركائز متينة، ويصطادون أسماكا في النهر، يصيدون في الأدغال المجاورة.

يعرف الأطفال كيفية مطاردة القشريات، وإخراجها من ثقوبها المحفورة في الوحل، يعرف الكبار النباتات الصالحة للأكل أو السامة وبعض الأعشاب الطبية، أما لغتهم فهي مزيج من لغات أولئك الذين التقوا على هذه الأرض الموحلة. يبتسم موتيمبو بوهن، ويقول إنه أضاف بعض الكلمات من لغة آل المولونغو خاصة لتعيين قطع السلال التي علّم النساء صناعتها، لأن إعاقته منعته من الجري في الأدغال كما يفعل الرجال الآخرون، لهذا يمكث بجانب النساء. استوقفته إيابي، لأن شيئا ما أثار انتباهها في كلام العجوز، لم يسبق لها أن سمعت من الساحل أو المحيط، وهي تسأل موتيمبو الذي يشرح أنه لا يعرف بنفسه ما تعنيه هاتان الكلمتان. أنا أقصد أني لا أعرفهما بشكل ملموس، لأنني لم أرهما بأم عيني، إن الساحل هو المكان الذي تنتهي عنده الأرض، والمحيط هو المنطقة، التي تبدأ من هناك، صوب حدود العالم، المكون بالكامل من الماء، وإذن المحيط هو أرض الماء؟ تسأل إيابي، بقي موتيمبو مستغرقا في أفكاره، للحظة. قبل أن يختتم، أومأ برأسه:

- نعم، أعتقد أنه يمكن أن نقول ذلك، المحيط هو أرض الماء.

- وهؤلاء الأجانب، هؤلاء الرجال ذوو أقدام الدجاج، هم من أي إقليم؟

- إلى هنا، يا بنيّتي، فأنت تطلبين مني الكثير، أجاب العجوز، كل ما سمعته، أنهم يأتون من البونغو عبر المحيط

* * *

يسقط الليل فجأة، مثل فاكهة ناضجة جدا، يتحطم فوق المستنقعات والنهر والأكواخ ذات الركائز المتينة، لليل نسيج، لبّ فاكهة الكازيمانغولو، التي لا يمكن أن نتذوق حلاوتها وتصير سائغة إلا عن طريق مص الريشات من النواة، وخلق الليل للراحة، لكنه ليس هادئا تماما، يجب

أن نبقى حذرين، ولليل رائحة أيضا: إنه يشم جلد من هم ملتحمون بقوة الأشياء، أولئك الذين لم يكن من الممكن أن يلتقوا، لو لم يكن من الضروري الهروب، والركض دون اتجاه كي يبقوا على قيد الحياة، وربما العثور على حياة أخرى، الليل يحس بالذكريات التي يبعدها النهار، لأننا نشغل الفكر في تجميع أجزاء الأعباء من الكوخ ذي الركائز، إلى الصيد، إلى الهرس، إلى التقشير، إلى علاج الوافد الجديد، إلى مداعبة خدّ الطفل الذي لا يتكلم، إلى البحث عن اسم له لإبقائه ضمن عائلة الرجال، يحمل الليل ذكريات اليوم الأخير من الحياة السابقة، في عالم الأمس، عن الأرض الأم، عندما تفكر في ذلك، ينتابك شعور بأن كل شيء حدث في واقع آخر، عندما يفكر المرء في الأمر، من الممكن أن تكون لدينا ذكريات أخرى عن هجمات عديدة، وهذه لم تكن الأولى..

في كل الأحوال، يعيد الليل الصرخات، والخوف، واللحظة التي وجدنا فيها أنفسنا وحدنا على الطريق، حيث يسقط شخص محبوب لكي لا تقوم له قائمة، لم يكن لدينا وقت لدفنه، لم يكن لدينا وقت لاستدعاء مالوبا، كان العجز عن القيام بالشعائر خطأ، وكأنك تترك شركا في طريق الراحل.

يعيد الليل، ذكرى الجسد الهامد، والثغر الذي لن يبتسم أبدا، والذي لن ينادي بعد الآن، نفكر في الروح الهائمة الآن، لأن احتفالات الحداد لم تنجز، في الليل، نتذكر أنه كانت لدينا مهنة، ومكانة في المجتمع، وتلقينا التعاليم، وكنا محترمين، نذهب للاقتران بزوجة، ونذهب لتسمية المولود الأول من خلال تقديمه إلى الأسلاف، في الليل، نتذكر أننا كنا ننتمي إلى طبقة أقل، وأننا نعمل في كل شيء، وأي شيء، من الصباح إلى المساء، وبكيفية لا نهائية، لم نكن نتحكم في وجودنا، والفرار إلى المجهول لا يمكن أن يكون أسوأ من ذلك، لهذا أسرعنا على الطرقات، وبكل ما أوتينا من

قوة، كنا نفكر في ذلك في كثير من الأحيان، لم يسبق لأحد أن منح الحرية الملامح المميزة، كالتي رسمها الأخ الجريح، الذي كان يجب أن نتركه وراءنا، لقد ركضنا أمامنا مباشرة، دون أن نرى أي شيء، وعيوننا تجهش بالبكاء، ركضنا بنظرته فوق الظهر وفي القلب، وصوت ندائه الحاد، والصمت، بعد أن انكسر صوته، ليصبح الليل غوصا، ليس في هذه العتمة التي تحمي مخاضه، ولكن في الظلمات، وفي ما يمكن أن يصنعه جنون البشر.

تقاسمنا وجبة متواضعة من السمك، وبعض الجذور المغلية، والأوراق المرة، لا تعرف إيابي السمك، وهي تعرف الآن أنها لا تحبه، رائحته فظيعة جدا حتى نرغب في تذوقه، بالطبع، تتبدد مع الطهي والتوابل، ولكن رائحة الأسماك النيئة فظيعة للغاية بحيث تلتصق بك مرة واحدة وإلى الأبد، علاوة على ذلك، تفضل المرأة ألا تتناول اللحم الحيواني قبل إنجاز مهمتها. ما زال موتيمبو في كوخه، حينما حلّ الليل، يصعب عليه مغادرة المكان، هذا المسكن الأول المخصص لاستقبال الوافدين الجدد والمرضى، عندما يصلون إلى أراضي مجتمع المستنقعات، من الشائع تراكم هاتين الوجهتين الأساسيتين. منذ أن حلّ هنا، لم يقطن موتيمبو في أي مكان آخر، ليس بإمكانه أن يقول إنهم حملوه إلى هنا، عندما ذهب الرجال لرفع الفخاخ ليس بعيدا عن القرية، وجدوه ملقى على الطريق، كان قد سحب نفسه إلى الأرض. هناك أثر دم يدل على ذلك، كنت أهذي عندما عثروا عليّ، ثم نقلوني إلى هنا، بعد ذلك علم أنها لم تكن المرة الأولى التي يتم فيها العثور على جريح في الأدغال.

كنا نعرف ما كان يهرب منه، تنظر إيابي حولها دون أن تميز الوجوه الأخرى، في وقت سابق، لاحظت امرأة حبلى تستريح في إحدى الزاويا، هي لم تر الشخص الآخر، تسأل موتيمبو عن الذين يشغلون الكوخ، كنا ثلاثة قبل مجيئك، بالفعل هناك امرأة، على وشك الوضع، وأيضا طفل،

إنه أخرس، كان قد اختبأ داخل حفرة حينما هاجم الساحليون شعبه، وعندما خرج لم يتبق إلا هو وعجوز لم يستطع تحمل الرحلة بين الأدغال، لم يتمكن العجوز من تحديد المكان الذي قدما منه، لأنه مات، ولا أحد يعرف أي شعب أنجب الصغير.

وحسب أوشامه وتصفيفة شعره، يعتقد البعض أنه من مواطني البلاد الساحلية، حيث يجب أن ينتمي إلى طبقة الخدم، وهم أسرى سابقون تحولوا إلى رعايا، ويقول آخرون إن لديه أذنا مقطوعة، وإذا كان الأمر كذلك فهذا البتر هو علامة مميزة على العبودية، في البلاد الساحلية، ليس لدينا يقين على ذلك، الأرض التي ينتهي إليها العالم بعيدة عن هنا، مشيا على الأقدام، وأقصر طريق للوصول إلى هناك هو نهر كوا، الذي يمر عبر الأدغال ليلقي بنفسه في المحيط، وحتى بعد هذا الطريق، قد يستغرق الأمر أياما للوصول إلى نهاية الخليقة.

وفي كل مرة تسمع هذه الكلمة: المحيط، فإن قلب إيابي ينبض، تقول: أيها الرجل، لا أستطيع الرجوع إلى ديارنا، أنا أدرك تماما أنه يجب أن نخبر أهالينا، في أسرع وقت ممكن، ليأخذوا حذرهم من آل البويلي، ولكن.. تصمت، لأن اللحظة المختارة غير مناسبة، لإثارة موضوع الظل الذي يخفي النهار فوق الكوخ الجماعي، والحديث عن التجليات التي انكشفت لها قبل يوم من مغادرتها، يومئ موتيمبو، ولا يغضب، لم تحاول إقناعه، يعلم أنها لم تتجرأ على كل المحظورات بمغادرتها القرية، دون أن يكون لديها سبب وجيه، سينتظر أن تكشف له سرّها، في انتظار ذلك سيصلي بلا كلل، من أجل أن ينجو آل المولونغو.

* * *

ليست إيابي متأكدة إذا ما كانت قد فهمت كل شيء، فقد أكدوا لها للتو أن العالم، كما كانت تعتقد دوما، لا يقتصر على قبيلة آل المولونغو

وآل البويلي، على الرغم من أنها تعلم أن الآخرين عددهم كبير، خطوتها قادتها إلى هذا المكان الذي يدعى بيباييدي، فضاء يؤوي شعبا جديدا، مكان يستحضر اسمه التمزق والبداية على حد سواء، القطيعة والولادة، بيباييدي هي التكوين، هؤلاء الموجودون هنا لديهم أسلاف متعددون ولغات مختلفة، ومع ذلك فهم يشكلون وحدة، هربوا من الغضب، والدمار، وانبثقوا من الفوضى، ورفضوا السماح لأنفسهم بأن ينجروا إلى وجود لم يتقنوا معناه، ليخطفهم موت لا يعرفون طرائقه ولا نهاياته، وتحقق ذلك، ومن دون تخطيط دقيق له، جعلوه عالما حقيقيا إذا تمكنوا من الحفاظ على حيواتهم.

ستولد أجيال لتحتل مكانة الأسلاف، سيتركون لهم لغة مكونة من لغات عديدة، تنصهر فيها الطوائف وتندمج فيها المعتقدات، وإذا نجوا من الرعب الذي وصفه موتيمبو، حينما يصطاد البشرُ البشرَ، فإن مهاجميهم سيبقون على قيد الحياة أيضا. كيف سيبدو الفضاء الذي يسكنه البشر عندما لا يكون هناك سوى الشك والحذر؟ كيف يمكن أن نعيش، ذاكرة متخنة بالذكريات المريرة؟ في هذا المحيط، لن يتاجر آل المولونغو مع آل البويلي، لن يعبروا المسافة المكونة من المستنقعات التي تفصلهما، ليكتشفوا وراء مناطق التاندا الشاسعة شعبا مسالما، وإذا قدموا، إذا جاؤوا بأعداد كبيرة، قد لا يعود شعب بيباييدي ودودا كما حدث مع امرأة وحيدة، ومنهكة بالسير لأيام طويلة بين الأدغال.

تفكر في المحيط، وتحاول أن تتصوره، ثم تتخلى عن الفكرة، هناك يقين يستقر في أعماقها، على الرغم من كل شيء: الإنسان لم يخلق للعيش في الماء، إنها روح الشخص الميت الذي يجب تكريمها على هذه الشواطئ حيث تنتهي الأرض. تمدد موتيمبو بجانبها؛ يعتبر هذا فعلا غير لائق لو كانا في قريتهما، يجب أن يكونا متزوجين، ولا ينتميان إلى العائلة نفسها،

هنا في بيبابيدي، القواعد مختلفة، لا توجد أكواخ كفاية لفصل الرجال عن النساء، ولا يوجد سبب للقيام بذلك. تسمع إيابي أنينا مكتوما في أنفاس الرجل، يشبه صراخا يحاول الرجل قمعه للتحدث إليها، الجرح مؤلم، والرائحة نفاذة لا تفوح من الكمادة فحسب ومن العلاج المطبق على الجرح فقط، إنما أيضا من الألم العنيد النابع من الشعور بالهزيمة، إنها تريد أن تتفحص هذا عن كثب، لكن المكان مظلم، كما أنها منهكة، وبالإضافة إلى ذلك، تسبب تسرُّعها بمغادرة القرية، في إهمالها إحضار نباتاتها الطبية، معتقدة أن الطبيعة ستوفرها لها، وعندما تعيد التفكير في أن البيئة تغيرت وهي تمشي، لم تكن تعرف أيا من الأعشاب ستلتقط، ربما ما زال سكان بيبابيدي في مرحلة الاكتشاف والتجريب فيما يتعلق بالنباتات، وبلا شك لم يجدوا النبتة التي ستعالج موتيمبو. تتثاءب المرأة، وتغمض عينيها.

تقبل إيابي أن تنام بجوار رجل من قبيلتها، حتى وإن كانت عاجزة عن مساعدته، لا تسمعه يفسر أن بعض السكان الذين انفصلوا عن أهاليهم، قد اقترنوا كأزواج، لم يكن هناك زواج بالمعنى المتعارف عليه، تختار وتقبل هذه الكائنات بعضها ببساطة، وإن توافق الرجل والمرأة، شيّدا لنفسيهما فضاء حيث ينجبان الأبناء، العيش واجب، أما هو فكبر في السن ليفعل ذلك، كما أن قلبه لن يحب أي شيء آخر سوى إليكي، وعلى عكس عادات شعوبهم، فليس لموتيمبو غير زوجة واحدة فقط، لقد كان هذا الوضع الاجتماعي شرطا لمحبوبته، وشرطا لزواجهما، لم يكن هذا يمثل أية مشكلة بالنسبة إليه، اليوم رغبته الوحيدة هي أن تعلم زوجته أن حبهما أشد حصانة، لأن إليكي تسكن أنفاسه، وفكره، وأقل رجفة تنبعث منه، عندما ستُغمَض عيناه كما الآن، فإنه يحاول السفر، والحديث إليها، لكن الألم الذي يسببه له الجرح، يمنعه من ذلك، تضعف حدة الألم الطاقة التي

يرغب في توجيهها نحوها، وتستنفد الجهود المبذولة في التركيز، حاول أن ينحت مسندا للرأس لكي يتأكد من أنه سيحلم أحلاما جيدة، لكن لسوء الحظ، لا يملك القوة الكافية لتحقيق ذلك.

من جهة أخرى، كان عليه أن يقطع قطعة من شجرة البونجونجي، غير أنه لا يمكن العثور عليها في هذه الأنحاء، هناك في الغالب أشجار التاندا، الشجيرة الصالحة للعيش في المستنقعات، قبل مجيئه إلى هنا، لم يرَ من قبل مثل هذه الشجرة التي تنغرس جذورها في الوحل، ثم ترتفع مثل ركائز فوق الماء، تتشبث الأسماك الصغيرة والقشريات بها، التي يصطادها الأطفال بأيديهم العارية.

في المحصلة، سيحتاج لخشب البونغونغي، ليس فقط ليعجل بشفائه، ولكن لكي يتمكن من أن يسافر بأمان إلى زوجته إليكي، أين هي الآن، ماذا يصلها منه؟ يسند الرجل رأسه على كالاباش مقلوب.

في ظروف أخرى، سيدفعه هذا الوضع إلى الضحك: النوم على كالاباش، لا يمرح موتيمبو بهذا الوضع، من الضروري أن يحلم أحلاما صحيحة، إن الحلم حقيقة، عندما يستسلم للنوم، كما هو الحال الآن، فإن قلب موتيمبو ينقبض، لا تعجبه الليالي الراهنة التي يعيشها في بيباييدي، لا يغوص إلا في نصف الظلام، ويبقي رغما عنه عينا مفتوحة حريصة، بينما وخز الألم يمزق فخذه، ويجلب له الحمى، كل الليالي تنقضي على هذا المنوال، عندما يطلع الفجر، لا يعرف بما كان يحلم، أو حتى إذا كان قد حلم، يبدو أنه كان يقاوم فقط كي لا يصرخ، في بعض الأحيان يريد أن يموت، تاركا كل هذا وراءه، سيحرره الموت من آلام الجسد، ويمكنه أن يسلم رسالته، ويخاطب إليكي، ويقول لها إنه ينتظرها على الطرف الآخر.

* * *

ليس الضوء الأول للفجر من أيقظ إيابي، ولكن حشرجة موتيمبو

الراقد إلى جانبها، تلتفت، وتميل نحوه، عينا الرجل مفتوحتان، يحرك شفتيه، لكنها لا تسمع أي كلمة مميزة، ما تزال المرأة الحامل والفتى الصامت نائمين، وإذن يجب أن تنزل للبحث عن المساعدة، وقبل أن تتركه، أرادت أن تتفقد الجرح، الذي تفوح منه رائحة تدل على أنه يحتاج إلى تنظيف، وبينما هي تكاد تلمسه سقطت الكمادة، يبدو أن عجينة الدواء قد جفت، كما لو أن شيئا ما أخرج السائل كله، في عمق الجرح كان اللحم أسود مثل الطمي.

تتراجع إيابي إلى الوراء، وهي على يقين أن دودة، وربما حتى أكثر، تعيش داخل الجرح، الذي تفوح منه رائحة اللحم الفاسد، اقتربت، مرة أخرى من الرجل، وهمست ببضع كلمات، خطرت لها أولا مثل: إنها ستعود قريبا، لا ضرورة للقلق. وبينما هي تتهيأ للانصراف، أمسكها العجوز من المعصم، كانت يده باردة، وهمس: ليس أمامي متسع من الوقت، من الأفضل هكذا، غنِّ لمرافقتي، كما نفعل في وطننا. تومئ إيابي موافقة، تجلس، وتضع رأس موتيمبو فوق فخذيها وتبدأ.

الأغنيات المخصصة لمواكبة العبور من العالم الآخر عديدة لدى آل المولونغو، لم تفكر في اختيار واحدة حتى تصل إلى أرض الماء، لكنها لا تمانع في الغناء هنا، من الجيد أن يتم الرحيل أمام شاهدة، عندما يستدعى الأسلاف وينتهي كل شيء، ستطلب سهرة لموتيمبو، قبل أن يدفن، لن يتمكن أفراد المجتمع البيباييدي من تفسير الأغاني اللازمة، لن يكون من المنطقي تعليمهم لأنهم لن يفهموا الكلمات، ومع ذلك تعتقد إيابي أنها تستطيع تعليم النساء كيفية أداء رقصة الموتى.

ستطلب أيضا أن تعد وجبة يشارك فيها الجميع بعد الدفن، بعد ذلك لن يتبقى لديها ما تفعله في هذه الأماكن لهذا ستواصل رحلتها بحثا عن أرض الماء..

تتذكر إيابي ما أخبرها به الرجل عن ذلك الساحل الذي لم يره قط، والذي لم تكن تعتقد بوجوده، أخبرها أن النهر، ويلقبه شعب المستنقعات بـ «كوا»، الذي يأخذ مجراه ليختلط بامتداد أكثر شساعة، لذلك سوف تمشي على امتداد الضفاف إلى المحيط، قد يكون الطريق طويلا، لكنها الآن تعرف إلى أين ستذهب. عاش موتيمبو فقط لإجل إخبارها بما يعرفه، هذا الأمر زاد من تصميمها، إذا كانت المهمة التي دعيت إليها غير جديرة بها، فإن الروح المعنوية والفريدة لن تسمح لها برؤيته مرة أخرى، بفضله، تعرف، جزئيا، ما حدث للذكور الاثني عشر المفقودين، من المهم بالنسبة لها أن تسير بنفسها إلى الأراضي التي أُخذوا إليها، إلى نهاية العالم الأرضي.

تريد المرأة مغادرة بيباييدي على الفور، لكن ذلك غير ممكن، فإذا سمح لها بمشاهدة موتيمبو مرة أخرى، وحضور لحظاته الأخيرة، فليس لترك الآخرين يسهرون على أن تكون لحظة موته في ظروف حسنة عندما سيلفظ أنفاسه الأخيرة، يجب أن تكون قد قضت تسعة أيام على الأقل وليلة إضافية في هذه القرية، تفضل ألا تفكر في هذه الالتزامات التي تؤخر رحيلها، ترفع إيابي صوتها، دون أن تبالي بالآخرين الموجودين في الكوخ، تلمس جبين «موتيمبو» بلطف، والذي أغمض عينيه الآن، تهدئها الأغنية وتقويها، لكن المرأة لم تغنّ أحد الألحان الكثيرة التي ترافق عبور الموتى في قبيلة آل المولونغو، بل تبادرت إلى ذهنها أغنية أخرى ولحن مجهول تشكل بداخلها، لمواجهة هذا الوضع غير المسبوق.

ليس فوق الكوخ الجماعي للائي فقدن أبناءهن استوطن الظل في وقت سابق، فحسب، بل الظل يوجد فوق العالم كله، يدفع الظل المجموعات السكانية إلى محاربة بعضها، والفرار من أراضيها الأصلية، عندما سيمر الوقت وتتوالى الليالي القمرية الواحدة تلو الأخرى، من سيحافظ على ذكرى هذه التمزقات كلها؟

في بيباييدي، ستعلم الأجيال القادمة التي لم تولد بعد أن أسلافهم اضطروا إلى الفرار اتقاء شر الخاطفين، سيقال لهم لماذا بنيت هذه الأكواخ فوق سطح الماء. سوف يقال لهم: إن الوحشية قد استولت على العالم، لكن رغم ذلك، رفض بعض الناس العيش في الظلام، وأنتم أحفاد أولئك الذين قالوا لا للظلام.

تنظر إيابي إلى باب الكوخ، النهار هنا، هادئ، ومشرق تقريبا، هناك شيء غريب عن الشعور بالوحدة كليا، رغم كل شيء، وهي تحاول أن تجد وسيلة لتفتح معبرا لروح هي بصدد العبور إلى أبواب عالم جديد، تهرب منها كلمات ألحان الجنازة، إنها جاثمة في مكان ما من ذهنها، لكنها لا تعثر عليها، هناك أشياء كثيرة تراكمت داخلها.

تستبد الرجفة بالمرأة لمجرد التفكير في أن العجوز موتيمبو محكوم عليه بالتيه، لأنها ببساطة عبّرت عن عجزها، في خاطرها، شرعت تعتذر لنيامبي، لا تستطيع التركيز مطلقا، ليس حتى صوب ابنها تتوجه أفكارها، بل تبحر إلى أراضي قبيلتها المولونغو حيث تستعد النساء حاليا للذهاب إلى الحقل أو النبع، لقد تأكدوا من أن الطعام تم تقديمه، وأوكلوا المنزل إلى بناتهم الأكبر سنا.

تخرج كل واحدة من مساكنهن العائلية، اللائي يذهبن إلى المنبع يلتقين في ساحة القرية، ليس بعيدا عن كوخ المجلس، الذي بني في المركز، عندما يكنّ حاضرات جميعهن، سيبدأن بالسير، وعند المرور أمام كوخ اللواتي لم يتم العثور على أبنائهن، تتساءل إيابي إذا كانت رفيقاتها سيئات الحظ لا يزلن يعشن بعيدا عن المجموعة، إن ذكرى هذا الظلم تُقشعر بدنها، خاصة وأنها تعرف الآن، بعد أن سمعت شهادة موتيمبو، كم هو مستحيل أن تكون النساء محلّ أدنى ريبة، تفكر في إيبيزي أيضا، قبل الليلة التي قضيناها معا في الكوخ المشترك، لم يتبادلا أبدا أكثر من

الكلمات المعتادة، هي في كثير من الأحيان مجاملات غير قادرة على إخفاء التوجس، ومع ذلك، فقد أصبحت الداية عزيزة عليها كأم، تداعب إيابي التميمة التي قدمتها لها المرأة العجوز، وهي تسمع مرة أخرى الكلمات المنطوقة لحظة افتراقهما على حدود القرية: يا بنيتي، سيكون طريقك طويلا، لا أعلم إذا كنت ستجدينني ساعة عودتك، لا تخشي من الرجال، سأهتمّ بأمرهم..

وبينما عينا إيابي تحدقان في البعيد، وفي هذا اليوم الهادئ الذي لا يبدو ملائما للأحزان، يظهر وجهٌ مِن شقِّ الباب، تدخل امرأة إلى الكوخ، لا شك أن الأغنية قد اجتذبتها، لا تتحرك إيابي، ولا تخفض بصرها، تقترب الغريبة منها، تلاحظ حالة موتيمبو، جفون الرجل العجوز مغلقة، تنفسه ضعيف الآن، هو على وشك الرحيل، وقبل الغروب، سيسلم الرجل الروح. تحررت إيابي من كربها، بصرخات المرأة، لن تتحمل وحدها الحداد على العجوز، ستبكيه كما يجب، قبل أن تواري بقاياه تحت الأرض، كل شيء يحدث بسرعة كبيرة، وقريبا، سيصل سكان بيباييدي آخرون إلى هنا، سيحملون موتيمبو إلى الخارج، ويضعونه في واحدة من الطوافات العديدة المستخدمة في وسط القرية، لتكون بمثابة جنازة، ستفرش بداخلها حصيرة.

في صمت، يتقدم القرويون ويحيطون بالمتوفى، لا تفهم إيابي لغة البيباييدي، فقط بضع كلمات تبدو لها مألوفة بصوتها، لكن من الواضح أنها تحتوي على معنى مختلف عما كانت ستمنحه لها، ليس لديها الوقت للتساؤل عن الغموض الذي يتيح للغتين أن تكون لهما روابط واضحة، بينما تظلان غير متصلتين ببعضهما، ليس لديها الوقت، لأن المرأة التي جلبت بصراخها الشعب كله بدأت بدورها في الغناء.

وبينما تبدأ أصوات النساء الأخريات في القبيلة بمرافقتها، مستجيبات، على شكل جوقة، إلى الجمل التي تتخللها اللازمة الغنائية، اطمأنت إيابي

أن موتيمبو سيحمل إلى الجانب الآخر بوقار، استرخى كتفاها المتوتران وانخرطت بالبكاء، يتنامى نحيبها وصراخها مع ازدياد امتنانها: لم تتركه الأرواح ولا نيامبي فريسة لوحدته، سكان البيبابيدي، الذين جاؤوا إلى العالم في منتهى الألم، يعرفون أفضل من أي كائن بوابة الموت، وإذا كانوا لم يفارقوا هذه الأرض، فإنهم انتقلوا من عالم إلى آخر.

انضمت أصوات الرجال إلى أصوات النساء، جلس الطفل الأخرس على الأرض بجانب إيابي، ممسكا يدها، إنها لا تعرف السبب، لكن هذه الحركة البسيطة جعلتها تبكي بكاء مريرا، رافقت آلتان موسيقيتان الأغاني، الأولى تحتوي على ثمانية أوتار مرتبطة بنوع من القصب المنحوت، بينما الآخرى لديها وتر واحد فقط، مشدود إلى القوس، على غرار الأصوات، يجيب بعضهما بعضا، ويحملان الكلمة. ما يقولونه في المتناول لمن يحسن الاستماع.

عبرت فكرة بذهن إيابي، التي تنظر إلى الكوخ الذي تركته للانضمام إلى المجموعة في ساحة القرية، إنها قلقة على المرأة الحامل المقيمة هناك في المنزل، لكنها اطمأنت بسرعة، فقد لمحت فتاتين أمام الباب، وهما على استعداد للمساعدة إذا لزم الأمر، كل شيء على ما يرام، لن يسير موتيمبو وحده إلى الجانب الآخر.

* * *

وفقا لقرار الزعيم، فإن أولئك الذين لم يتم العثور على أبنائهن غادرن الكوخ الجماعي، خضع القرويون مدة ثلاثة أيام وثلاث ليال لطقوس درء الشر، وقد انضمت النساء إلى باقي السكان، على الرغم من أن وزير الطقوس الدينية، وخلافا لرأي الزعيم، تعمّد أن يجعلهن يقفن خطوات خلف النساء الأخريات في القبيلة، لكنهن شاركن في الحفل الذي سبق رحيل موكانو.

صدحت طبول إليمبي ونغومو لمدة ثلاثة أيام وثلاث ليال، ولم تتوقف إلا للحفاظ على الهدوء والسماح لأصوات السكان بالارتفاع، فانتشرت العبارات، والتعويذات، والرجاء الحامل للأمل، ثم رقصوا ليطردوا الطاقات السيئة من دواخلهم، لقد رقصوا ليقولوا أشياء لا تعجز الكلمات عن التعبير عنها، بعد ذلك، سمح للزوجات السابقات بالعودة إلى منازلهن العائلية، حيث لم يكن لم الشمل دافئا دائما، إذا كان الجميع قادرين على التعبير عن أنفسهم أثناء التجمع، بحيث لم تعد الأفكار الأكثر مرارة تنكمش في أعماق قلوبهم، فلم يهدأ المناخ.

كانت الضرات يشيعن نظراتهن بتعال متواصل، سيُزدرى الطعام الذي سيهيئنه عندما سيحين دورهن للطهي، ودائما سيجد أزواجهن أشياء أفضل للقيام بها عندما يضطرون لقضاء الليلة في مخداعهن، غير مراعين الخطأ الذي سيسببه هذا الحرمان: لدى قبيلة المولونغو الوصال التزام في الزواج، يمكن لأمهات المفقودين أن يرجعن إلى المجلس، لمعاقبة الرجال المعيبين، لا يقلن أي شيء، لكنهن متحسرات طوال فترة الفراق.

على الأقل كان الوضع جليا، كنّ وحدهن في أكواخهن، يتحينّ لحظة الخروج للذهاب إلى الحقل، إنهن يعلمن أنه لن يكون الأمر متاحا، كما كان الحال منذ وقت ليس ببعيد، كي يساعدن بعضهن في المجهود، وليتقاسمن كلهن «المبا» المكوّم، والصلصة مع أوراق الشجر، سيُتركن في عزلتهن، ولن تقدم لهنّ المساعدة عندما يحتجن إليها.

قبل مغادرته، أقسم موكانو بأن يعيد الأبناء، وصلى في كل لحظة حتى يصبح الأمر كذلك، فليشاهد الجميع أنهن لم يقترفن أي ذنب، ولسن تحالفا من السحارات المتحدات على التهام أبنائهن، لماذا سيفعلن ذلك؟ حتى أولئك اللواتي لم يتعلق قلبهن بهذا الابن البكر لا يردن فقدانه، ولم يحاولن إلحاق الأذى به، هذا الطفل هو جزء من أنفسهن، وليس

بالضرورة ما يفضّلنه، لكنهن يعرفن الرابطة التي توحدهن به، أولئك اللواتي يعتبرن الشاب كائنا ثمينا، ومحبوبا، يبكين دون توقف. إن فكرة أن يشتبه في أنهن قد يهددن حياته تمزقهن، ليس لديهن القوة، مثل أزواجهن، لمعارضة النساء الأخريات في القرية والتصدي لهن، وقد كانت إيبيزي واحدة منهن، أخذت تشك أكثر فأكثر في وفاة ابنها، إذا كان ابن إيابي قد اختفى في أرض الماء، فما زال على قيد الحياة، وخلافا لذلك، فإنها ستشعر به، كانت ستسمع بوضوح الكلمات التي تناهت إليها مختنقة، في اليوم الذي اسودّ فيه الفجر.

في ذلك الصباح عوضا من أن تأخذ الطريق الذي ستسلكه النساء للذهاب إلى النبع، توجهت نحو كوخ إيبيزي، في الطريق أخذت تحدث نفسها، لا يبدو أنها ترى أحدا. لقد مرت عدة أيام لم تغتسل أو تمشط شعرها.

ما الفائدة؟ لا أحد يريد الاقتراب منها، أطفالها - لديها اثنان بالإضافة إلى البكر - يعاملونها كغريبة، وهذا ما لا تستطيع تحمله، كانت متلهفة للعثور عليهم، كانت ثلاثة أسابيع وبضعة أيام من الغياب كافية لدرجة أنها لم تعد تمثل شيئا في أعينهم، كما تريد من الداية أن يسمح لها بالعودة إلى الكوخ الجماعي، هناك، ستنتظر، الوقت المطلوب، لعودة الابن الضائع. من الآن فصاعدا، فإن الأمل في رؤيته مرة أخرى هو كل ما تبقى لها، وبينما هي تمشي، أخذت تردد الكلمات التي حفظتها عن العجوز.

عندما وصلت إلى مسكن إيبيزي، هطل مطر غزير وبقسوة على القرية، ليس هذا موسم الأمطار. خففت من وتيرة سيرها قليلا، ورفعت عينيها نحو السماء، ثم واصلت سيرها، هذا لن يغير شيئا من قراراتها، إنها لا تهاب العاصفة، ربما قليلا، لأنها كانت ترى هناك موافقة، من

طرف الأرواح، ومن الغضب الذي يحفزها، تتقدم المرأة وسط هذا المطر المنهمر، كان جذعها يميل إلى الأمام قليلا، لمقاومة قوة العناصر، وشفتاها ترتعشان، وهي تكرر الكلمة التي لن تلمس الأرض، لكنها ترتفع بقوة كي تُسمَع، عما قريب ستصل إلى المسكن حيث تقيم الداية. في الفناء، كانت إحدى ضرات إيبيزي تذهب من هنا إلى هناك، وهي تضع بسرعة أواني الكالاباش المليئة بالدرنات والخضراوات المختلفة، ولأنها كانت مشغولة بمهمتها، فإنها لا تلحظ الوافدة الجديدة التي استحوذ عليها وجل مفاجئ، فترددت في التقدم إلى الداخل، جعلت الأرض الموحلة خطواتها خرقاء، لم تكن قد حضرت إلى هنا أبدا، لأن الداية كانت تتنقل عند كل عملية من عمليات الولادة، بالإضافة إلى ذلك، فقد كان المرشد الروحي لا يقدم استشاراته حيث يعيش مع عائلته، لهذا، كان لديه كوخ يقع خارج سكنه العائلي، وهو مكان يتيح له احتواء الطاقات السيئة، لهذا فإن المرأة لا تعرف أي كوخ ستذهب إليه، توقفت برهة وسط الفناء غير عابئة بالأمطار التي تضرب رأسها وتسحق شعرها.

وبينما هي تتمعن فيما يحيطها، استغرقت في التفكير.

في بلاد آل المولونغو، ترتيب الأشياء دقيق، ومن هنا فإن منزل الزوجة الأولى يكون دائما على يمين سكن الرجل، هذا الأخير يحتل موقعا ثابتا، ووفقا له تقام الأكواخ الأخرى، فيضم العمل إلى الفكرة. بدأت إيبيزي تتحرك.

قطع صوت أنثوي تقدمها، فالتفتت، وحدقت في المرأة التي تضم إلى صدرها إناء كالاباش مليئا بالخضراوات. أنت إيبيزي، أليس كذلك؟ مرحبا بك عندنا، كيف يمكنني مساعدتك؟ قصْف العاصفة على الأرض منح إيقاعا للكلمات الموجهة إليها، يبدو وكأنه صوتان يغنيان في الوقت نفسه، صوتان متزامنان، لكن على نغمات مختلفة. أجابت إيبيزي بأنها

تريد أن تتحدث إلى العجوز، أخبرتها بأن الداية غائبة منذ يومين، لم تطأ قدمها فناء العائلة، مما يعني أن الأخبار سيئة، صفقت إيبيزي مرة واحدة بيدها، وعرضت راحتا يديها المفتوحتان، وبواسطة هذه الإيماءة، تطرح أسئلة عديدة: أين إيبيزي، وما الحالة التي سيتم التحدث عنها؟ وعندما مدت نظرها صوب أوراق الأشجار التي يسحبها المطر، لوحت لها محاورتها بأن تتبعها داخل الكوخ.

أسرعتا كلتاهما نحو المسكن، وُضع الكالاباش في إحدى الزوايا، بالقرب من أوان أخرى أنقذت من المياه، عندئذ فقط ستعلم إيبيزي ما يجري: ذهبت إلى المسكن عند إليكي، هذه الأخيرة في حالة سيئة، وقد لا تبقى على قيد الحياة حتى نهاية الليل.. لا أعتقد أنك تستطيعين رؤيتها في هذه الظروف.

نظرت إيبيزي بإمعان إلى التي تحدثها، وقد فاجأها عدم الشعور بأي عداء لدى هذه المرأة، عندما ابتعدت القرية بأكملها عن أولئك اللائي فقدن أبناءهن، لم تغير هذه الأخيرة من مشاعرها، بالنسبة لها العودة بين ذويها غير وارد بتاتا. قالت وهي تومئ برأسها: حسنا، إذا خرجت نفس إليكي، ربما لن أُدعى إلى الجنازة، ستقولين للعجوز إني سأرجع إلى الكوخ الجماعي.

* * *

عندما حلّ الليل، جلست إيبيزي أمام المنزل حيث مازالت عشر نساء، يقمن هناك. العدد قليل، لهذا تشعر بالسلام، أكثر بكثير من العيش وسط عائلة متوجسة، لا تشعر بالجوع ولا تريد شيئا، يجب أن يعود ابنها إلى المنزل، هذا كل شيء، سوف يعود، ما دامت تنتظره، ولأنها تنتظره حقا، تتمسك أفكارها بالذاكرة، وبالرجاء. الآن ستمكث هذه المرأة في الذكرى والرجاء حتى عودة مولودها البكر، لأنها نذرت نفسها حتى تتحقق

العودة، ستواصل نسج رابط بينهما، يجب أن توجه طاقتها كلها نحو هذا الهدف، يجب أن يكون فكرها ثابتا حول موضوع محبتها، بالطريقة التي يمكن تخيلها، والوصول إليها، إنها تريد أن تستدعيه في أحلامها، لكي تخترق الظل الذي جاء عند الفجر لزيارتها قبل بضعة أيام.

إذا تمكنت من استعادة هذا الحلم، إذا كان من الممكن أن ترى وجه الشخص الذي يتحدث إليها، فسوف يعود ابنها، هذا ما تفكر به. في هذه العزلة المختارة، تخترع المرأة عالما روحيا في الذاكرة يكون فيه الشعور عملا فعليا، وأكثر قوة من القوة الموجودة في الطبيعة، ما يوجد بطبيعة الحال لا يصبح حسنا أو سيئا إلا عند اتصاله بالإرادة، لا توجد سوى استثناءات نادرة لهذه القاعدة.

في حين إن ما يوجد في داخلها الآن هو التوق بالتحديد، لأنه ما يحدث لها، لم تعشه مطلقا، وهي تنظر إلى الأرض لا تزال مبللة بعد المطر، والفيضان الذي كاد يغرق ميسيبو، على الأرض المبللة، ترى آثار أقدام صغيرها، يبدأ الطفل بالتحرك على أربع، يذهب بسرعة لدرجة أنه يجب أن يراقب باستمرار.

كان الطفل كثير الحركة، وكأن أمه قد ابتلعت قردا خلال فترة الحمل، وهذا هو السبب في أن الصغير يتحرك بإفراط، هذا ما تقوله النساء الأخريات بخبث وتهكم. يجب أن يسمح له بالتجول دون أن تغفل عنه العين، ولكن في ذلك اليوم، انفلت من تنبهها، وتحرر من حراستها، إنها الآن تكبح بشدة دموعها، وتقتفي بانفعال الآثار على الطريق، تلاحظ أثر يدين صغيرتين، وحفرة تركتها ركبة تلقائية، في الواقع، إنه لا يضع على الأرض إلا الركبة اليمنى، بينما يبقي ساقه اليسرى ممتدة أو ممدودة أو منطوية قليلا، فتغوص في الوحل. وجدته خلف الكوخ بصدد تلطيخ وجهه بالطين، ويضحك بصوت عال. ابتسمت إيبيزي وهي تستعيد هذا

المشهد من ذاكرتها. تبدأ بغناء أنشودة الأطفال وهي تحضتن ابنها بين ذراعيها، وهي تغني، كانت تذكر اسم الصبي، عدة مرات: موكودي، هكذا ما يسمونه، شعرت بالطمأنينة وهي تذكر اسمه.

لم تفكر ولو للحظة واحدة، بأن القوى الخفية يمكنها أن تستحوذ على ذبذبات هذا الاسم. هذا الاعتقاد، من بين أعمق الاعتقادات في المجتمع، يبدو لها فجأة مجرد حماقة، إن التسمية هي التي تصنع وجود من يحيا، وبذكرها لاسم ابنها البكر، فقد أحضرته إلى بيته، هذا ما سيعزز وجوده، وهذا ما يجب على الأمهات جميعهن القيام به، جميع أولئك اللاتي ينتظرن أبناءهن.

تشحذ إيبيزي ذهنها رافضة أن يلهيها أي شيء وكيفما كان، أصوات الليل التي استقرت، لا تصل إليها، حينما اندفعت صرخة حزينة من التل الذي تنتصب فوقه بيوت العائلة الحاكمة، لا يرف للمرأة رمش عين، لن تحتاج إلى قناع كي تبكي المسكينة إليكي، لا تشعر بأنها فقدت واجباتها المنزلية، وتعتقد أن غيابها لن يكون ملحوظا، ولا يهمها ذلك، وإذا أتوا للبحث عنها هنا، فستقول كل شيء، وبعد برهة، ستذهب إلى الاستلقاء على الحصيرة الوحيدة المتبقية في الكوخ، كما لو أنهم كانوا ينتظرون عودتها. تشعر إيبيزي أنها في مكانها الصحيح، وذلك لأول مرة منذ الحريق الكبير، تلزم نفسها بألا ترفع رأسها، وألا تلتفت بنظرها نحو التلال حيث تأتي الصرخات، كان عسيرا عليها أن تتجاهلها، كانت قوتها تزداد حدة، تقوم المرأة بتعبئة قوتها الداخلية حتى لا يستحوذ عليها الحزن الجماعي، لأنها هي، لا أحد يهتم بحزنها، لم تعانِ إليكي أبدا من اختطاف أحد أبنائها، عاشت المرأة العجوز وقتا طويلا، دون أن تضربها أي محنة من هذا النوع، تزوجت من اختاره قلبها، وزوجت ذريتها، ولّدت وربّت أحفادها.

سيكفي القناع بعناية في الطقوس المصاحبة لعبور روحها، نظرا لرتبتها ووظيفتها كمعالجة. إن إليكي هي واحدة من أولئك الذين سيتم استخراج رفاتهم بعد فترة، وستبقى بقاياها وتوضع في صندوق خشبي مغطى بالجلد، لتحفظ في مكان مقدس، ثم سينصب حارس عليها، منحوتة ذات أربعة وجوه موجهة نحو الاتجاهات الأساسية، والتي ستسهر على راحتها، لن يكون موتها نهاية، سيبقى رفاتها داخل القناع، إذن، لا يوجد سبب للتأثر، هذه هي الطريقة التي ترى بها إيبيزي الأشياء، بينما تمعن النظر في السماء حيث تتضخم الغيوم الرمادية. بدأت الأمطار بالتساقط، بعد هنيهة انسحبت إلى داخل الكوخ، يُسمع دوي قرع الطبول وقصف الرعد في وقت واحد، كي يعلن الخبر، تبدأ الصلاة مذكرة عند كل قرع طبل بمَن كانت الراحلة، وبما يدين به القناع لها. لم تعد إيبيزي تصغي للأصوات القادمة، لأنها بدأت تحدث ابنها، محادثة أحادية الاتجاه، لا تترك المرأة نفسها عرضة للانبهار بالصمت الذي يجيبها، سيتحدث طفلها إليها، وسيعود إليها.

* * *

لا أحد يجرؤ على الاقتراب، ليقول للمولدة إنه ليس عليها أن تؤدي هذه الإيماءات، لقد عمت الفوضى في المجتمع منذ الحريق الكبير، لا شيء يتم بعد الآن وفقا للقواعد، من حيث المبدأ، إن أخوات وبنات الراحلة هن من يغسلن جثمانها، ويمررن المرهم على جسدها. داخل الكوخ حيث توفيت إليكي، كانت إيبيزي تشغل المكان كله في حين تركز نساء العائلة على أشياء أخرى، يرتبن المكان من أجل السهرة وينهمكن في إعداد الطعام، عندما تدخل إحداهن إلى الكوخ وتتأهب لاختيار حصير يلف داخله الجثمان قبل دفنه، يقاطعها صوت الداية: اتركي، سأقوم بذلك، لقد كانت أكثر من أختي، تومئ المرأة المتطفلة برأسها، وتتراجع إلى الوراء تاركة الغرفة تعبيرا عن الإذعان، إيبيزي لا تنتمي إلى سلالة زعماء آل

المولونغو، لكنها عرفت مبكرا الروابط التي تجمعها بالهالكة، يمكن القول أيضا إنهن لا يمكن لهن المعارضة، ولا رغبة لديهن أيضا.

الزعيم موكانو غائب، وموتانغو البدين اختفى في ظروف غامضة في اليوم الذي غشي الظل الكوخ الجماعي، المرشد الروحي غير موجود أيضا، ابنه موسيما لن تكون له أية سلطة على الداية، التي تعتبر أيضا أمه. عندما توقفت الأمطار منذ وقت قصير، جاءت إحدى ضرات إيبيزي، اللاتي لم يسبق لهن تسلق التل، وتقدمت للتحدث معها، كان عليها أن تقدم رسالة ذات أهمية قصوى.

وأمام هذا الوضع، لم يكن بمقدورها سوى الصمت، والجلوس فوق مقعد أشير به عليها، أمام الكوخ، إنها ما تزال تنتظر، أما الداية فلم تتبادل معهن كلمة واحدة، يبدو أن أي محادثة قد تعد مسيئة، في الوقت الراهن. إيبيزي في حالة حداد، ولن يسعوا لإزعاجها، سيكون من الضروري الانتظار حتى ينتهي كل شيء ليخبرنها أن إحدى أمهات المختطفين العشرة، المدعوة إيبيزي، قد أخذت على عاتقها أن تعود إلى الكوخ المنعزل، دون أن تكشف عن دوافع تصرفها هذه. كانت المرأة العجوز منشغلة بالرعاية التي يجب أن تحيط بها صديقتها الوحيدة، تعي العجوز الحضور الموجود حولها، وأن شخصا ما قد انتقل إلى هنا لرؤيتها، وهي تعلم أن رجال المجلس، بمجرد إبلاغهم بأفعالها، سيجعلون استنكارهم علنيا. لقد اتهموها بالفعل بمغادرة إيابي، وهذا يعد انتهاكا خطيرا للغاية لقوانينهم، لقد استشاطوا غضبا، لكنهم في غياب موكانو، لن يجرؤوا على معاقبتها، ولا يعرفون ما إذا كان الزعيم قد أبلغ بذلك، وإذا كان قد أعطى موافقته. عندما سيحضرون إلى هنا، ستكون قد أنهت استعداداتها، لن ترتكب أية إهانة في حق أبناء إليكي الذين سيأخذون مكانهم المستحق خلال المراسم.

إلى جانب ذلك، فقد فهموا ذلك، ولهذا سمحوا لها بالعمل، خلال الأيام التي مضت، في حين استشعرت مبكرا أن نيامبي يسحب نفسه من جسد المريضة. شاهد المقيمون فوق التلة أن العجوز لم تكن تسمح إلا بحضور إيبيزي، أفعال الداية دائما عادلة ومخلصة، بينما كانت تغمس أصابعها في كوب يحتوي على زيت النجابي، تذكرت المرأة العجوز آخر كلمات قالتها صديقتها، كانت إليكي تقول إنها تسمع موتيمبو، بوضوح هذه المرة. ابتسمت، مضيفة أنه لا ينبغي أن ننشغل عن إيابي: ابنتنا آمنة، لم تكمل بعد مهمتها، ولكن كل شيء على ما يرام.

تجهل العجوز ماذا يجب عليها أن تفهم، الكلمات الأخيرة للراحلة ظلت غامضة بالنسبة إليها، تردد اسم آل البويلي كثيرا في كلامها، ولكن إليكي كانت ضعيفة بالفعل ودخلت مرحلة الاحتضار، كانت العجوز فريسة لضجر عميق، إنها ترغب بأن تنسحب من العمل في مكان هادئ، وألا ترى هؤلاء الناس بعد الآن، وألا تهرول من هنا إلى هناك لتوليد أطفال إلى عالم ينهار. كل شيء على ما يرام، قال إليكي، قبل أن تغمض عينيها، ربما، في هذه الحالة، لن يرى أحد أي مانع في أن تنأى لبعض الوقت، بعد الدفن، ستستقر في الكوخ الخالي من النساء اللواتي ينتظرن عودة أبنائهن.

هناك، يمكنها أن ترتاح، وأن تتأمل، وتحاول أن تفهم، ذرفت دموعا من عينيها، من أجل مراسم الدفن التي ستقام. إنه موندين، زوجها، من كان سيترأس المراسم، سينوب عنه ابنها، وهو مفعم بالإرادة الحسنة، ولكنه مثل أفراد القبيلة جميعهم، كان تائها، لا يعرف ماذا يفعل، ويفتقر إلى السلطة. وحده موكانو، الزعيم الروحي للقبيلة، كان يمكن أن يحل محل وزير الطقوس الدينية أيضا، كل شيء على ما يرام.. ليست متأكدة تماما، ولكن تريد من أعماق فؤادها، أن تصدق كلمات المرأة الراحلة، لأن

الروح عندما تكون على وشك الانفصال عن الجسد، فإنها ترى، وتدرك ما لا يستطيع الآخرون إدراكه.

سُمِع القرع الأول لطبول إليمبي ونغومو، وأخذ قصف الرعد يضيء بوميضه قليلا وجه إليكي، يبدو أنها تخففت من الألم، وكأنها تبتسم، لفّت الداية حصيرة حول جسدها المصقّع، وثتبته بواسطة خيوط قوية ولم تترك إلا الرأس ظاهرا، وخلال المراسم، لن يرى الناس إلا وجه الميتة، وهدوء ملامحها. بدأت أمطار غزيرة بالتساقط، إنها المرة الثانية خلال اليوم، مع أنه ليس هذا موسمها، تجلس الآن إيبيزي قرب الجثمان، متطلعة إلى الخارج، لا تكاد ترى أولئك الذين يقفون هناك، أولئك الذين سينضمون إليها ليبدؤوا المراسم، عيناها شاخصتان نحو الأمطار الغامرة، سيستمر هذا المطر لعدة أيام. تتساءل العجوز إذا كانت هذه المياه مثل الظل الذي شاهدته ساعة الفجر، لا يهمها سوى أراضي العشيرة، هل تمطر أيضا خارج القرية؟ إذا كان هذا هو الحال، فإن القبيلة، ليست مستعدة لذلك، وستجد نفسها في عزلة لبعض الوقت، لا يمكنهم الاعتماد إلا على أنفسهم، ستكون الحياة صعبة بالنسبة للسكان المحرومين من زعمائهم، كما أن قرارها التقاعد في الكوخ الجماعي لن يتفهمه أحد، سينتقدون بحدة أنانيتها، سيتحدثون عن هروبها من المسؤولية، وسينسون أنه لم يحدث من قبل أبدا أن تخلت عن أهلها.

* * *

يسير موكانو رفقة حراسه نحو الجودو، منذ بداية رحلتهم وهم يبذلون كل ما في وسعهم ليتقدموا سريعا.

ينامون قليلا، يأكلون قليلا، يمضغون النيايي، ذلك الجوز الأبيض، وبخاصة المرّ منه، الذي يزيل التعب، هل هو يوم كواسي أم يوم موكوسي الذي تركوا فيه القرية ليتوغلوا في الأدغال؟ هؤلاء الرجال، رغم أنهم

يجب أن يظلوا يقظين، فهم ليسوا في وضع يمكنهم من الحساب الدقيق للأيام، يجب أن يصلوا إلى الوجهة التي يمكنهم التعرف عليها من خلال العثور على إخوانهم المفقودين هناك، يرغبون جميعهم أن تكون لديهم عزيمة الزعيم، الذي احتل مقدمة المجموعة، كما لو أنه يعرف إلى أين سيتجهون، يقطع أغصان الشجيرات لتسهيل المرور، كانت مبادرته غير ماهرة، فهو لم يعتد على ذلك، فكان تقدمهم أبطأ مما ينبغي.

والحقيقة أنه لا يوجد يقين بشأن الاتجاه، لأن اختيار الطريق قد اتخذ وفقا لكلمات ملكة آل البويلي، وماذا لو أنها كذبت؟ ألف سؤال يعتمل ويتدافع في ذهن المجموعة، لا يوجد سبب موضوعي للشك في كلمة نجانجو، لكن البعض يتساءل، لأن جودو منطقة غامضة خصوصا أنه من الصعب التعرف عليها عبر النجوم، كما أن الغطاء النباتي يمنع تمييزها بشكل جيد، لا يثقون إلا بنجمة النهار، من الضروري أن تكون مستيقظا قبل الفجر بفترة قصيرة، عندما تبرز الشمس تحت اسم إيتوم، وقبل أن تصبح نتيندي، وإيساما، وإنانج.. اسمها الرابع المرتبط بالأنوثة، ويقابل الشكل الذي يصبح عليه النهار ساعة الغروب.

لا ينبس الرجال بكلمة واحدة، يمشون بخطوات حذرة، رقاب المحاربين مخدوشة وأصداغهم تُترك عارية بسبب تسريحات شعرهم الخاصة، يتباهون بقصة شعر تدعى نغينغو، والتي تميزهم عن غيرهم من رجال القبيلة وحتى عن المحاربين الآخرين، إنهم النخبة وحرس الزعيم، لا يسمح لهم بالتعبير عن وجهة نظرهم.. عن رغبتهم في استكشاف الأرض قبل أن يروا موكانو ينخرط في ذلك. لا يُسمح لهم بالشكوى لأن أرجلهم أصبحت ثقيلة مثل فروع شجرة نجوم، ويرغبون في التوقف للحظة من أجل الأكل، اثنان يحملان الطعام يوقفان المسيرة، بينما أولئك الذين يسبقونهما لم يلتفتوا نحوهما، ولكن الولاء يحظر على أفراد القبيلة

أن يمدوا يدهم إلى داخل سلة الطعام المحمولة على الظهر، لتناول قطعة من اللحم والبذور المحمصة، لكن ما يحرج الحاملان للطعام، ليس السير طويلا دون معرفة الاتجاه، ولكن جرجرة هذه السلال التي لا يجيد التعامل معها سوى النساء.

بالنسبة إليهم، فإن المهمة التي يضطر فيها الرجال إلى إعطاء أنفسهم صورة مشابهة للعمل الميداني للمرأة، فإنها محكوم عليها بالفشل، لم يحدث شيء من هذا القبيل، في ذاكرة آل المولونغو، بطبيعة الحال، يحدث أن يبقى المحاربون في أعماق الأدغال، فكانوا يصطادون كما يجب على الرجال أن يفعلوا من أجل الحصول على الطعام.

هذا الشيء غير ممكن، نظرا للظروف الحالية، يجب ألا يتوقفوا، هذه أوامر الزعيم، لن يتوقفوا عن المسير إلا من أجل النوم قليلا، عندما تكون ظلال الليل سميكة جدا. في اليوم السابق، أمروا بتحدي الليل والسير، وهذا يستحق العناء كله، لأنه ضاعت بالفعل أكثر من ثلاثة أسابيع.

أخيرا، كان على موكانو أن يصغي إلى صوت الحكمة، ويوافق على الاستراحة، لم يغمض عينيه طوال الليل، لاحظ الرجال ذلك فتناوبوا على أخذ دورهم بالحراسة، استند الزعيم إلى جذع شجرة، وغطى كتفيه بأمامبوندو، وقبع يمعن النظر في الظلام، وربما يفكر في اكتشاف بعض الإشارات، في بعض الأحيان، يعتقدون أنهم يرونه يحدّث شخصا ما، غير مرئي، ثم يقولون، لا إنه يمضغ الجذور أو اللحاء فقط. مع بداية الفجر، استؤنفت المسيرة، في صمت، ارتشف موكانو بضع قطرات من عصير ورقة بونغونغي، ولا شيء أكثر من ذلك، وبما أنهم غادروا أراضي القبيلة، فإنه تقريبا لم يتناول الطعام، وهذا يعتبر تصرفا مقلقا.

من باب الاحترام والمودة لزعيمهم، امتنع الرجال مرة أخرى عن التعبير عن موقفهم، ومع ذلك، إذا كانت الأمور ستأخذ هذه الوتيرة لفترة

طويلة، فيجب تدبر الأمور، الجانب الروحي لا مكان له، عندما يتعلق الأمر بقيادة مهمة كهذه، في مقدمة المسيرة، كان إلجانيا أول من لاحظ تغير الأرض، كان التراب تحت قدميه قد صار سبخا، وبسرعة غمرهما الماء إلى حدود الساقين. أمامه، شجيرات لم يرَ أبدا مثيلا لها، تقف على جذور عارضة وتنغرس في الطين الأسود، سحابة سميكة من الحشرات تحوم في الهواء الخانق، حاول عبثا أن يبعدها بعصا زعامته، الغسق يلوح في الأفق، وهناك غمام ممطر وكثيف يتهيأ لإطلاق أمطاره غير المرحب بها في مكان كهذا، يخفض موكانو عينيه ملاحظا الأرض الغريبة المتزحزحة، والتي يجب أن يستمر التقدم فوقها، حتى وإن أسرع قبل هطول الأمطار فهل بإمكانهم الوصول إلى أرض يابسة؟ قطّب حاجبيه وحاول أن ينتقل من مكانه، لكن الوحل جرده من فردة حذائه المبوندي، التي ضاعت داخل الرسب الطيني. رفع قدمه العارية، وفحصها، وكأنه يراها لأول مرة، وكما لو أن العضو لشخص آخر، يرى زعيم آل المولونغو الأيام تمرّ منذ الحريق الكبير، متى فشل؟ يجب أن يكون قد ارتكب خطأ، لهذا تخلى عنه نيامبي، لذلك، سيحاول.

هل كان من الضروري تجاهل جبن المجلس والبحث عن المفقودين بمجرد التأكد من الوضع؟ هل كان يجب الكشف عن جريمة موتانغو، ذلك الاغتصاب المحرم مساء ليلة الحريق؟ استعاد موكانو الوقائع كلها، موجها لنفسه اللوم، للحظة، لترك شقيقه بين أيدي آل البويلي، ثم قلقل رأسه، وهو يفكر أنه في بلاد آل المولونغو يبعد المجرمون اتقاء شر الانتقام أو طلبا لغفران الإله، إنهم لا يقتلون لأن الحياة البشرية مقدسة لديهم، لكنهم يطردون.

كان تصرفه ببساطة بمثابة إبعاد لكائن خبيث، إذن، وماذا بعد؟ هل كان يجب على أولئك اللواتي يبحثن عن أبنائهن أن يمكثن في الكوخ

الجماعي؟ هل يجب أن يذهب لرؤيتهن عندما سمع صراخا عند النزع الأخير من الليل؟ هل كان يجب انتظار عودة الرجال المفقودين للقيام باحتفال في العشيرة؟ قبل مغادرته القرية، اعتنى بمخاطبة الأرواح، وتساءل هو نفسه عن نغامبي، الذي لم يقدم له أية إجابة محددة. كان عليه أن يكون راضيا بكلمة واحدة: ابن آل المولونغو، قال الوسيط الروحي، لا شيء سيكون كما في السابق، ها قد آن أوان ملك موتيتي. لم تقدم له العبارة التعليمات المتوقعة، القرار يعود إليه، وقد اتخذها، من أجل احترام مكانته، علّمه والده، أن الشر موجود فقط من أجل أن نحاربه، وأضاف أيضا، في بعض الأحيان، هذه الكلمات كان موكانو قد نسيها: علينا أن نكافح دون التأكد، بأنفسنا، من رؤية يوم انتصار. يضع زعيم آل المولونجو قدمه العارية، فوق الأرض ويطلق صيحة تحطمت على صوت الرعد. إنها تمطر.

الفصل الرابع
أرض الأسر

استأنفت إيابي رحلتها، ذات ليلة قمرية بعدما انتهت مراسم دفن موتيمبو، حضرت الحداد، لأنها كانت، بطريقة ما، العائلة الوحيدة للراحل. استغلت الوقت أيضا لتتعلم لغة البيباييدي، ولتكون مفهومة لديها بوضوح، لحق بها الطفل الأبكم، الذي كان قد تعلق بها، كان من المستحيل إجباره على البقاء في بيباييدي، لذلك سار بجانبها، ممسكا بيده الصغيرة يد المرأة، ساعدهم رجال من سكان القرية ليعبرا النهر على متن طوف غير آمن، فكانت كل لحظة في هذه الرحلة البطيئة بمثابة حصة تعذيب، ولأنها غير معتادة على الماء، اعتقدت مئة مرة أنها تسقط هناك، وتختفي إلى الأبد، لن يسمح نيامبي بذلك، تركهما مرافقوهما عند حدود أراضيهم، حيث تستعيد اليابسة نفوذها. عندما يعودان، يجب عليهما أن ينتظرا لعدة أيام، فهم نادرا ما يأتون إلى هذه الحدود، خوفا من مصادفة الساحليين، والكشف عن وجود قريتهم. المرأة جاهزة، سأنتظر، هذا ما قالته لمحاورها، وانطلاقا من قرية البيباييدي، ستعود إلى قرية

آل المولونغو، من يستمع إليها يحثها على مواصلة قصة رحلتها، تومئ برأسها، وتواصل الحكي.

كان الخيط الجلدي لسلتها يحز جبينها، في بعض الأحيان تود وضعها وتنفّس الصعداء قليلا.

في تلك اللحظات، تحدثت إلى الطفل الذي لم يردّ، لم يكن ذلك مهما، تعرف أنه يصغي، وأن جزءا منه يفهم ما تقوله، كانا قد سارا يومين، وثلاثة أيام أخرى بالتأكيد، عندما وقفت أمامه، كما فعلت بالفعل في بيباييدي، واضعة يديها فوق صدرها، وضاربة قفصها الصدري عدة مرات وقالت: إيابي. كررت اسمها، حتى أومأ برأسه، وقال: إيابي، مشيرا بإصبعه نحوها، أجهشت بالبكاء حينما سمعت صوت الصبي الأجش، كانت عيناها غائمتين حينما وضعت كف يدها على صدر الطفل، أجاب: بانا، ضحكت المرأة لأن هذه الكلمة، بلغة آل المولونغو، تعني الأطفال، ظنت أنه يخلط هذا المصطلح مع مونا، الذي يعني الطفل.

هكذا كانوا يسمونها هناك في بيباييدي. استأنفا السير مرة أخرى، ثم لم يقل كلمة واحدة لفترة طويلة، لكن وجهه كان مشرقا، ومنشرحا، وملونا بتعبيرات مختلفة. المرأة لم تطلب أكثر من ذلك، عندما سيتمكن من التحدث معها، سيفعل ذلك. على طول الطريق، واصلت تعليمه لهجة المولونغو، وهي تسمي، مرة أخرى، العناصر الموجودة في الطبيعة بأسمائها: الأشجار والأوراق والتراب، أعضاء الجسم، الأفعال، المشي، الأكل، الشرب، النوم.. منحه هذا شعورا بالسكينة، التقاسم، والتواصل، إعادة وجود العالم مرة أخرى لكائن بشري. في بعض الأحيان كانت تتحدث عن مواضيع معقدة، عن نشأة الكون والجانب الروحي عند آل المولونغو، التي احتاجت إلى تذكرها، كان عليها أن تتذكر أن هويتها ليست أن تكون امرأة معزولة، وضائعة في شساعة الميسيبو.

لقد انحدرت من شعب امتلك لغة وعادات ورؤية عن العالم وتاريخا وذاكرة، لقد كانت ابنة مجموعة بشرية قامت على مدى أجيال بتعليم أولادها المعتقد.

ذات صباح شعرت أنها تقترب تدريجيا من فضاء مأهول بالسكان، ولتبعد تخوفها من فكرة أن تصادف أشخاصا عدوانيين، شرعت إيابي في الغناء. بعد لحظة من الصمت، قالت إن العالم انقسم إلى أربعة أجزاء: ديكوما، موطن نيامبي، سكديبينغا، حيث يقيم مالوبا، والقتلى الشرفاء، وووز، حيث يعيش البشر، سيسي، الذي تعبره الشمس خلال الليل قبل ظهوره في الفجر، هو موطن الأجداد والعباقرة الأجلاء.

كانت إيابي تكلم نفسها، قبل كل شيء، لم تكن كلماتها منظمة كما هو معتاد، فقد ضاعت في الاستطرادات، ولم تعد متأكدة إذا كانت العناصر الأربعة قد ولدت من زواج إيباس وبوسا، أو بالأحرى إذا كانت قد ولدت بواسطة نتيندي وندانجا - ديبالا. ضحكت بعصبية، وأصغت السمع عندما شعرت أنها تسمع ضجيجا، تباطأت وتظاهرت بالتوقف، بدا لها هذا التصرف فجأة أخرق، ليس لامرأة ما تفعله على الطرقات، وإذا حدث أي شيء لها، لا أحد سيعلم. جذب الطفل يدها، وحثها على مواصلة السير، نظرت إليه دون أن تدري كيف ستتصرف، تفادت طوال الرحلة لقاءات سيئة، مع البشر الأشرار أو الحيوانات الجائعة، كما أن الطعام توفر دائما، وأيضا أماكن الإيواء ليلا، حتى وإن اضطرا للنوم تحت شجرة، والتخلي عن العثور على أرض الماء، كانت تخاطر بالإساءة إلى الخفي الذي كان يحميها.

تعلم إيابي هذا، لكنها لم تعد تستطيع مواصلة المسير وهي تلتفت دون توقف إلى الوراء، متحدثة إلى نفسها: وبلاد الماء، هذا البحر الذي حدثوني عنه، هل ينتمي إلى ووز أم سيسي؟ لم يرد اسمه في كلام الأجداد،

وفجأة شعرت بالذعر، فوضعت يديها فوق رأسها، متسائلة لماذا قبلت الداية أن تحمي هروبها، ولماذا لم تمنعها؟

من البداية، اتهموها في القرية، بسلوكها غير الأنثوي، هل تريد إيبيزي التخلص من امرأة مزعجة في مجتمع أصابته الفاجعة؟ هل نُفيت دون أن يخبرها أحد؟ هل قُدمت قربانا للخفيّ على أمل أن يعيد الانسجام إلى القرية؟

لمس من قال إن اسمه بانا بأطراف أصابعه الكيس الجلدي المشدود على وسطها والذي يحتوي إناء التراب، وضرب جانب إيابي الأيسر. كانت ملامح الطفل تحمل، في هذه اللحظة، النضج والجسامة، بما لم يكن تناسب عمره. أدركت المرأة أنه لم يتبعها بالمصادفة، ربما كان ينتظرها هناك في البيبابيدي، فلزمت الصمت، هو من تكلم: إنيي، قال، نحن على وشك الوصول، ليست متأكدة أن الطفل من قال هذه العبارة، لكنها سمعت بوضوح، أنه أراد أن يقول إن هذا الاسم لا يناسبه، لأنه كان لنيامبي وفي صورته الأنثوية، إن إنيي هي حارسة العلاقات السريّة التي توحّد عناصر الطبيعة غالبا، إنها المصدر الأنثوي، للقوة التي تتجسد في فترة الحمل ومعرفة ما يجب أن يحدث.

كانت إيابي تود إذن أن تستاء بتواضع، وأن ترفض أن تصبح، بطريقة ما، الرحم الأسمى، ومع ذلك، فقد فات الأوان لمعارضة المصير الذي اختارته بنفسها، سواء كان ذلك منفى أم لا. كانت ترغب في مغادرة أراضي قبيلتها، لذلك كانت دوافعها أقوى من أي خوف، حينئذ، تهيأ لها أنها سترتكب خطأ إذا لم تستجب لنداء ابنها البكر، فأخذت على عاتقها مسؤولية التصرف نيابة عن جميع أولئك اللواتي لم يتم العثور على أبنائهن، وكل أولئك اللواتي رأين، في أحلامهن، ظلّا يحثهن على فتح الباب. تذكرت المرأة الأمطار أيضا، عندما دفن موتيمبو تحت الأرض، كانت العاصفة

رهيبة لدرجة أنها اعتقدت أنها لن تتمكن أبدا من الخروج من بيبابييدي.

عندما غادرت سريرها كان نهر كوا قد اجتاح أراضي القرية المحاصرة في مساكنها الموضوعة فوق ركائز متينة، كان عليها أن تستعمل طاقتها كلها في الإقناع ليقتنع الرجال بمرافقتها على طول النهر، بعد فترة من الهدوء المؤقت، وعندما تركوها على اليابسة هي وبانا، بدأت الأمطار مرة أخرى. والغريب في الأمر أن الطوفان بدا وكأنه يسير خلفها، وتسقط أمطاره على بعد خطوات قليلة منهما، موشكة على ملامس كعبيهما. في خضم هذه العاصفة، قصف البرق، قاسما شجرة إلى نصفين، كانت تنمو في مكان قريب، في ذلك اليوم، كانا يسيران منذ الفجر إلى الغسق، وبأقصى سرعة، دون أن يأخذوا الوقت لتناول الطعام، أو الشراب.

ثم، جاء الليل، فاندسا داخل كوخ مؤقت، عبارة عن ملجأ بدائي، ربما كان مأوى للصيد، هناك، ضمّ بعضهما بعضا، وانتظرا عدة أيام لتتوقف الأمطار، وخوفا من رؤية صاحب الكوخ في أي لحظة، لكن هذا الأخير لم يحضر مطلقا. أنت على حق، قالت، وعيناها تنظران بإمعان في عيني بانا، سنصل. ولم تسأله عن السرعة التي استوعب بها دروسه في لغة آل المولونغو، لم تسأله إذا كان يقصد إينا بدلا من إيني، الأولى بمثابة لوبا أنثوي أخبرته قصتها، وليس الرحم الأصلي، بل هي أم الأمهات جميعها، لم يعد الوقت مناسبا للتساؤلات.

وصلا بالفعل، ما داما هنا، في هذه اللحظة، لم تكن لتظن أن هذا ممكن، شاعرة بالسعادة لأنهما تمكنا من تجسيد كلمات موتيمبو. عندما عبرت هي وبانا مشارف هذا البلد، فوجئا أن مدخلها غير محروس وحيث كانت تتوقع أن تجد مدينة مهمة مثل بيكومبو، عاصمة آل البويلي التي سمعت عنها كثيرا، شاهدت أمامها قرية واحدة عادية، لا توجد علامة على الرفاهية، ولا روعة في البناء تماثل تلك التي تحدث عنها أولئك الذين

زاروا بلاد آل البويلي. في البداية، توقفت هي وبانا لرؤية ما كان يحدث أمامهما، بعد ذلك، وبحذر تقدما خطوات قليلة، لاحظا أنهم لم يولوهما أي اهتمام، كان الأهالي مشغولين بالجري هنا وهناك، ببساطة لم يكن السكان يرونهما، كان الجمع الأكبر من السكان يقصدون الاتجاه نفسه.

دون التفكير في أن طريقة تصفيف شعرها أو خطوط الوشم المرتسم على جذعها سوف يشيران إلى كونها غريبة، اعتقدت إيابي أن الحشد سوف يحميها، وهكذا سيكون لديها الوقت لإعداد خطة. إذن، توضح هي، لقد جرينا مثل الجميع، وبهذه الطريقة وصلنا إلى هنا حيث وجدتنا.

كانت الساكنة قد اجتمعت، حسب ما فهمت، من أجل مراسم دفن أحد الوجهاء، الذي يدعى إيتابا، كان رجال من أصحاب أقدام الدجاج حاضرين، بوجوههم الصارمة، يبدو أنهم يعانون من الحرارة الرطبة، لا يمكن أن يكونوا إلا هم، وفقا لوصف موتيمبو، حتى وإن لم ترهم أبدا. كانت لديهم أرجل، وملابس مضحكة، وكان هناك وجهاء أجانب آخرون أيضا، يجلسون على مقاعد وضعت رهن إشارتهم، فوق رؤوسهم زهور غريبة من القماش اللامع، التي يمسكها خدمهم بعصي خشبية، ليبقوهم في الظل.

كان من بين هؤلاء الضيوف رفيعي المستوى، أو بالأحرى، إلى جانبهم، حينما تعرفت عليه، عندما رفعت يدها إلى فمها لتمنع صرخة أمام العرض الذي يجري أمامها، لفت وجهٌ انتباهها. كنت أريد أن أمنع نفسي من الصراخ عندما رأيت زوجات الرجل المتوفى يهرعن إلى قعر الحفرة لتلقي الجثمان، هذا هو المكان الذي رأيت فيه موتانغو، كادت ألا تتعرف عليه، لفرط هزاله، كان يروّح عن امرأة الجو بمروحته، تبدو نبيلة وهي تجلس بين الوجهاء الأجانب، الرجل الذي يصغي إليها، قال: إنها الأميرة نجولي من آل البويلي، وهي أخت الملكة نجانجو، حسب ما فهمته فإن

موتانغو هو الآن في خدمتها، لا أعرف كيف حدث هذا الأمر، تستطرد إيابي، اختفى موتانغو في اليوم الذي غشي مويتيتي الكوخ الجماعي.

في المرة الأخيرة التي رأته فيها، قبل أن تراه هنا، كان يقف أمام المسكن حيث تم تجميع عشر نساء من آل المولنغو، بعد ذلك لا تستطيع أن تقول ما حدث، وكيف يمكن للوجيه المحترم، الذي كان مهابا في قريتها، أن يصبح خادما لطيفا لأميرة من آل البويلي، سيكون من الضروري أن تستوضح الأمر، لكن هذا الأمر لا يشغل بالها في الوقت الحالي. نام بانا، أراح رأسه فوق ركبتي التي يسميها إيني. تنظر المرأة إلى محاورها، إنه يعرف ما الذي تريد أن تسأل عنه، فيبادر بهدوء قائلا: سنتحدث غدا، حاولي أن تنامي الليلة. في الوقت الحالي، لا يشعر بأنه قادر على سرد هذه الحكاية، يعتقد أنها دفنت في ذاكرته إلى الأبد، دون أدنى إمكانية لتدوينها في ذاكرة شعبه، أمسكت المرأة يده وقالت له على الأقل ما هذه البلاد؟ هل بلاد الماء التي من أجلها شدت الرحال؟ ومن هؤلاء الأشخاص حليقو الرؤوس الذين صادفتهم؟ هزّ الرجل كتفيه، وأجاب ببساطة: أنا مثل الناس جميعا، نحن الذين لم يجرفهم الماء، أولئك الذين انتزعت منهم الأرض كل شيء، سرقت منا الطريق التي كانت ستسمح لنا بالعودة إلى بلادنا، لقد انتزعوا منا أسماءنا، على العكس من شعب البيبابيدي الذي حدثِتني عنه، لم نتمكن من الهروب وبناء حياة جديدة في مكان ما.. يصمت ويخفض بصره في اتجاه وجه بانا الذي ينام وفمه مفتوح، متخليا عنه، لولا اختياره لأم جديدة. تفحص الرجل وجه الطفل لفترة طويلة، فشعر برعشة تستبد به، عندما واصل كلامه: كما ترين، هذا البلد ينتمي إلى ووز، غير أن الأرض تنتهي هنا، وأبعد من ذلك، لا يوجد سوى الماء، إذا كان المكان الذي تبحثين عنه هو حدود عالمنا، فقد وصلت إلى وجهتك، أيتها الأم.. ارتاحي الآن، وضمي إليك بانا، سأتحدث معك غدا.

كانت المرأة مرهقة جدا لكي تعترض، نظرت بلطف إلى الذي أصبح رجلا في وقت قصير.

تفرش إيابي فوق الأرض قطعة قماش بالية وتتمدد جاذبة إليها جسم بانا الهش، وبعد ذلك تغمض عينيها، داهمتها الوقائع الأخيرة من مغامرتها لتعكر صفو بداية نعاسها، كانت تراها من زوايا مختلفة، كما لو أن روحها تحوم فوق الحشود، تتجلى التفاصيل واضحة، إنه موتانغو فعلا ممسكا بكلتا يديه ورقة عريضة من شجر الديكوب التي يستعملها للترويح عن امرأة تتجاهله تماما. إنه هو، حليق الجمجمة الآن، ولا تزال علاماته الطقسية تدل على رتبته، لكن سوارا معدنيا يحيط بالكاحل الأيمن، للدلالة على أنه لم يعد ملكا لنفسه، تدرك إيابي ذلك لأن بعض سكان بيباييدي كانوا يحملونها إلى أن نزعها الحداد من أقدامهم.

يرتدي الرجل ديباتو بسيطا من اللحاء المدقوق، أزيلت تمائم الحماية عن صدره، عندما تضعف ذراعاه، تحدجه الأميرة نجولي بنظرة باردة، تعيد إليه حيويته، إنه خائف منها، هذا ظاهر للعيان، هذه المرأة ترعبه، كيف أمكن حدوث هذا الأمر؟ وجهت إليه سيدته بضع كلمات، فردّ عليها بإيماءات إذعان تام. عندما ترشق قدمه بسهم، بلا ريب، كي يستعيد طاقته، يفتح فمه بالكامل ويقاوم كي يبقي داخل جوفه صرخة يريد إطلاقها. ترى إيابي أن ما بين أسنانه لسانه المقطوع الذي بقي منه قطعة صغيرة جدا، تجفل إيابي وتشيح ببصرها بعيدا.

توجد قريبا جدا امرأة محاطة بعدد كبير من الحراس، ربما هي الملكة نجانجو، يحجب غطاء رأسها جيدا شعرها وصدغيها وذقنها، بحيث لا يمكن رؤية وجهها إلا من جوانبه فقط، مثل أختها، فإنها تبقي عينيها ثابتة إلى الأمام، حيث تجري الطقوس. يخاطب رجل رفيع المستوى

الحشد متحدثا عن المتوفى، الذي وضع جثمانه فوق مقعد طويل، ولف بقماش سميك، يسمي الخطيب زوجات المتوفى ويستظهر نسبهن، تقترب الزوجات من الحشود التي تناديهن بحماس ثم يشرعن في الغناء، تصطف النساء أمام الحفرة التي سيوارى فيها الجثمان. على جانبهن الأيمن، يقف رجل صنديد وبعد بضع كلمات من الخطيب، يتقدم ويقف خلف المرأة الأولى يرفعها من الأرض ويلقيها داخل القبر، حركاته متقنة جدا، سيكررها مع زوجات الميت كلهن، لم تحاول أية واحدة الهرب، تطلق بعضهن صرخة مدوية عندما يرتطمن بالقاع، لكن إحداهن أظهرت تمنعا. فهمت إيابي عندما رأت الأميرة نجولي تنهض أن الأمر يتعلق بامرأة من آل البويلي قدمت زوجة إلى إيتابا. تأمرها نجولي بالهدوء مذكرة إياها أن من عادة الساحليين أن الزوجة ملك للزوج، يجب أن تخضع لعادات قبيلته احتراما للتحالف، ولن تسامح على تصرفها الذي أهان الشعب الذي عاشت بينه، لا تفهم إيابي لغة نجولي، لكن يكفي أن تكون منتبها للمشهد كي تعرف ما يجري، عندما وضعت سهمها في القوس وجهزته للرماية أدرك الجمهور قصدها، سقطت الأرملة على ركبتيها وهي تجهش بالبكاء مستجدية. وجهت نجولي تحذيرها الأخير، وقفت الزوجة المتمردة متحدية الرامية بنظرتها، متخلصة ببطء من غطاء رأسها وحليّها وملابسها، وما إن أصبحت مكشوفة حتى استدارت وظهرها في اتجاه نجولي مجبرة وجهاء آل البويلي على النظر إلى جسدها من الخلف. تعتبر هذه الحركة عند آل المولونغو واحدة من أسوأ الإهانات، فهي تستدعي اللعنة. على ما يبدو، هذا هو الحال هنا أيضا. منذ هذا الاجتماع، يسمع صوت هدير، قوي لدرجة أنه يعتقد أنه صادر من أعماق الأرض.

ترتجف إيابي، متسائلة عما إذا كان أطفال الأرامل القرابين يحضرون

هذه الوقائع، إن مشهد أولئك الذين ينتظرون دورهم لا يطاق، تفقد الزوجة السابعة الوعي، وتنهار داخل الحفرة، دون مساعدة من أي شخص، من دون أن يرفّ له جفن، ينتقل العملاق إلى التالية، في هذه اللحظة وضعت إيابي يدها على فمها لتحبس صرخة، عندها اقترب منها شخص من الخلف، وغطى كتفيها بقماش ملون مثل الذي يرتديه الناس هنا، أمسك ذراعيها بإحكام لمنع أية حركات مضطربة، وقام بسحبها بلطف، وهو يهمس: أماه، لا تتحركي، لا تنظري خلفك، أحضري الطفل معك، واخرجي من الحشد، سأكون خلف البوما.

كم من الوقت تحتاج لتتأكد من أنه حدّثها بلغتها؟ أمسكت بانا من يده، وخضعت وهي ترتجف، وتبحث بعينيها عن البوما. تجمّدت عند رؤيتها الطفل مرة أخرى، من يحثها على المضي قدما، التفّا حول الجذع الضخم للشجرة، الرجل هناك، وحده، رأسه حليق، سوار معدني حول الكاحل الأيمن، لم يعانقها، ولم يبتسم لها، ولم يسألها عما تفعله هناك، وكيف عثرت على الطريق. بنظرة منطفئة، حدق في بانا، بقي الثلاثة صامتين للحظة، ثم أخذ مبادرة الكلام، وعيناه دائما على الطفل: أماه، اسمحي لي ألا أرحب بك.. اتبعاني معا، أنتما لستما في مكان آمن. لم تحضر إيابي نهاية الدفن، لقد رأت ما يكفي.

ملأ غناء الجمهور الحاضر الفضاء مختلطا بجموح الطبول، ابتعدت المرأة والطفل دون أن يلفتا الأنظار.

تحدق إيابي في ظهر دليلهما، لم تخاطبه بأية كلمة، منتظرة، من أجل ذلك، حتى تتأكد من أنه الشخص الذي تعتقد أنها تعرفت عليه، يسير بشكل عادي رغم السوار الذي يحمله في الكاحل، تفكر أن هذا الشيء لا يعيق تحركاته، فهو بالكاد يبطئ وتيرة خطواته، لماذا لا يهرب؟ لاحظت ذلك جيدا، عندما دخلت معبر القرية، الذي لم يكن محروسا، ليس اليوم،

على أي حال، إذا انسل إلى الخارج، فلن يلاحظه أحد، قد يكون هذا الرجل من آل البويلي، هذه السلالة يجب الحذر منها، بعد ما علمته عنهم من موتيمبو، يعرف بعض من آل البويلي لغة آل المولونغو، بلا شك، للإعداد لهجومهم الليلي، يأخذون وقتهم الكافي لمراقبة عادات ضحاياهم، ربما رآها هذا الشخص، عدة مرات، عندما كانت تذهب إلى النبع مع النساء الأخريات، تفكر إيابي في هذا كله، ولكنها تتبعه على الرغم من كل شيء.

يعبرون جزءا من القرية، ويبتعدون عن المكان الذي تقام فيه الجنازة، ومن مخرج القرية. إذا نصب لها فخ، فلن تفلت منه. تضغط المرأة على يد بانا بقوة، يمشون دون الاقتراب من الأكواخ، على طول طريق ملتف عمدا، تبدو المساكن المهجورة مثل منازل آل المولونجو، الشيء الوحيد المفتقد هي الطواطم العائلية التي توضع بالقرب من مدخل الأبواب، وأواني النساء اللائي تعد وجبة اليوم، أمام أحد المنازل تجلس عجوز، عندما رأتهم يمرون، همهمت بشيء غير مسموع، وأرسلت بصقة كبيرة في اتجاههم، البصاق البلغمي تحطم على الأرض، كاد يصيب المارين.

تشيح إيابي ببصرها بعيدا، تشد جانبي القماش الذي يغطي كتفيها، قريبا، سيصلون إلى حي منفصل عن بقية المباني، هناك، يبدو أن المنازل، وعددها أقل، قد بنيت كلها بشكل سريع، باستثناء منشأة لم يسبق أن رأت مثيلا لها مطلقا، يكاد يكون طويلا مثل بوما شابة، ذات جدران بيضاء تبدو وكأنها منحوتة في الصخر. تتوقف إيابي، شيء ما يزعجها، هذا المبنى يخيفها، الشيء الوحيد الذي ميزته هي قضبان الأبواب، لم تكن المرأة تعلم أن مثل هذا المبنى يمكن أن يكون موجودا.

التفّت نحو دليلها، وبيده أشار لها كي تسرع، يوجد المبنى الذي قادهما إليه بجوار الحيطان العالية، حولها وفي هذا الحيز من القرية هناك عشرات الأشخاص الذين لم يحضروا مراسم الجنازة، وضعت حول

سيقانهم جميعهم خلاخيل، وحتى الأطفال أيضا، حليقو الرؤوس كلهم. بالنسبة لإيابي هذا المشهد يشبه مجموعة من الأشخاص في حالة حداد.

لا تجرؤ إيابي على التفكير أن اختفاءها الشخصي هو الذي يثقل كاهلها، وأن كل فرد ولد من بطن امرأة، وأن كل واحد حمل اسما بحسب ارتباطه بنسبه، وأن لكل فرد مكانته بين شعبه، كما أن كل واحد منهم مؤتمن على تقاليده، هل ما زالوا يعرفون ذلك؟ منذ متى وهم هنا؟ العاطفة قوية جدا كي تفيض، مكثت إيابي جامدة دون أن تنبس بكلمة واحدة، تذكرت كلمات موتيمبو، تعتقد أنها تفهم ما يدور حولها، هذا بديهي، ومع ذلك، فأمام إصرارها للعثور على أرض الماء للقيام بعمل مقدس، لم تتخيل أنها ستقف في مواجهة هذه الوجوه، بطريقة أو بأخرى، نسيت أن الظل قد استولى سلفا على العالم.

سمع صوت الماء، تفكر في أنه نهر، مثل النهر الذي يمر بالقرب من بيباييدي، تعرف الرائحة التي أزعجتها منذ أن وصلت إلى هذا المكان: إنها نتانة السمك، تشعر بالغثيان، يرجع الرجل إلى الوراء، ويقف أمامها: أماه، قال، لنذهب، اتبعيني حيث أقيم، إنه ليس بعيدا. هذه المرة، تمعنت في وجهه، تاركة عينيها تنزلقان نحو صدره، تأملت أخاديد الخدوش على صدره، تشبه تلك التي نجدها لدى الشبان المتعلمين من آل المولونغو، أما التي توجد فوق الصدغين فهي تحدد نسبه، وهذا الوجه، إنه يشبه كثيرا أمه.. لم تكن مخطئة، لماذا هذا البرود؟ يمنع تصرف الرجل فيضا عاطفيا، تريد أن تصيح وأن تقبّله كما ستفعل التي أنجبته. يسير مرة أخرى أمامها، ولا يمكنها إلا أن تقتفي خطواته.

تسمع المرأة خرير الماء حاضرا بقوة شيئا فشيئا، ينبعث أنين من المبنى الصخري الذي يتجاوزونه قبل الدخول إلى كوخ متداع مثل الأكواخ الأخرى، في الداخل، لا يوجد شيء سوى الأرض العارية، الجدران المصنوعة

من الأغصان التي جُمّعت بشكل سيئ، هذا هو المكان الذي يقيم فيه وحيدا، لا أحد يريد أن يشاركه هذا المكان، إنهم يخشونه، لأنه لا يتكلم أبدا، هذا يلائمه، فهو لا يرغب بأي نوع من الرفقة. يا بنيّ، قالت إيابي، لن نزعجك طويلا. يطأطئ الرجل رأسه: هذا ليس ما قصدته.. إذا كنت لا أستطيع الاحتفال بقدومك هنا، فسأبذل قصارى جهدي لجعل إقامتك محتملة، والآن بعد أن أصبحت بعيدة عن الأنظار، هل يمكنك أن تشرحي لي كيف يمكن لامرأة أن تعثر على حدود العالم؟ تعرف سمعتها، لكن الطريق طويل، من بلادها. تمنحه إيابي ابتسامة حزينة: سأخبرك بالطبع، لكن في هذه اللحظة، هل يمكنك أن تجد لنا شيئا نأكله؟ لقد تركت سلة طعامي في الغابة قبل دخول هذه القرية.

لم يأكل الطفل مذاك.. يقاطعها الرجل: أماه، هذا مفرد بصيغة الجمع، أنت تعلمين ذلك جيدا. هذه الكلمات الأخيرة التي فتحت المجال أمام إيابي، للدخول إلى النوم الثاني، الأشد عمقا، كما لو أنها تغوص في ذلك، إنها ليست صور اليوم الماضي التي وردت إليها، ولكنها الأسئلة التي بقيت دون أجوبة، أين الماء الذي سمعت رقرقته؟ من يعيش في هذا المبنى الأبيض؟ لماذا تبدو الرؤوس الحليقة راضية بمصيرها؟ لماذا مضيفها هنا يعيش وحده؟ ما السبب الذي جعله يقول إن بانا كان جمعا؟ هل ستكون لديها القوة لإعادة المسار في الاتجاه المعاكس؟ ما الذي يحدث في القرية؟ هل يريد الرجل العودة إلى البلاد رفقتها؟

كانت ليلتها مضطربة، إنها تكافح مثل حشرة علقت في نسيج العنكبوت، هناك العديد من المحن لم تأت بعد، إنها تعرف ذلك، إذا اكتشف وجودها، فقد يحلقون جمجمتها، وسيضعون القيد في كاحلها، سوف تعرف بعد ذلك ما يقيد الأسرى في هذا المكان، وما يمنعهم من الانطلاق على الطرقات، كي يستعيدوا ذواتهم وحريتهم. اختلطت رقرقة

الماء بسيل الأسئلة، وأضيفت إليها صيحات المبنى الصخري. استراحة إيابي ليست سوى زلزال طويل.

* * *

في بلاد آل المولونغو جفت الأرض، لكن الحياة لم تأخذ مسارها المعتاد، لم يتوصل الشيوخ خلال اجتماعهم في كوخ الاجتماعات إلى تفاهم، لم يتفقوا إلا حول موضوع واحد: سيبقى موكانو زعيم القرية، لكن غيابه طال كثيرا، ويجب تعويضه، من سيكون الخلَف؟ هذا هو المشكل الحقيقي، مادام موتانغو قد اختفى، فإن أنصاره لن يستطيعوا اقتراح اسمه، بطبيعة الحال، للزعيم أبناء، لكن أكبرهم لم يبلغ بعد سن الرشد، ولم يختّن بعد، وإذا عهدت إليه هذه المهمة، فسيكون ذلك خطأ، حتى وإن ساعده أعضاء المجلس، وأما بخصوص موتانغو، فإن سلالته هي أكثر عددا من أخيه، لكنه لم ينجب غير البنات، لو أنه كان ملكا على القبيلة، فإن أحد أحفاده من سيخلفه في الحكم فقط، لكن بشرط أن يكون قد تلقى التعاليم وخضع لطقس الختان، لكن هذا مازال مستبعدا، لأن الأحفاد مازالوا في مرحلة الرضاعة.

كان الشيوخ يجلسون هناك منذ الفجر، والآن الشمس تتهيأ لمغادرة السماء، لتقوم برحلتها صوب العالم السفلي، لم تعد معدتهم قادرة على القرقرة، لشدة الجوع المستبد بهم، إنها ليست نيي التي يتقاسمونها في هذه القاعة التي من شأنها إرضاؤهم، ولأنهم إلى الآن لم يجدوا حلا، فقد أجبروا على المجادلة حتى حلّ الليل، يكفي القول إنه ليس من المؤكد أن يجدوا وجبة ساخنة تنتظرهم كلهم، لم تعد النساء تقبل السهر إلى وقت متأخر، خصوصا عندما يتعلق الأمر بإطعام أزواجهن، كل شيء يسير بشكل سيئ منذ أن غادر موكانو، لقد حلت الفوضى.

في وقت سابق من اليوم، أدلى أحدهم بهذه التصريحات، مما أكسبه

غضب أقرانه: سنحتاج إلى سماع إيبيزي، في لحظة كهذه، هل يمكنني مناداتها؟ ونتج عن ذلك ثرثرة مزعجة، اختارت الداية الانسحاب من شؤون القرية. ولأول مرة تتخذ قرارا معقولا، لا يمكن بأي طريقة عدم احترامها، مرة أخرى يستعد صاحب الاقتراح السابق للتحدث، عادة، هي ليست واحدا من أولئك الذين يريدون الظهور في هذا المجلس، رغما عنها تقبع هناك، فقط بسبب شيخوختها، وحتى الآن، أظهرت إخلاصا كاملا لموكانو، وليس هذا الظرف الاستثنائي ما سيجعلها تنحرف عن ولائها.

يتنحنح معبرا عن رغبته بالحديث، عندما توجهت إليه النظرات، تناول آنية الكالاباش حيث يوجد النياي وتمهل قليلا قبل أن يمدها لكل واحد منهم، كان آخر من يتناول حصته، عض جوزة، ومضغ بصعوبة لأنه لم يعد يملك أسنانه كلها، عندما أنهى، زفر. تعد أدنى حركة تصدر عنه عملا شجاعا، لرجل في عمره. يشعر العجوز بتنامي التوتر بين أعضاء المجلس، يعرف أن أي أمر لرفاقه، سيوافق عليه بصعوبة: مولونغو، ماذا تنتظر كي تتكلم؟ هيا يا مولونغو، ليس كما لو كان لديك أي شيء مثير للاهتمام، نعم، يعرف بما يفكرون به، ومع ذلك، فإن قواعد الحياة الجماعية دقيقة. عند آل المولونغو، ليس فقط يجب أن يستمع إليه الحكماء الآخرون باهتمام كبير، ولكن إذا لم يشاطروه رأيه، فهم مجبرون على تقديم حجج سليمة ضده. عندئذ، يقرر أعضاء المجلس، كل بحسب دوره، إن كانوا يساندون اقتراحه أو يعارضونه. كان صوت العجوز واضحا عندما بدأ الكلام: نحن أمام طريق مسدود، أبو موكانو وموتانغو لم ينجب إلا ابنين، أما بقية أبنائه فمن البنات، بعضهن أنجبن ذكورا، هذا صحيح، لكنهن كلهن متزوجات وخاضعات لسلطة أزواجهن، وإذا ذهبنا إليهن لنعلن لهن أن أحد أبنائهن يجب أن يدخل إلى الزعامة، فكيف سيتصرف الأب؟ لن يكون مرتاحا حينما سيضطر فجأة إلى طاعة ابنه حتى ولو

لفترة مؤقتة، وهذا الرجل الذي ستعهد إليه مؤقتا عصا الحكم، هل سيتخلى عن كرسي الزعامة بعدما يجلس عليه؟ ثم كيف سنمنعه من أن يمتلك نساء إلجانيا؟ لن يكون الأمر هيّنا. أقول لكم هذا، يا إخواني، ليس أمامنا خيار كبير إذا كنا نريد الحفاظ على بلدنا، لقد كابدت القبيلة محنا شديدة، إن القرار الذي سنتخذه سيكون غير معتاد، إنه أمر مؤكد، لكي يتفهمه السكان، يجب أن نتبع منطقا معينا، هذا هو السبب في أنني أعتقد، نظرا للوضع الذي نعرفه جميعا والذي لم يكن أحد منا يتخيل حدوثه، أن هناك حلا واحدا فقط، للخروج من هذه الصعوبة: الزعيم المؤقت يجب أن يكون الابنة الكبرى لموكانو، زوجها لن يشعر بالإهانة، عندما يعود والدها، سوف يقيلها دون ضرر، وإذا لم يعد إلى القرية، فإن السلطة ستذهب إلى الابن الأكبر لزعيمنا الذي سيكون على استعداد لممارسة الحكم، قاطعا الطريق على الاحتجاجات. ينهي العجوز كلامه قائلا: تذكروا أن هذه القبيلة أسستها امرأة، ولن يكون تصرفنا متناقضا مع تاريخ شعبنا.

حل الصمت فوق كوخ المجلس ساحقا بشدة مثل جذع كوانغ بونغ، معظم الذين يوجدون هناك غير راضين بالولاء لامرأة، ويطالبون بأن يفعل ذكور القرية الشيء نفسه، حتى لو كان تدبيرا استثنائيا. لم يعرف الجيل الحالي من آل المولونغو زمن الملكة إيميني، التي كانت بالإضافة إلى ذلك، تسكنها روح ذكورية، وإلا لما كانت لتعرف مثل هذا المصير، فالأحكام المقترحة عليها غير مقبولة، مما يشكك في أداء المجتمع بأكمله. الحكماء لا يفضلون ذلك، فظلوا صامتين جميعهم، يبحثون عن حجج أكثر مصداقية من مجرد الخوف من فقدان امتيازاتهم الذكورية، دون التشاور بعضهم مع بعض، قرروا تأجيل المناقشة حتى اليوم التالي، فقد أصبح الوقت متأخرا.

صفق مولونغو، بيديه، ليؤجل الاجتماع، وقال: إخواني، سنستأنف غدا، ليس من الجيد أن يرتاب الناس في الصعوبة التي وجدناها لحل هذه المشكلة، لنعد إلى عائلاتنا، والأهم من ذلك، أنا أرجوكم، ألا تكلموا زوجاتكم بهذا الشأن، ولا أنصحكم بقضاء الليلة بصحبتهن. أومأ أعضاء المجلس موافقين، وفي داخلهم هم غاضبون لأنهم أجبروا هكذا بأن يُدفَعوا إلى تحصيناتهم الأخيرة. بعد كل شيء، من الطبيعي أن يحاولوا المحافظة على امتيازاتهم، إذا كان مولونغو لا يهتم، فذلك لأنه بالفعل قد وضع قدما داخل القبر. الألقاب، ملذات هذا العالم، لا تعنيه كثيرا.

بأسرع مما يتطلبه الأمر، يغادرون المكان، يصدمون رؤوسهم بالسقف المنخفض للكوخ، يخدشون أذرعهم بالجدران على طول الباب الضيق، وعند رؤية وجوههم، قد يعتقد المرء أنهم تلقوا للتو ضربة بمدقة على رؤوسهم. أشعلت نار في ساحة القرية، لكنهم لم يعتادوا كثيرا على الظلمة الصاعدة، أغمضوا جفونهم، وفركوا عيونهم، ومططوا أجسامهم المتصلبة، تباطؤوا بالقرب من كوخ المجلس، لأخذ الوقت المناسب للتمييز بشكل أفضل ما يتحرك هناك، على بعد بضع خطوات، تائهين بين مناقشاتهم.

لهذا فهم لا يعرفون أن الرجال المكلفين حراسة مدخل البلاد قد أسقطوا مغشيا عليهم. بالكاد تمكن شيوخ القبيلة من إدراك أن الظلال التي تتجه نحوهم هي لصيادي آل البويلي، يقودهم شخص قصير، يرتدي جلود الحيوانات، وبحركة سريعة من يده، يأمر هذا الأخير رجاله بالانتشار في القرية بصمت. مكث البعض منهم إلى جانبه، وبلغة آل المولونغو خاطب الشيوخ الذين لم تتح لهم الفرصة لاتخاذ أي نوع من التدابير، وقال: لن يصيبكم شرّ، إذا بقيتم هادئين، فسيكون كل شيء على ما يرام، حينئذ قيّدهم الجنود، وكمموهم، وأعلن القصير: هؤلاء لا قيمة لهم، سنتركهم هنا.

هذه المرة لم يلجأ آل البويلي للحريق، بل جاؤوا بعدد وافر كي ينفذوا مشروعا اختمر في أذهانهم منذ زمن طويل. لا شيء ترك للمصادفة، وبدلا من ضم إقليم المولونغو لحصيلة الأسرى، اختارت الملكة نجانجو، التي نصحت بهذا الشأن، أن يعتمد حل آخر، إنها الأمطار الأخيرة التي أقنعتها، خلال الطوفان الذي استمر لمدة تزيد على أسبوع، اعتقدت صاحبة الجلالة لدى آل البويلي أنه من العبث فرض الهيمنة على منطقة لا يمكن الوصول إليها خلال مواسم الأمطار، ولأنها غير راغبة في التخلي عما يمكن أن تستفيده من هذا الشعب، فقد اختارت ببساطة أن تنقله، هذه الليلة بحيث تكف قبيلة المولونغو عن الوجود.

لا يعرف محاربو آل المولونغو شيئا عن المعركة حتى الموت، التي يمارسها آل البويلي، فكانت نهاية الأكثر جسارة الموت، أما الآخرون فقد استسلموا، دون أن يتأكدوا من أن ذلك أفضل، يستسلمون لأن البشر غير مسموح لهم بتعريض أنفسهم للموت. تنبعث صرخات هنا وهناك، وتقذف شتائم ولعنات، وترمى قدور من الزيت الساخن مباشرة صوب الوجوه، وترسل مدقات نحو الأجزاء الحميمية. كانت أسلحة المقاومة بلا جدوى، لن يفوزوا هذه الليلة، نعرف الآن مصدر الحريق الكبير، من أجل الإعلان في هذه الليلة، عن اختفاء العالم المعروف، حاصر الظل كوخ النساء اللواتي لم يشاهدن أبناءهن مرة أخرى، لكن هذا الأمر لم يدركه، ساعتها، أحد.

كان الجميع يبحثون عن مذنب، فبالنسبة للبعض، هن النساء العشر، أولئك اللواتي لم يعدن ينتظرن أبناءهن، اللائي ما كان ينبغي أبدا السماح لهن بالعودة إلى حياتهن العادية بين أفراد القبيلة، هن على الأرجح المتواطئات مباشرة مع مهاجمي آل البويلي، وهذا يفسر غياب إيابي التي ذهبت لتحذير رفاقها، ولتخبرهم كيف يتصرفون. بالنسبة للآخرين، فإن

الزعيم موكانو هو المسؤول الوحيد، مهما كان الوضع، يجب ألا يتخلى عن شعبه، لأنه يجسد أولئك الذين سبقوه، أولئك الذين نحتت وجوههم فوق عصا الحكم، أولئك الذين احتفظ برفاتهم بعناية قصوى في صندوق داخل المزار المقدس. قرية محرومة من زعيمها تشبه دجاجة ذبحت للتو: من الجيد أن يتم نتفها، وهذا ما يجري حدوثه الآن.

في نظر بعض الشيوخ، هذه الحماقات التي عبّر عنها مولونغو، هي التي جلبت لهم الفاجعة، وبينما هم مربوطون، مكمّمون قبل رميهم بعضهم على بعض في أعماق كوخ المجلس، قالوا له: أترى نتيجة من يريد قلب الأشياء! هل تعرف، على الأقل، أي طاقات حركتها صوبنا؟ يدعم الرجل العجوز نظراتهم الساخطة، ويمد يديه لتقييد معصميه، فيجيب: على العكس تماما، لقد كنا بطيئين في إعادة الأمور إلى وضعها الصحيح، كان ينبغي الموافقة على رأي موكانو منذ البداية، لقد فهم أن أبناءنا قد تم اختطافهم، لو كانت ثقتنا قد رافقته، أثناء زيارته لملكة آل البويلي، لما تمكنت من خداعه أبدا.

لم يأت المعتدون للقيام بزيارة مجاملة، لقد فوضتهم نجانجو بعدما تمكنت من إبعاد الزعيم عن قبيلة آل المولونغو. ما كان يحاول مولونغو القيام به بكل تواضع هو الحفاظ على صورة موكانو ولو رمزيا، ولاختيار بديل عنه من نسب الزعيم الغائب كان يعني عدم الاعتراف بهذا الأخير، لكننا في المقابل لمناه على استقامته. تحملوا مسؤولياتكم ولو لمرة واحدة، الكمامة التي وضعت على فمه، أسكتته نهائيا.

سيموت حكماء آل المولونغو داخل كوخ المجلس، يعون ذلك جيدا، فقد تركهم، بالفعل، رجال آل البويلي، بعضهم لم يتمكنوا من فك وثاقهم. الآن من المستحيل بالنسبة لهم أن يتبادلوا كلمة واحدة أو نظرة، كل ما يمكن أن يفعلوه، سواء أحبوا ذلك أم لا، هو سماع الصيحات والغضب

لبعض الوقت، ثم الصمت المطبق، واستسلام الناجين، دون الرغبة الحقيقية في ذلك، سيتخيلون ما لا يرونه، السكان يتعثرون، يقادون في مجموعات صغيرة داخل الأدغال، سيقوم آل البويلي بإخلاء القرية، وفصل السكان، وإعداد قوافل مختلفة سترسل إلى نقاط مختلفة من أراضيهم، لا شك أنهم لن يعيدوا تشكيل قبيلة آل المولونغو، لن يخاطروا بإمكانية وقوع تمرد. هذه الليلة، سيأخذ الذكور، خاصة الأصغر سنا، الطريق الساحلي، أما النساء اللائي لم ينجبن بعد فسيلحقن بهم عند الفجر. سيشغلهم تشكيل المجموعات جزءا من الليل، ووقت الراحة ليس متاحا في الوقت الحالي.

كان بويمبا، الرجل الصغير الذي يشرف على العمليات، ينتقل من مكان إلى آخر، مع توزيع تعليماته، مشاعل تضيء في قلب الظلام، ومع ذلك، فهم لا يضيئون المكان كله، لقد أصبحت الليلة أكثر من لحظة، إنها الديمومة، والفضاء، ولون العصور القادمة. وصل إلى أمام رتل من رجال آل المولونغو الذي يقوده الصيادون، يومئ قائد آل البويلي في صمت، ثم هبّ من مكانه، كما لو أن نحلة لسعته: هل فكرنا في تدمير معبدهم المقدس؟ أنتما، يأمر جنديين، اذهبا وأضرما النار في الذخائر المقدسة ومكان الزعامة، تأكدا من عدم ترك أي شيء منها، لن يكون كوخ المجلس قريبا أكثر من مجرد قبر، ولا حاجة لكي تتباطؤوا.

انسحب من تلقّيا للتو الأمر من المجموعة، وأُعطيا مشعلين، لن يترددا أبدا أمام المكان الذي يحتفظ فيه بالمدخرات، لن يستغرق الأمر وقتا طويلا لإحراق روح وذاكرة شعب آل المولونغو.. سينتظران بدقة رؤية النيران وهي تلتهم الهيكل بأكمله، قبل أن يتسلقا التلة التي تنتصب فوقها منازل كبار الشخصيات في العشيرة. ليسا في عجلة من أمرهما، رفاقهما لن يتخلوا عنهما، لن يوجد أحد هنا بعد الآن،

ليس هناك ما يخشاه الرجال المسنون المحشورون في كوخ المجلس، سيسلّمون أنفاسهم عاجلا أم آجلا، مكممي الأفواه ومقيدي الأيدي والأقدام، سيستنذفون قواهم بسرعة أكبر إذا حاولوا تحرير أنفسهم.

وبينما يعبر جنود آل البويلي القرية، وهم يمسكون فروعا مشتعلة في أيديهم، وظلالهم تمتد على الأرض، فإنهم لم ينظروا إلى المنزل الذي بني على مسافة بعيدة، هناك، في عمق القرية، عندما طرد آل المولونغو من منازلهم، فهذا الكوخ، الكامن في زاوية كثيفة الأشجار على حافة أحد الحقول، لم يثر انتباههم، غير أن امرأتين توجدان داخله، إحداهما الأكبر سنا، ابتلعت ديكوتيون من النباتات ما جعلها تنام نوما عميقا، إنها متعبة جدا، لم تفتح عينيها منذ أن راودتها فكرة إعداد هذه الجرعة. لقد مرت عدة أيام منذ لم تغمض فيها عينيها، عدة أيام من الحزن الذي سحق قلبها، وأخيرا ها هي تنام نوما بلا أحلام. المرأة الأخرى محطمة في أعماقها، تنحدر إلى أعماق الهاوية الحميمة، تجلس في قلب الغرفة، مغمضة عينيها، تميل إلى الخلف تارة وإلى الأمام تارة أخرى، منشدة كلمات لا يسمعها غيرها: موكودي، ردّ عليّ، لا تسمعني؟ تناديك من أنجبتك في هذا العالم، يا موكودي، مو كو دييييي.. باسم إينا العظيم، باسم نيامبي، مو.. منذ أن استقرت في هذا الكوخ، انعزلت المرأة، وانقطعت عن كل شيء يعيش في الخارج، عندما رأت الداية قادمة، لم توجه إليها كلمة واحدة.

تضع يديها بإحكام فوق أذنيها، لتقطع باستمرار ضجيج العالم من حولها، لذلك لم تسمع الصرخات، صراخ المقاومة والركض، لهذا فهي تجهل مرور رجلين من رجال آل البويلي في هذه اللحظة، وكذلك النار التي تلتهم الزعامة، والتي نجت من الحريق الكبير. حلق إيبيزي جاف، ولكن هذا لا يهم، فكرها متوتر حيال ابنها البكر، يجب أن تتحدث إليه،

وتنطق اسمه، إذا كان ميتا، فستعرف ذلك، ستشعر به، نحن نشعر بهذه الأشياء، أيا موكودي، وا موكوداااه.. إني أنتظرك، لن أتحرك من هنا، لا تخش شيئا، سأكون هنا عندما تعود يا موكودي..

* * *

أعرف، يقول الرجل، أن مثل هذا الشيء ممنوع، لكن ما عشناه كان بالفعل ضدا لكل المبادئ، نحن لا نعرف سواهم وأنفسنا، لم يكن لهذا أي معنى، ومع ذلك، كنا هناك، نسير في الليل على طول الدروب التي لا تُحتمل، الرؤوس حليقة، والأيدي مقيدة، عراة مثل الأطفال الذين كنّاهم، الأعناق عالقة بين فروع شجرة الموينغي.. بشكل جيد بحيث لا يمكننا سوى النظر إلى الأمام، صوب رقبة الذي يسير أمامنا في الطابور.

قضينا الكثير من الوقت في محاولة التقدم في السير بالخطوات نفسها، التي سرعان ما أصبحت الهدف الوحيد، وخلال فترات التوقف، يمكننا التفكير في شيء آخر؛ أن يكون هناك شيء آخر يشغل فكرنا غير الخوف من فقدان التوازن والسقوط، والتسبب في سقوط إخواننا، كان علينا أن نفكر بسذاجة أن مواكبة الإيقاع، في ظل هذه الظروف، هو استعراض للقوة، ودليل على أن كل شيء لم ينته، كنا ندخر قوانا إلى أن تسنح الفرصة، لكننا، بسرعة كبيرة، فهمنا أنه لن يكون الأمر كذلك، كان المعتدون علينا أكثر عددا وأسلحة، وباستمرار كانوا يراقبوننا، كان من المستحيل أن يكلم بعضنا البعض، وأن نومئ إلى بعضنا دون إثارة الشكوك، عندئذ توقفت عن الطعام، دون أن أجرؤ على طلب الموت بصوت عال، لكن في قرارة نفسي تمنيتها بحرارة. توقف عمنا موتيمبو عن السير، في اليوم الثالث أو الرابع، لا أعرف بالتحديد، في تلك اللحظة سدد محارب من آل البويلي سهما إلى ثنية فخذه، سقط منهارا. وتركناه خلفنا، قبل أن أسمع منك ما جرى له، تصورت أن الضباع قد صنعت من جثته وليمة لها، هذه الصورة رافقتني طوال الطريق.

لم يكن بمقدورنا الالتفات لمشاهدته للمرة الأخيرة، أنا لا أتحدث عن محاولة لتبجيل مستحق لرجل، ولكن أن ننظر إليه فحسب، لقد انتزع منا هؤلاء الأشخاص كل شيء، كل شيء.

على طول الطريق، كان بعضهم يتحدث بهدوء، لقد فهمنا لغتهم قليلا، ما دمنا قد اعتدنا على أن الأعيان من عشيرتنا يستقبلون المتاجرين، لكن الأشياء المهمة انفلتت منا. لقد بلغنا للتو عمر الرجال، لكننا لم نغادر أرضنا قط، كنت أفكر سلفا، وقد أكدت لي ذلك، أن عمنا موتيمبو بدأ بالتمرد لأنه سمع شيئا، لم يكن لديه الوقت للتحدث معنا.

مع مرور الأيام، ضعفت قواي، وبدأت القافلة تتباطأ بسببي، دون أن تتوقف، ولكن، الموت عارضني بشكل قاطع، وسمحت لي بالوصول رفقة إخوتي إلى نهاية هذه الرحلة الطويلة. سلمنا آل البويلي إلى هؤلاء هنا، بعد مناقشات ساخنة، لقد تم فحصنا، وعدنا. كان يجب أن نكون اثني عشر، لذلك كان ينقصنا رجل، علاوة على ذلك، كنت ضعيفا جدا، وعمنا موندين كان عجوزا جدا، بيد أن آل البويلي يريدون تسلّم كل ما اتُّفق عليه، مبرهنين أنهم تعرضوا للمخاطر كلها. أثار هذا الاحتجاج ضحكا مجنونا لدى محاوريهم. على ما يبدو، كانت عمليات القبض قد أوكلت إلى صائدي الملكة نجانجو برغبتهم، لقد أوضح لنا العجوز موندين الأشياء عندما تركونا وحدنا.

كانت هذه هي المرة الأولى منذ اختطافنا التي نجد أنفسنا مع بعضنا، لقد فات الأوان، ولن تنفعنا هذه المعلومات في شيء. وهكذا احتجزنا في المبنى الأبيض الذي رأيته في وقت سابق، في داخل سجننا، كنا نسحب قيودنا المعدنية المحيطة بالكاحلين، حتى ولو أردنا الهرب ما كنا قادرين على ذلك، لأن هناك هذا العُقال، كما أننا لم نكن نعرف الطريق الصحيح للعودة إلى المنزل بأمان، لم يكن من الصعب على سجانينا أن يعيدونا،

فهم يوجدون في مكان قريب، وليسوا من آل البويلي، الذين كانت لغتهم في متناولنا، وإنما كان هؤلاء من الملقبين بالإيسيدو، والذين يدعون أيضا بالساحليين.

كنت مندهشة لأنك تمكنت من اختراق هذه البلدة بسهولة، هذا لأنهم ليسوا في حاجة إلى حراس، قسوتهم هي حصن كاف، الحياة البشرية ليست شيئا مقدسا بالنسبة إليهم، كما هو الحال لدينا. بالنسبة إليهم، وإلى جانبهم آل البويلي، إذا كانت الحرب عبارة عن طقوس، فهي عندهم احتفال مروع. لقد رأيت كيف تجري جنازات شخصياتهم، يبدو أن جنازات الأمراء تتمّ في السرّ، في هذه الحالة، لا ترمى النساء فقط، ولكن أيضا العديد من الشخصيات البارزة يقذف بها داخل الحفرة وهي على قيد الحياة، إنه تعبير عن الشرف، إنهم يعتقدون مثلنا بأن الموت ليس سوى رحلة، حتى وإن كان لا أحد يتمنى القيام بها مبكرا..

وذات يوم أخرجونا من السجن لكي نقوم بجولة، واستنشاق الهواء الطلق، يستغلون هذه اللحظة ليدفقوا فوق أجسادنا الماء، لا يتعلق الأمر هذه المرة بمجرد نزهة، فقد اقتادونا إلى ساحة قريبة من المحيط، فقام رجال من ذوي أقدام الدجاج بفحصنا بطريقة تمنعنا الحشمة من وصفها، ثم وقفوا جانبا للتفاوض مع الأمير إبانكورو، سيد الساحل.

لم نفهم ما يدور بينهم من حديث، لكننا نعلم أن الحديث يدور حولنا، حسب ما أعرفه اليوم، قدِم الغرباء من بونغو عبر المياه ويشتكون من اضطرارهم للانتظار طويلا لتسليم البضاعة، وقد تأخروا كثيرا، لهذا يقترحون حملنا في المساء نفسه، رافضين تسليم بعض البضائع التي ستقدم بالمقابل، لم نكن جميعنا صيدا جيدا، كان موندين عجوزا، بينما أنا لا يعلمون إن كنت سأبقى على قيد الحياة أم لا، بالإضافة إلى ذلك كان ينقص رجل، مادام قد تركناه لمصيره السيئ.

وفي الأخير أعادونا إلى القلعة البيضاء، كان البحر يزمجر ويرتطم فوق الرمال، دافقا رغوة كنا نخشى أن تلمس أقدامنا.

كنا نقفز فوق الشاطئ، لم نتصور أبدا هذا الامتداد الهائل من الماء، من سجننا كنا نشاهد الزحف والثورات من خلال ثغرة، شاهدته مرة واحدة، بينما كان الآخرون يتهافتون أمام الثقب الصغير محاولين محاصرة هذا الامتداد المتحرك، ابنك موكاتي كان من الأكثر مداومة على رؤيته، لقد أصبح البحر بالنسبة إليه هوسا، منذ أن رأى «المركب» زورق أصحاب أقدام الدجاج. وخلال فترة أصبح متيقنا بأن البحر ليس سوى ممر صوب «سيسي» العالم السفلي الذي تعبره الشمس خلال الليل، وإذا كان الغرباء ذوو أقدام الدجاج قد جاؤوا إلى اليابسة عبر البحر، فإنهم يجب أن يكونوا، إذن، أرواحا، أي سكان العالم السفلي. لقد لزمت الصمت حينما كان يعرض وجهة نظره، بالنسبة لي فقد كان بعيدا عن الحقيقة: العالم السفلي، لا جدوى من سبر أغواره في مغرب الشمس من أجل إيقافه، لأننا انحدرنا إليه.

هبّت إيابي، فقد نطق الرجل لأول مرة، اسم ابنها، إلى الآن لم يقل اسما من الذكور الذين لهم العمر نفسه، كما لو أن نطق أسمائهم سيعرضها للخطر. أصغت السمع ملزمة نفسها بألا تقاطعه راجية أن يأتي على رواية الجزء الذي ترغب سماعه من الحكاية. كانت المرأة في حاجة إلى معرفة السبب الذي دعاها لسماع النداء الذي سمعته قادما من بلاد البحر، حينما كانت في قريتها، ماذا حدث بالتحديد؟ وأين أبناء القبيلة الآخرون؟ لماذا بقي هذا في هذا البلد الغريب وحده؟ عندما صحت من نومها المضطرب وجدته جالسا أمام باب الكوخ، نظراته في اتجاه موبين، وحيث تأتي ضوضاء الماء، كما لو أنه يحادث دون كلمات هذا الفضاء الذي كان بالنسبة للمرأة حافة البعد المظلم للكون.

رجعت إيابي إلى المرقد حيث كان بانا مستلقيا، نائما نوما عميقا، وحيدا تماما، وبطريقة لم ترها من قبل، راودتها فكرة أنه لن يستيقظ أبدا، دفعتها إلى الاقتراب منه أكثر، وهي في حالة من الذعر، عندئذ سمعت صوت الرجل: لا تخافي يا أماه، لن يغادروا قبل أن يلقوا علينا التحية، دعيهم يستريحوا.

دون أن تطلب توضيحات عن الأسئلة التي تحرق شفتيها، انضمت إليه، وجلست إلى جواره، موجهة عينيها في الاتجاه نفسه، كان الماء غير مرئي، لكنهما يدركان أنه في الجوار، ويبدو أنها لا تعرف الراحة، مرّت من الرقرقة إلى الهدير، تزمجر، وتهبّ، وتتنهد، حتى تُسمع منتصف الليل، مثل جوقة من الأرواح المتألمة.

إلى جانب ذلك، ودون رؤيته، يصبح المرء واعيا بتأثيره على كل من يعيش حوله، حتى الهواء في هذا المكان كان مختلفا، مشبعا برائحة غير معروفة للمرأة من آل المولونغو، الذي تعيش عشيرته تجثم بين الأدغال.

في البداية بدأ الرجل بالحديث عن سكان هذه المنطقة الموجودة في نهاية العالم، كانوا يسمونهم «الإيسيدو»، يقدم هذا الشعب نفسه على أنه ابن الماء الذي يقدسه.

في الواقع، كانت خصومة مع إخوانهم آل البويلي، الذين دفعوهم، منذ أجيال بعيدة، إلى حدود مناطق البشر. في طريقهم إلى الساحل هاجموا المجتمعات في الأدغال بين بلد آل البويلي والأرض التي ستصبح أراضيهم. تدين هذه الشعوب المسالمة بالولاء العادل لأن حياتهم قد تم إنقاذها.. لو كنت سلكت الطريق نفسه، الذي اتبعوه للقدوم إلى هنا، لعبرت الأرض التي لا يزال يعيش فيها بعض هؤلاء الأشخاص.

اليوم يعتقد أن آل البويلي والساحليين هم مجرد حلفاء، في الواقع، ينحدرون من سلف مشترك، هو إيوي، الذي كان قد أنجب ولدين، عندما

بلغوا سن الرجال، أمر الأب ابنيه بأن يقيم كل واحد في أرض ويؤسس قبيلته هناك.

الأكبر بويلي، قام بغزو منطقة شاسعة بما فيها تلك التي تركها الأب، أما شقيقه الأصغر إيسيدو، فيشتكي من أن أسوأ الأماكن هي التي تركت له، فقام بمواجهة أخيه، لكنه خسر المعركة، هكذا كان عليه التراجع إلى الساحل. في أيامنا هذه، لم يكن أحفاده أكثر قوة من آل البويلي.

من ناحية أخرى، كانت تحرِّكهم رغبة غير خفية للانتقام من الماضي، من أجل تجنب النزاعات المستمرة معهم، قام ملوك آل البويلي، على مر العصور، بإبرام اتفاقيات مع هؤلاء الإخوة الضارين، لاحتواء مرارتهم، ولمنعهم من إلحاق الضرر بهم، ثم ظهر الغرباء القادمون من البونغو عبر البحر. في هذا الوقت بالتحديد، كان إيكونا جد إيبانكورو يحكم البلاد، ثم خلفه ابنه فيما بعد. أدرك الساحليون بسرعة الفوائد المجتناة من علاقتهم بأصحاب أقدام الدجاج، هؤلاء الأخيرون كانوا قد زودوهم بأدوات مدهشة مقابل الزيت أو الأسنان أو أنياب الفيلة، كانوا أول من ارتدى أقمشة أجنبية الصنع، وكانت هذه الأقمشة المطبوعة تنتشر في كل مكان بين الإيسيدو، فضلا عن ذلك، فقد كان أمراؤهم يملكون الأسلحة التي تطلق الصاعقة، مما يتسبب في صوت رعديّ، وعندما طلب شركاؤهم الحصول على كائنات بشرية مقابل هذه المعدات، أعطاهم الساحليون في البداية بعض الأفراد الخاضعين لهم أو الأفراد الذين انتهكوا بشكل خطير قوانين القبيلة، بالمقابل، لم يقبلوا سوى الآلات القتالية الشهيرة، ومع مرور الوقت، ازداد الطلب على البشر.

لم يعد الخاضعون أو مثيرو الشغب متوفرين كفاية في بلد آل الإسيدو، لإرضاء أصحاب أقدام الدجاج. كان أمراء الساحل يتمنون تجهيز كتائبهم من المحاربين بأسلحة جديدة، فلم يترددوا في الذهاب

إلى قبيلة آل البويلي للحصول على الأسرى. وأثناء الليل، يهاجمون بشكل رئيسي القرى الأكثر قربا إلى أراضيهم، وقد استغرق الأمر بعض الوقت قبل أن يكتشف الأمر ملوك آل البويلي الذين يعيشون في بيكومبو، العاصمة، التي توجد في مكان بعيد. انعقد مجلس، جمع كبار الشخصيات من الطائفتين، وقد طلب من الساحليين احترام القوانين، لكنهم كانوا يجهلون مصير الرجال عندما يتسلمهم ذوو أقدام الدجاج، ولهذا السبب حرصوا على عدم تسليم الأشخاص المنتمين إلى قبيلتيهم، وقد قيل لهم إن الأسرى يذهبون للعمل لدى الأجانب، لكنهم لم يتمكنوا من التحقق من ذلك، وبمجرد أن احتجز الرجال من بونجو رهائن من مجتمع الإيسيدو، في انتظار تسلُّمهم الأفراد الذين قدّموا من أجلهم سلفا المطلوب وأكثر من ذلك، وللامتثال للأعراف المعمول بها عند وصولهم إلى أراضي الإيسيدو، وبعد الرسو في المياه المحاذية للقرية، قدّم الأجانب الأقمشة والملابس والمجوهرات والأواني والطعام والمشروبات، كل شيء، وفقا لأذواق الأمراء وحاشيتهم، الذين بدؤوا بالتعرف عليهم. بحسن نية، قاموا بتسليمهم المعادن، ثم الأسلحة، الأشياء الوحيدة المقبولة في مقابل الأسرى. الذين لم يسلموا لهم كما وعدوا بذلك، قاموا بتعويضهم بأسرى من آل الإيسيدو.

وقد تم إرجاع الرهائن بعد عدة ليال قمرية، وعند عودتهم رووا عن رحلاتهم البحرية في بلدان أخرى حيث ذهب ذوو أقدام الدجاج على طول شواطئ المحيط من أجل ملء جوف سفينتهم بالأسرى، وقد ذكروا صراعات لا هوادة فيها مع بعض الشعوب الذين لم يرغبوا في التجارة مع الأجانب من البونغو ولو بأي ثمن، عندما لا يتوصلون إلى أي حال، يستولون على المتمرّدين بالقوة، حتى إنهم قاموا بتقييد من هم في مراتب سامية. هذه القصص أقنعتهم بضرورة الحفاظ على علاقات

سلمية مع الرجال الذين وصلوا عبر المياه. على أي حال، لم تكن لديهم نية للتصرف بطريقة أخرى، في مواجهة آل البويلي، فتظاهروا دون أن يرفّ لهم جفن، بأنهم لم يجدوا أي خيار سوى إرضاء شركائهم التجاريين، للقيام بكل شيء ممكن للعثور على الناس لتسليمهم الآن. كان من السهل فهمهم، إذا فعلوا ذلك، فلا يمكن أن يقوموا بتمشيط الميسيبو كله. كان من الطبيعي بالنسبة لهم أن يذهبوا للتزود من جيرانهم المقربين، ومن أشخاص يعرفونهم جيدا، ولسبب وجيه.

عند سماع هذه الكلمات، احتج آل البويلي بقوة. العلاقات مع إخوانهم الإيسيدو قد هدأت، لماذا نفسد كل شيء؟ ألم يكن بإمكانهم إرسال مبعوثين لتذليل الصعوبات، لإيجاد حلول معا؟ لماذا يتعاملون مع إخوانهم كأعداء؟ كان الوقت قد انتهى، وبدأ تنافر الأسلاف، عندما اشتبك أبناء إيوي لتشكيل مناطقهم الخاصة. من الآن فصاعدا، يمكنهم التحدث مع بعضهم. عندها تم إبرام الاتفاق، رفض آل الإيسيدو أن يفقدوا مزايا التجارة مع الأجانب. بالنسبة لآل البويلي، فقد كان مستبعدا أن ينجزوا هجمات مستمرة، حتى وإن كانت هذه الشعوب التي تعامل بقسوة هي أقوام خاضعة لمؤسس القبيلة، ويعاملون بازدراء دائما من طرف أولئك الذين يثبتون أن لديهم أصولا، لا يرقى إليها الشك لدى قبيلة آل البويلي. هؤلاء هم شعبنا، قالوا جميعا، أضفنا إلى مقدساتنا مقدساتهم ولغاتهم وعاداتهم الطهوية، إنهم جزء منا.

هذا الإعلان الأخوي تجاه الشعوب المحتلة يعني شيئا واحدا: اقتلاع قبيلة بشرية من قلب مجتمعها، كانت امتيازا لملوك آل البويلي، يمارسون هذا الحق كلما اقتضى الأمر ذلك، وهذا يهدف في الغالب لزرع الحقول، والخدمة في بيوت الوجهاء. كان هؤلاء العمال يعاملون معاملة حسنة، لا تقطع آذانهم، كما هو الحال مع خدم الساحليين، كانت بعض الأعمال

مثل الحدادة أو حرفة الحياكة متعذرة عليهم، لكن مشاركتهم في تحسين ظروف العيش كان معترفا بها.

وإذا تعلق الأمر بحرمانهم من خدمهم، والتفكير بتعويضهم، بطريقة أو أخرى، وللوصول إلى حل نهائي، لا ترى الملكة نجانجو وأتباعها سببا للتخلي عن الأشياء الجديدة المستقدمة من البونغو عبر البحر، والتي تفاوض على شرف المنزلة مع الساحليين. وهكذا اقترح آل البويلي إذن الإشراف على تزويد السجناء، فتكلفوا القبض على البشر، وفي مقابل هذه الخدمة يحصلون على البضائع التي تهمهم، وقد وافق آل الإيسيدو على ذلك مصرين رغم ذلك على أن تكون الأسلحة القاذفة للبارود والبارود نفسه الذي يستعمل كذخيرة خاصة بهم دون سواهم. كانت شجاعة محاربي آل البويلي معروفة جيدا، لقد صنعوا مختلف أنواع الخناجر التي يستخدمونها بمهارة منقطعة النظير، كما يمكن الاعتماد على الرماة الذين يملكون رؤية ثاقبة، وسهاما مسمومة لا تترك للعدو فرصة للنجاة. في هذه الأثناء يملك الساحليون أسلحة جديدة ويعتقدون أنهم قريبا سيحصلون على الامتياز، وفي مثل هذه الظروف وقفوا علانية ندا لإخوانهم لإلزامهم بقبول مضامين الاتفاق كما وضعوه. توطدت علاقتهم بالأجانب أصحاب أقدام الدجاج إلى درجة أن هؤلاء الأخيرين اعتبروا تشييد بناية ضروري في بلاد آل الإيسيدو وستكون مخصصة لحبس الأسرى. قيل إنه بعد فترة وجيزة، سيتم إرسال الأبناء الكبار من عائلات الإيسيدو الرفيعة عند أصحاب أقدام الدجاج، هناك، سيتعلمون، من أجل ترسيخ سيطرة شعبهم. سيمكن آل الإيسيدو من الانتقام من إخوانهم، وسلبهم الأراضي من المنطقة التي طالما رغبوا بها منذ نشأة العشيرتين. بالفعل، فإن الأجانب الذين جاؤوا من البونغو بواسطة المياه أمضوا المزيد من الوقت بين الساحليين، الذين أخذوهم للقيام بنزهات بين الأدغال.

في السابق، لم يكن نزولهم إلى الشاطئ إلا لإجراء معاملاتهم، لكن من الآن فصاعدا، يستضافون من طرف العائلات النبيلة استضافة فائقة. وأخذوا يتحدثون شيئا فشيئا اللغة المحلية، بينما جاءت كلمات من لغتهم لتثري كلام آل الإيسيدو، وبخاصة عندما يتعلق الأمر بتسمية البضائع التي كانوا يحملونها على سفنهم، لتجنب الاعتماد الكبير على إخوتهم الأعداء، فإن آل الإيسيدو من هذا الجيل أخذوا يركبون المخاطر.

لم يعودوا قادرين على أن يرضوا بالخاضعين أو منتهكي قوانينهم، بل بدؤوا يصعدون البحر متعقبين مسار الساحل على متن زوارقهم، وقد رصدوا شعوبا غير معروفة قبل عودة الرهائن، الذين ذكروهم في تقريرهم، وعلى العكس مما يفعله أصحاب أقدام الدجاج لم يغامروا بمهاجمتهم على أراضيهم وإنما كانوا ينصبون كمائنهم فوق الماء.

لا يمكن أن تنجح هذه العمليات إلا باستعمال أسلحة جديدة، كما فرضت عليهم الدقة، ويتطلب الأمر أمهر جذافي الزوارق، وأفضل الرماة، وأكثرهم فطنة، وقيل إن آل الإسيدو سيستكشفون قريبا على طول أو على الجانب الآخر من النهر المتاخم لأراضيهم.

كان مجرى الماء يتدفق في المحيط، لا يستطع الرجل أن يؤكد ذلك، ولكن يمكن أن يكون النهر الذي اضطرت إيابي إلى صعوده للخروج من البيبابيدي، يجب أن يكون هناك أمل بأن تستمر المسافة والمستنقعات في حماية هذا الإقليم.

كان الأسر يجري على قدم وساق، كان آل المولونغو، مثل الآخرين، قد وجدوا أنفسهم متورطين في شيء يتجاوز إدراكهم. ليلة النيران العظيمة، عندما ألقى آل البويلي شباكهم على اثني عشر رجلا من هذه القبيلة، كان هؤلاء بعيدين عن الشك في أن مغامرتهم لم تكن سوى واحدة من آلاف المغامرات التي تطبع تاريخا معقدا. كم من الرجال والنساء والأطفال، ومن

الشعوب العديدة، يمكن أن يكونوا قد انتزعوا من أهليهم، وألقي بهم على طرقات غير معروفة. كانت في الغالب ينتهي بها المطاف هنا، في نهاية العالم؟ كان من السهل فهم الوضع: فقد قرر إيبانكو، أمير الإيسيدو الحاكم، أن يذهب أبعد من أسلافه، في إنتاج الأسرى وتجارتهم. قبل موت والده، كان قد أقنع شيوخا بمزايا بعض المطالب التي قدمها الرجال ذوو أقدام الدجاج، كان الأجانب الذين جاؤوا من بونغو من المياه يجب أن يكونوا قادرين على بناء بناية حجرية بيضاء، كانت بمثابة مستودع، ليس فقط لتخزين المواد الغذائية التي سيحملونها على قواربهم، ولكن أيضا لحراسة الأشخاص المختطفين.

يحكون أن سُمو إيبانكورو، الذي انبهر بعظمة المبنى، قد طلب من أصدقائه أصحاب أقدام الدجاج أن يشيدوا له، على نفس الطراز، منزلا جديرا بمكانته.

كان هذا الأمير واحدا من أولئك الذين - من بين كبار وجهاء آل الإيسيدو - قد افتتنوا بكل ما قدّمه لهم الأجانب أصحاب أقدام الدجاج.

لم تتوقف نساء هذه الطبقة عن الإعجاب بأنفسهن أمام هذه الأشياء التي تعكس وجوههن. كثيرات منهن لا يتحملن الخروج من دون هذه الزهور الهائلة التي نحتت بتلاتها على قطعة قماش لامعة. كان الخدم يمسكون بالساق الخشبية، فوق هذه الأشكال المزخرفة، والبتلات الاصطناعية التي تحميهم من حرارة الشمس. ازدرت نساء الطبقة العليا ألياف أو لحاء الماباتو، فتركتها لفائدة ارتداء الأقمشة المطبوعة فقط، والتي يقال إن الأجانب أصحاب أقدام الدجاج قد ابتكروها خصيصا لمتعة الشخصيات المرموقة من آل الإيسيدو. علاوة على ذلك، فقد لوحظ أنهم هم أنفسهم لا يرتدون هذه الأقمشة المتعددة الألوان.

لم يعد إبنكورو يخرج أنفه من ملكيته العائلية دون أن يرتدي بادئ ذي بدء قبعة مطرزة بخيوط لامعة، وقرطا زجاجيا ذا وهج أحمر ساطع

يتدلى من أذنه اليمنى، وصفوفا عديدة من القلادات تجلجل حول عنقه، مصاحبة إيقاع خطواته، معلنة وجوده قبل أن يظهر للعيان. كان مغرما بشكل خاص بالزخارف التي تعرض على الأعيان من طرف الرجال ذوي أقدام الدجاج، لكن لم يكن كل ذلك ما يروق له، بالإضافة إلى بندقية البرق التي لا يتخلى عنها أبدا. يكون في غاية السعادة حينما يطلق طلقتين اثنتين ليتردد صداهما في جميع الأوقات. كان النبيل من آل الإيسيدو يتذوق خصيصا الكحول المستقدم من البونغو عبر المياه.

منحت كل هذه المنتجات الجديدة آل الإيسيدو هيبة قادرة على استبدال براعة فنون العيش لدى آل البويلي، وغني عن القول إن آل الإسيدو لن يتخلوا بسرعة عن تجارة تسمح لهم بأن يمتلكوا في أقرب الأيام السطوة على المجتمعات المنحدرة من السلف إيوي.

بعد هذا العرض الطويل فقط بدأ الرجل في سرد أحداث ليلة الحريق الكبير، أما الآن فقد سكت، لا تعرف إيابي كيف تحثه على المتابعة، بخجل، سألته: كيف اكتشفت كل هذه الأشياء؟ أعني ، قصة هؤلاء الأقوام؟ يتجاهل سؤالها: أيتها الأم، سيكون حكيها طويلا جدا. مثل الرؤوس الأخرى الحليقة، كنت، خلال فترة من الوقت، قد وضعت في خدمة نبيل من آل الإيسيدو، لكن خدمتي لم ترضهم كثيرا، فأعادوني إلى هنا، هذا كل ما أستطيع أن أخبرك به.. لقد مضى من الوقت أكثر مما قد تتخيلينه، منذ أن اختطفت أنا وإخوتي. يسكت الرجل مرة أخرى، يحدق في الأفق، والبحر غير المرئي، ترتجل إيابي استطرادا، على أمل أن تؤثر عليه، وتستحثه على مواصلة الكلام، لكنه كان باردا جدا، يبدو أحيانا وكأنه غائب عن جسده، كما لو أنه سلبت منه قوته.

ربما يحتاج إلى أن يتذكر القرية، وما تركه هناك، ليترسخ مرة أخرى في الحياة.

تفكر المرأة أن ذكرى أمه ستمنحه الرغبة والقوة لمحاربة مزاجه الكئيب، لذلك، قالت: إيبيزي تفكر كثيرا بك، هل ستعود معي؟ فكر بفرحتها، اتسعت عينا الرجل، وحدجها بنظرة في أعماقها رأت تتابعا متسترا من العواطف، دون أن يتمكن من تحديد أي منها، عندما تكلم كان صوته مجرد نفَس خشن: لا تنطقي هذا الاسم في وجودي.. لن أذهب معك، لن أستطيع العيش بينكم بعد الآن، لا يهمني ما يجب علي تحمله عند البقاء هنا. لا تعرف إيابي ماذا تقول، موكودي قالت بفتور، وهي تبحث عن الكلمات المناسبة لتتحدث معه، لكن الرجل لم يترك لها فرصة لذلك، فقال: لا تناديني أبدا بهذا الإسم، كان هذا اسمي في عالم آخر، أما في هذا العالم، فأنا لست ابنا ولا أخا، العزلة هي بيتي وأفقي الوحيد.

ومثل الرؤوس الحليقة الأخرى، يجرجرون أنفسهم منتظرين أن يتحدد مصيرهم، يعتبر نفسه بلا ماض، يشكر مالوبا لأنه سمح له برؤية إيابي مرة أخرى، ولكن هذه الفرصة أعطيت له فقط لسبب واحد: لإعادة سرد الحكاية، قبل أن يصمت وإلى الأبد. بالنسبة إليه الأحداث التي وقعت ليلة الحريق الكبير، والأيام التي تلت ذلك، هي الظلام نفسه وباستمرار، وقد اعتاد عليها، إيابي وبانا، على الرغم من أنهما لا يظهران امتنانهما للوقت الذي يقضيانه رفقته، فإنهما يظهران كنجمين في قلب العتمة، ومع ذلك، سيكون عليهما المغادرة، أما هو فسيبقى هنا، حتى يتذكر شخصا ما. لم تعد إيابي تستطيع إخفاء نفاد صبرها، ومع ذلك، فإن حدسها يدعوها إلى ألا تطرح السؤال بشكل مباشر: ماذا تقول لي عن موكاتي، ولدي البكر؟ سألت ببساطة: لقد جئت لأداء عمل مقدس، متى سنذهب لرؤية البحر؟

هزّ الرجل كتفيه، ليس للرؤوس الحليقة الحق في الاقتراب من المياه،

هذا ممنوع عليهم، لأن كثيرين، حرّكتهم قوة مجهولة، فاختفوا هناك، هنا، في هذا الحيّز من القرية التي يعيشون فيها، تكون تحركاتهم حرّة، ومع ذلك، إذا أراد أحد المغامرة إلى ما وراء ذلك، يجب أن يرافقه أحد. لا ينبغي لي حتى أن أذهب إلى الساحة، لمشاهدة مراسم دفن إيتابا. كان قد استغل أن السكان جميعهم اضطروا للذهاب إلى الجنازة، لكي يتسلل من حي الأسرى، لا أحد أثار انتباهه، الذهاب إلى ضفاف البحر مسألة مختلفة، وقد بنى الوجهاء الساحليون منازلهم، لكي يبقوا على مقربة من أرواح المياه، في هذه المناطق توجد «السفينة»، كما يقولون، لتسمية القارب الهائل الذي يملكه الرجال ذوو أقدام الدجاج، يقيم حوالي أربعين من هؤلاء الأجانب في هذه المنطقة، حيث تتم المعاملات بينهم وبين أمراء الساحل.

من المستحيل الذهاب هناك، سيكون ذلك بمثابة تعريض النفس إلى خطر مجهول، تهز إيابي رأسها: سمعتك يابنيّ، أنا لم أقطع هذه المسافات كلها، من أجل لا شيء.

ومدت يدها مشيرة إلى المسكن المتهالك حيث يقضي محاورها أيامه الحزينة، وأضافت: لدي شيء لسكبه في البحر، أنا أسمع صوت موكاتي، ويجب أن أفعل ذلك، لكي أحرره، وأمكنه من العبور إلى العالم الآخر. حدقت في وجه الرجل، آملة أن تدفعه كلماتها إلى معرفة المزيد، وأن يعرف أنه إذا كان يخشى أن يعلن لها موت ابنها البكر، فقد أدركت ذلك سلفا. وحدها التفاصيل ما ينقصها لتفهم ما جرى، يجب أن تعرف بدقة مصير شباب آل المولونغو الذين انتزعوا من بين أحضان شعبهم، في هذه الأمور ليس هناك ما هو أكثر فظاعة من الجهل، يجب أن تعرف أولئك اللواتي فقدن أبناءهن مصيرهم.

تعلن المرأة أنه من الضروري الذهاب إلى ضفاف الشاطئ حيث

تنتهي الأرض، إذا رغبت في العودة إلى القرية بإجابات، لعل الخيال لا يحمل العقول بعيدا جدا، لعل التيه لا يصبح، في موطن آل المولونغو، طريقة جديدة للحياة، لعل أولئك اللائي لم يرين أبناءهن يتطهرن من الريبة كلها، ويحصلن على التقدير كله، طالما أن الشك لا يزال قائما، فإن التناغم معرض للخطر. يصمت الرجل نهائيا، لا يريد أن يتحدث بعد الآن، ولا ينوي مرافقتها إلى ضفة الماء. حدد لي الاتجاه، سأذهب من دونك، قالت ببساطة، وإذا سألتني، فلن أقول لإبوسي إنني رأيتك، لن تفهم أمك قرارك بالبقاء هنا. أومأ برأسه موافقا، وهمس: يجب أن نحلق رأسك.. يجب أن نذهب ليلا، حتى لا يلاحظنا أحد. الرجل يتردد، ثم يخلص: أنا لست متأكدا من أن أجد القوة للاقتراب من البحر، ارتفع صوت بانا، مستيقظا، يقاطع حوارهما، وابتسامة على شفتيه. ينظر الطفل في عيني موكودي ويقول: سأذهب مع إينيي.

* * *

تفرك الداية جفنيها، وتتقلب في فراشها، لا ترغب في فتح عينيها، تحاول العودة للنوم، لكن آثار الجرعة تبددت وجهودها غير مجدية، تجلس المرأة العجوز على مضض على حصيرتها، وتفحص الغرفة بنظرة مرتبكة، ترقد إيبيزي في زاوية من الكوخ مقرفصة، واضعة يديها فوق أذنيها، عندما يتداعى جسدها، تعيده إلى وضعه بحركة منعكسة، وتستمر في الغمغمة، حتى في النوم العميق، بأدعية رجائها إلى الابن الغائب، تحدق فيها إيبيزي للحظة، متسائلة عما إذا كان ينبغي حثها على الاستلقاء، هذه المرأة تفعل عكس ما ينبغي أن يفعله كل من يريد التحدث مع الخفيّ، من الضروري التركيز، ومع ذلك، يجب علينا أيضا إبعاد الحمية، ثم، من الضروري ولوج الليل الذي يساعد على الحلم، لاستقبال الراحة، وإذا أرادت إيبيزي التحدث إلى ابنها البكر، ورؤيته يجب أن تضع نفسها

في وضعية الحالمة. تشرح لها العجوز الوقت المناسب، في اللحظة الراهنة لا ترغب في التواصل مع أحد، تنهض وتتمطط، تخطو بضع خطوات خارج المسكن، لا أهمية حقيقية لهذا الشيء ما دامت قد اعتزلت مهنتها، ولكن بدافع الفضول تريد أن تعرف ما هو اليوم الحالي، وهي تعلم، نظرا لشراب النباتات المهدّئة المستخدمة في تحضير جرعتها، أنها نامت لمدة يومين على الأقل، لم ترَ أي حلم، وكانت هذه إرادتها، يكون النشاط الحلمي أحيانا محملا بالأسئلة والاضطراب. نالت حصتها من المحن.

واقفة أمام الكوخ، تستند بيديها على وركيها، تمعن العجوز نظرها في الأفق، الشمس عالية في السماء، ومع ذلك القرية غارقة في صمت ليلي، لا نسمع كالمعتاد أصوات الأطفال وهم يلعبون.

أمهاتهم أيضا صامتات، عندما ينبغي عليهم، في هذه اللحظة، أن يوبخوه، ويعدوهم بمعاقبتهم إذا لم يلتزموا بالسلوك الحسن، والرجال؟ أين الرجال الذين ينبغي أن تتردد أناشيد القوة عندما يبدؤون في إعادة بناء القرية؟ شيء ما ليس على ما يرام، للحظة اعتقدت المرأة العجوز أنها ما تزال نائمة، وأنها تبذل قصارى جهدها كي لا تحلم، لكن عقلها حتما مضطرب للغاية.

إنها رؤية، كما يمكن للمرء أن يرى في المرحلة الثالثة من النعاس، الذي يجعل من الممكن زيارة أبعاد أخرى، ربما من الأفضل العودة إلى الفراش لإنهاء هذه الرحلة التي لا تريد أن تخوضها؟ عندما همت بالقيام بذلك، شدّ انتباهها شيء ما، على مبعدة عشر خطوات أو اثنتي عشرة خطوة، دجاجة، تنقر بشراسة، ما يشبه رأس إنسان، عيناها الثاقبتان لم تخوناها أبدا، أصبحت العجوز متأكدة جيدا مما تراه. بموازاة مع النقر الغائر في محجري العينين والغوص في فتحتي الأنف، لم تتوقف إيبيزي عن التفكير سواء كان حلما أم لا، فمن الضروري ملاحظة الأمر عن قرب

وبشكل وثيق. توجهت مولدة آل المولونغو بخطوات وئيدة صوب المكان وهي تهمهم ضد هذا الوجود الذي يرفض منحها السكينة. تشتكي من أن الأحلام نفسها ما عادت كما كانت، في منامها كما يجب أن يكون، لم يكن عليها أن تمشي كما تفعل، سيكون كافيا لها أن ترغب بالذهاب إلى هناك، بالقرب من ميدان موسيما، كي يتجلى لها ابنها على الفور، ستتنقل متذمرة، بينما تنخز الأرض أخمص قدميها، وهو شعور كان يمكن أن تتجاوزه، هنا أيضا، ما دامت تحلم، يحمل الهواء رائحة كريهة جدا، والتي لا يمكن وصفها، إنها ليست رائحة عفنة كليا، لكنها قريبة من ذلك، تندهش إيبيزي من عدم سماع أي شيء، وتشعر مع ذلك بالأشياء بهذه الحدة، في الهواء، وتحت أقدامها، لم تحلم أبدا بهذه الطريقة من قبل.

في المستقبل، يجب أخذ الحيطة من هذا المحلول المهدئ، لم تقس تأثيراته كلها، سرعان ما تقربها خطواتها من الدجاجة التي ترفع رأسها وتحدق بها وتعود إلى مهمتها، يصطدم منقارها، بمعدل منتظم. الجمجمة تتحرك هنا وهناك، تتوقف إيبيزي عن السير، هذا الطائر ليس كما يبدو عليه، واضح أن ما تراه لا يمكن أن يكون سوى رسالة، وفي غياب موندين، من سيفسره؟ لا حاجة للجوء إلى «موسيما»، فهو لا يملك المكانة لتوضيحه، تتساءل إذا كان حلمها يواجهها بمثل هذه الحالة، فعليها أن تتصرف، سيكون من العبث أن تقاد إلى هنا كي لا تفعل شيئا سوى أن تلاحظ، ثم تعود على عقبيها، ومن دون قناعة كبيرة، ترفع المرأة ذراعيها، ملوحة بهما أمام الدجاجة التي من المفترض أن تفهم أنها تطرد، وأنه ليس من اللائق تجريد جمجمة بشرية من جلدها، وبالتالي تمزيق قطع من اللحم. تركت الإيماءات الحيوان دون رد فعل.

يجب أن تقوم إيبيزي بخطوة أخرى وتنحني لإنقاذ هذه الجمجمة المحرومة من جسدها، تفعل ذلك وهي تحتج، لا يجد البعض الراحة

حتى في عمق النوم. تقسم إنها عند مماتها ستذهب لتستقر بين من هم أكثر سعادة؛ الذين ليست لديهم مسؤوليات غير التجلي بين الوقت والآخر. تنفذ هذه التجليات بتقتير. لقد أقسمت على ذلك، استولت على الرأس ممزق الجلد ذي العينين الفارغتين وأرسلت ضربة بقدمها باتجاه الدجاجة معتقدة أنها ستدفع الحيوان إلى الخوف والتراجع، لكن حدث العكس فقد هاجمها الطائر غارسا منقاره في ساقها والتمسك بها بشدة، بحيث يبدو وكأنه مجهز بفك حقيقي. أخذت إيبيزي تدور حول نفسها بأكبر سرعة ممكنة، لكن الدجاجة تمسكت بقوة ولا تنوي تركها.

تخفض عينيها نحو ساقها، تمسك بكلتا يديها الجمجمة، تتحرك، تقفز، تخبط، لاهثة، أسنانها مصطكة غضبا، عيناها محتقنتان سخطا، وألما، عازمة على كتم صراخها، يجب أن نرى الأشياء كما هي: إنها مجرد دجاجة.

تريد العجوز أن تلوي عنقها، وأن تبين لها من يحكم زمام الأمور، هذه الروح التي تستقر في جسد دجاجة، لا تجد أي شيء أفضل للتعبير عنه، لا يمكن أن تكون لها اليد العليا، عليها أن تحرر يديها إذا أرادت الدفاع عن نفسها كما ينبغي لها، تستعد المرأة للاعتذار لهذه الجمجمة التي لم تكن تستحق أن تقع عن جسدها، في حالة هدير من الرعب ترى الرأس يتدحرج على الأرض، لا حاجة لالتقاطه ومشاهدته مرة أخرى، من المؤكد أنه في هذا الوقت الذي يتناقض فيه العبث مع الرعب، إنه رأس موسيما، مولودها البكر، الذي انفلت للتو من بين يديها، لا بد لأسوأ الكوابيس من نهاية، على الرغم من أنها عادة ما لا تكون مفاجئة، لكن هنا يجب أن تفتح عينيها، وتتساءل لاهثة، عما يمكن أن يعنيه كل هذا، يجب أن تكون في الكوخ بجانب إيبيزي، لتسارع إلى حرق اللحاء درءا للقلق ومحاولة لفهم ما يحدث.

لا مفر من مواجهة الدجاجة، تمكنت في نهاية المطاف من التخلص منها وإلقائها بعيدا وهي ترتجف من الغضب، والدموع تملأ عينيها. ينساب خط من الدم من أسفل ساقها، لكنها لا تهتم، تبحث ببصرها عن الرأس، الذي انطلق ليرتطم بقدم شجرة، معفرا بالتراب أثناء دحرجته، تأخذ المرأة العجوز نفَسا عميقا، الرائحة التي لم تستطع تسميتها ملأت رئتيها، دون أدنى شك، إنها رائحة الموت، وليست علامة منذرة، هل ارتكبت خطأ عند اتخاذها قرار الانسحاب؟ هل يجب أن تدفع ثمنه غاليا؟ تحاول إيبيزي ترتيب أفكارها، حتى موتانغو الرهيب لن يضع ابنه رهن إشارة الموت بهذه الطريقة، وبخلافه، لا يمكن لأحد أن يصنع شيئا مثل ذلك. يتردد آل المولونغو عند مسألة سفك الدم، فقبل قتل حيوان لتناول لحمه، يطلبون منه المغفرة، ومنذ أن تولى إلجانيا موكانو منصبه، أصبحت التضحيات نادرة. حدث شيء سئ بينما كانت نائمة، شيء خطير بما يكفي لوضع حد لتقاعدها على الفور، ستطلب من المجلس عقد جلسة، كيف يمكن ألا نسمع صرخات أرامل موسيما؟ أين سكان القرية، عندما تتغذى دجاجة على بقايا ابنها؟ إيبيزي عاشت فقط من أجل المجتمع، لا يمكن أن يكفي غياب يومين لتفسير ذلك.

تلتقط الداية باكية رأس ابنها البكر مرة أخرى، وتتجه نحو ملكية موسيما، في وقت قصير، وصلت إلى هناك، لا يوجد كائن حيّ، الرائحة فظيعة ليست رائحة الموت ما يشم، ولكنه الدمار الشامل، موت لا ينبعث منه أحد، تتفقد الأكواخ الواحد تلو الآخر، كانت كلها مهجورة. داخل إحداها، يسود اضطراب لا يمكن أن يوصف، هذه ليست سوى جرار مكسورة، وأواني الكالاباش مقلوبة، وبقايا طعام مسكوب، ما تزال تحمل جمجمة ابنها، وهي تتخطى آخر مسكن، يؤدي إلى الفناء الخلفي، كان هناك جسد موسيما، منكبا على بطنه، قبضته اليمنى مضمومة.

تطلق من يدها الرأس مرة أخرى، وتقول لنفسها إنها لن تملك القوة للسير إلى غاية ساحة القرية، حيث يوجد كوخ المجلس. من حيث المبدأ، يجب أن تجد الحكماء مازالوا لم يحلوا بعد المسألة الشائكة المتعلقة بمن سيخلف موكانو، إنها تعرف هؤلاء الرجال جيدا، سيريد معظمهم أن يضعوا مصالحهم فوق مصلحة القبيلة، كما ستكون المحادثات طويلة.

بقلب خافق تكتشف الداية، وهي تتقدم في السير، أرضا أفرغت من سكانها، هنا وهناك، الطواطم العائلية والأواني المقلوبة تشهد على غضب هائج نزل على القرية، أمام بعض المنازل، أجساد موتى بدأت تتعفن، الوجوه متشنجة في قناع من الألم، عيون مفتوحة على اتساعهما تدلّ على الرهبة، والغموض، مرة أخرى. تفكر الداية في السفر إلى بعد آخر، يمكن أن تكون هذه المشاهد مجرد رؤى، إن فكرة أن صورا لا يمكن أن تحتمل ستُعرض أمامها إذا هربت، لهذا تخلت إيبيزي عن قرار التراجع إلى الوراء كما ترغب في ذلك، ليس من الجيد الفرار قبل الاختبار، هذا عقابها لرغبتها في الانسحاب من العالم، والفرار من مواجهة الحزن. إنها تتقدم مصرة، رغم كل شيء، على عدم السماح لعينيها بالشرود. يجب أن تصل إلى كوخ المجلس، تمشي دون أن تنظر على الجانبين، تحاول الداية أن تفكر، لكن عقلها لا يثبت فقط في اللحظة التي تعرفت فيها، على رأس طفلها الممزق، وهو بين يديها، لا ترى غير محجري عينيه المجوفين، والجسد المخروم، والجلد الممزق.

أمام كوخ المجلس، إنه الصمت المطلق، لا نسمعهم يتجادلون كالمعتاد، مكثت إيبيزي لحظة متجمدة، يجب أن تدخل، ترددت، تريد من يمنعها عن ذلك، قد يكون هناك شخص ما، شعرت العجوز بالاختناق، مدت رأسها من خلال الباب الضيق، فكادت تسقط مغشيا عليها، هنا تتركز الرائحة التي تغمر القرية، الرائحة مدوخة لا تستطيع العجوز أن

تعبّر عنها، بكلمات من لغتها، ما تراه في الداخل جعلها تتقيء، وتقع على ركبتيها، يجب أن تغادر القرية، مهما كلفها ذلك، ستذهب للبحث عن إيبيوزي، وتغادر البلاد، قبل ذلك، سيكون عليهما أن يجدا القوة لدفن الموتى، هل تستطيع امرأتان وحيدتان أن تقوما بذلك؟ وهما ليستا حتى اثنتين، هناك، في الكوخ حيث تم جمع أولئك اللواتي فقدن أبناءهن، لا توجد سوى نصف امرأة.

لا يستطيع نحيبها أن يكسر الصمت، بعد حياة قضتها تولّد أطفال شعبها، سيكون أجرها الوحيد هو أن تواري هؤلاء القتلى جميعهم تحت التراب، إما أن تفعل ذلك أو تحمل إيبيزي على ظهرها لإخراجها مما كان يسمى قرية، إنها مستعدة وليس من الجيد الهروب من الاختبار، تفاديا لخطر الاضطرار إلى مواجهة المزيد من المحن، هذا ما تقوله لنفسها عندما تنظر إلى كومة الرماد التي توجد في مكان الضريح والذخائر. تتساءل إيبيزي أين ستجد الطاقة والوسائل كي تفي بواجبها، للمرة الأخيرة.

الفصل الخامس
الأوقات الأخيرة

اليوم، يشعر بانا بإثارة لا مثيل لها، عندما ستشرع الشمس بالعبور إلى «سيسي»، سيقود الرجل، إيابي وبانا، إلى شواطئ المحيط، دون أن يعبر الطريق حتى نهايته، سيأخذهما قريبا من البحر، ثم يجثم في الظل، ليقوم بالحراسة. حلقت المرأة رأسها، ومنذ عدة أيام، حاولت هي والطفل أن يكونا متواريين عن الأنظار، نادرا ما كانا يتركان الكوخ الـمُـسقِّم لمستضيفهما. من بين الرؤوس الحليقة التي تعيش في الجوار، بعضها لا يمكن الاعتماد عليه، في مثل هذا الموقف الذي يعيشونه، فهم على استعداد لفعل أي شيء لتحسين حياتهم اليومية، وتعد الوشاية خيارا صالحا، وكثيرا ما يبتلى الأسرى الذين تجمعوا في هذا القسم من قرية إيزيدو بجرم ما، فقد أسروا مع أعضاء آخرين في مجتمعهم، ولم تتم مبادلتهم لأن أصحاب أقدام الدجاج لا يريدونهم، إما لأنهم كانوا مرضى جدا، أو لأنهم كانوا متمردين جدا، أو لديهم رغبة في الانتحار، في بعض الأحيان، عندما وصلوا إلى أرض آل الإيسيدو، لم يُعرضوا أثناء عمليات التفاوض، وفضّل كبار الشخصيات المحلية إبقاءهم في خدمتهم.

استقل البعض، مثل موكودي، القارب، لكن القدر أعادهم إلى الشاطئ. في عدة مناسبات فكر الرجل في إخبار إيابي بكل شيء، ويشرح

لها لماذا اختفى الآخرون، بينما بقي هو هنا، ويفصح عما يربطه ببلاد آل الإيسيدو، وبهذا المحيط الذي يرعبه بالقدر الذي يعتبره ضروريا. لم يجد الكلمات، وهذا لم يهدئ من روعه، بل على العكس، فهو يستعيد، دون توقف، اللحظة التي وجد فيها نفسه بمفرده، معاتبا نفسه على إضرابه عن الطعام، والضعف الجسدي الذي أعقبه، ولهذا السبب كان من المستحيل عليه أن يحرر نفسه كما فعل إخوانه، في لحظة الميثاق الأخير، فشل فيه كذلك، تعلموا معا، فقد عاشوا ولادة جديدة، كانت التجربة قوية لدرجة أنهم لم يتركوا بعضهم بمجرد عودتهم إلى القرية. بالتأكيد، دافع المرشد الروحي عن بقائهم في مجموعة خلال النهار فقط، ولا يسمح لهم بالافتراق إلا في المساء، للانضمام إلى عائلاتهم. كان حريصا على أن يحافظوا على عواطفهم التي شعروا بها في الملاذ المقدس وسط الغابات، لأطول فترة ممكنة. لم يجدوا صعوبة في طاعته.

كانوا ليلة الحريق الكبير رفقة إخوانهم عندما ألقى عليهم آل البويلي شباكهم، لم يفترقوا مذاك إلا بسبب خطئه ورفضه تناول الطعام، ولم ينفصلوا إلا بسبب خطئه، وعلاوة على ذلك، فإن رفضه للأكل بدأ يحلّ الروابط التي تربطه بأولئك الذين ينتمون إلى فئته العمرية، وبينما كانوا لا يزالون يأملون مواجهة مهاجميهم، استسلم هو سلفا، ولم يوجه أيٌّ أحد منهم لوما إليه، وعندما لم يكن يأكل، استمر إخوته بترك حصته، كانت هذه طريقتهم للتحدث إليه، في ملاجئ الصيد حيث يخبئونهم أثناء النهار، وتحت مراقبة مهاجميهم. في المرات القليلة التي ابتلع بعض الطعام، كان قد أجبر على ذلك، قام صيادو آل البويلي غاضبين من سلوكه، بفتح فمه وحشوه بجذور أو فواكه. في أحد الأيام، عض إحدى الأيدي التي كانت ستغوص في حنجرته، الأمر الذي دفعهم إلى ضربه ضربا مبرحا.

يتذكر النظرة المؤلمة لإخوانه، وتنبيه العجوز مونדين، الذي لم يعد

قادرا على البقاء صامتا أمام هذا المشهد، ما الذي جناه من التمرد؟ تصور أنه بتصرفه الذي قام به، يستطيع المحافظة على كرامته، احتجاجا ضد الظلم، حتى لا نكون شركاء في جريمة من كان ضحية أعماله، لم يتبق إلا صورة تسع جثث ألقيت في البحر، تسع شباب من المتطوعين متّحدين. عندما يغلبه النوم، كان هذا المشهد يلازم أحلامه مصغيا، في الخلفية، إلى الأغنية التي يتغنى بها إخوانه في بطن «القارب» بقصد تمرير الإشارة.

كان موكات، ابن إيابي، أول من بدأ صوته العميق الذي ملأ الفضاء، ليصل إلى رفاقه، وكان أصحاب أقدام الدجاج قد حرصوا على فصلهم، لقد وضعوا بالتناوب، بالقرب من الأسرى الآخرين الموجودين بالفعل داخل جوف القارب الهائل، بهذه الطريقة، كانوا يعتقدون، أنهم لن يتمكنوا من التواصل، أو القيام بأية مؤامرة، وقد تداولوا قصصا عن المعتقلين الذين قاموا بالاستيلاء على براميل من البارود في السجن العائم، وقاموا بتفجيرها، فاندفع حراس المرتزقة والمحتجز إلى العالم الآخر. وقالوا أيضا إن الأسرى بالقوة قاموا بإعدام معذبيهم، معتقدين أن العودة إلى الأرض ممكنة بوسائلهم الخاصة، لكنهم لم يعرفوا كيفية المناورة بالسفينة، فحكموا على أنفسهم بالتيه في البحر، حتى الجنون، وحتى الموت.

كانوا يتحدثون كثيرا بين الرؤوس الحليقة، ينصت الرجل دون أن يشارك في الأحاديث، يعرف جيدا مغامرة إخوانه وليست لديه الرغبة ليشاطرها مع أي أحد.

كانت عبؤه الثقيل الممتد في ذاكرته خلال الفترات الست التي تقسم اليوم في عالم الأحياء، وهي تلاحقه باستمرار، الغناء، الأجساد المتهاوية إلى أعماق البحر، النواح الأجش للعجوز موندين، أما هو، فعندما وقعت كل هذه الأحداث، كان واهن القوى لا يشعر بأي شيء، كل ما كان يعرفه حينئذ هو عجزه الجسدي، واستحالة التركيز.

في خضم هذه الذكريات، يتساءل الرجل ما الذي حفزه، لا لإظهار رفضه لمصيره، ولكن لماذا جعل نفسه متفردا كثيرا، لماذا حطم الأخوّة؟ لماذا مزّق التضامن؟ وما النتيجة التي كان يمكن أن يتوقعها؟ الموت ليس إبادة، ببساطة يعيش الموتى في بعد آخر. نعم، ومع ذلك، كان من الصعب عليه إخفاء وجهه. وقف إخوته على جانب الحياة، وإلى النهاية، كان الاختيار الذي قاموا به مفعما بالنبل. عندما سمع المرشد الروحي أغنية موكات حذرهم، بينما رفض ما سيفعلونه، فقد فهم ذلك، شيّع الرجل بنظراته الفارغة صوب الأغصان التي تشكل سقف كوخه وضُمّت إلى بعضها البعض بشكل عشوائي، تفتح فجوات عديدة نحو السماء، تسمح بالتقاط السطوع المتغير، وقياس مرور الوقت، يبدو له هذا اليوم بلا نهاية.

مراقبا بانا الذي يتفحص السماء أيضا، متمليا بأصغر تبدل فجائي، قال له: يجب أن نتحدث إلى أمّنا. يستدير الطفل: على الشاطئ. تظاهرت إيابي بعدم سماع هذا الحوار، وللمرة الألف، تصوّرت اللحظة المرتقبة، بعد إلقاء التراب في الماء، الموصى به لابنها وإخوته من نيامبي، يجب أن تعود بسرعة، تفكر في الرحلة التي يجب أن تعيدها إلى بيباييدي، سيكون عليها أن تتبع، ليس الطريق التي سلكها الأسرى والتي من شأنها أن تجعلها تعبر بلاد آل البويلي، ولكن الطريق التي وصلت بواسطتها. يجب على المرأة تذكّر الاتجاه الذي سيمكنها من العثور على نهر كوا، هناك ستنتظر العابرين. تقوم في ذهنها بمراحل الرحلة، في محاولة لتذكر التفاصيل التي من شأنها أن تساعدها على ألا تضل، الشجرة المنشطرة بواسطة البرق، مأوى الصيد، ماذا أيضا؟ إنها قلقة جدا، يبدو أنها كبرت منذ رحيلها، وقطعها لعدد من المراحل. لم تقتصر رحلتها على عبور المسافة من مكان إلى آخر، فجأة، تشعر

بالوهن، وحده بانا، الطفل، سيمشي معها إلى ضفة الماء..

تلقي نظرة على من اعتقدته، في الأصل، صبيا أصيب بالخرس بعد أن كان شاهدا على الأهوال، فحرم من أهله. في الواقع، لا أحد يعرف شيئا عما عاشه، ومن أين أتى. قيل لها إنه جاء إلى ضواحي أراضي البيبابييدي، يرافقه رجل مسنّ لم يستطع البقاء على قيد الحياة، كان من المفترض أن يغادرا البلد نفسه، لكننا لم نكن متأكدين. لم تبدأ بمساءلة نفسها حتى وصلت إلى هنا، إلى بلاد آل الإيسيدو، لم يفعل بانا شيئا أغرب من المعتاد، كان دائما ما يغذّي نفسه بالقليل من الطعام، ويتحدث فقط في حالة الضرورة المطلقة. لكن موقف مضيفهم تجاه الطفل، هو ما جعلها تنظر إليه بشكل مختلف، في اليوم نفسه عند وصولهما، قال الرجل، متحدثا عن بانا: أيتها الأم، هذا مفرد بصيغة الجمع، ودون أن تفهم قصده، لم تسأله عن ذلك، هل كان سيجيب؟ ذهل عقل إيابي من هذه الكلمات: إنه جمع، كلما استعادت الكلمات، زادت الروابط بالاسم الذي منحه الطفل لنفسه، إنه بانا.

يداها ترتعشان الآن، تسقط إيابي القماش البالي الذي كانت تتفحصه محاولة التفكير بحكمة، بما أنهما كانا يسيران معا، ولم يتصرف بانا أبدا بشكل سيئ، لم يفعل أي شيء للإشارة بيقين أنه ليس طفلا مثل أي من الأطفال الآخرين، فماذا ستقول له عندما يكونان على الشاطئ؟ لماذا هناك فقط؟ تقرر المرأة أن تثق في مالوبا، التي حمتها حتى الآن. سوف ينزل الشفق في نهاية المطاف فوق العالم، بعد ذلك، ستذهب إلى ضفة الماء، وتصب التراب الذي أخذته من جوار جذع شجرة الديكوب التي تحمي مشيمة ابنها الأول، ثم ما يجب أن يحدث سيحدث. يجلس بانا بالقرب من الباب متواريا لتجنب جذب الانتباه، يتفحص السماء، تجيء الجماجم الحليقة وتذهب في الخارج، وتتظاهر بعدم النظر إلى داخل

المنزل. يوجد الكوخ في نهاية الحي، وهو آخر مسكن قبل دخول القسم الذي يسكنه وجهاء آل الإيسيدو، بالقرب من المحيط، لذلك أنت بحاجة إلى سبب وجيه للتجول هناك. الآن، لا يتحدث الرجل إلى الأسرى الآخرين.

تطرد إيابي الأفكار السيئة التي تهدد بالتسلل إلى ذهنها، وهي تستلقي على قطعة قماش بدلا من الحصيرة، لاحظت على بعد خطوات قليلة من الباب، امرأة ذات رأس حليق، تنظر إليها بثبات، ورأس إصبعها يشير في اتجاهها، إيماءة المرأة المجهولة بطيئة بينما عيناه شاخصتان في إيابي. في وقت وجيز وقبل أن تفطن للأمر، دخل رجلان من آل الإيسيدو، ربما من ميليشيا الأمير إبنكورو، إلى الكوخ، لم تسمع إيابي صوتهما، بل تسمع أصوات هذا المحيط الذي لن تراه أبدا، تبحث بعينيها عن بانا في المكان الذي كان فيه الطفل منذ بضع لحظات، ليس هناك سوى بركة صغيرة.

* * *

سبع وعشرون جثة، كان هناك سبع وعشرون، دفنتهم جميعا، بقدر ما استطاعت من قوة، لكنها رغم كل شيء، فعلت ذلك، لم تهمل أي ركن من أركان القرية، صعدت التل لتجد فقط أنقاض بيت الزعامة، البيوت التي أحاطت به أيضا، ذهبت إلى بوابات القرية لتكتشف أحد الحراس، قد أُصيب على أم رأسه، ربما لإغمائه، لكن جمجمته تحطمت، أمام هذه الجثة فقط، بعد أن صالت وجالت في المنطقة طولا وعرضا، أدركت المرأة العجوز حقا أن ما حدث كان هجوما طبعا، ولا شيء روحيّ ولا شيء غامض، إنه ببساطة جنون البشر، من هم المعتدون؟ في الحقيقة، لم يشغل السؤال طويلا تفكيرها، كان عليهم العودة فقط، إذا أرادوا ذلك، فما الذي يمكنهم فعله أكثر؟ لقد مرت النهارات، والليالي أيضا، دون أن يعرف أحد أيهما يسبق الآخرين، ومن أنجبت الأخرى، ومن ستكون في النهاية لها الغلبة واليد العليا.

في أغوار أعماقها كانت ضائعة، لم تتمكن إيبيزي من مساعدتها، عملت العجوز وحدها، لا أحد سيقول للأجيال القادمة إن امرأة وحيدة كانت حريصة على أن تودع تحت الأرض آخر رجال آل المولونغو، لن يحكي أحد هذه الوقائع، لأن المستقبل قد انتهى، هذا الشعب لم يعد له وجود، ولن يكون له أحفاد، أغلق آخر قبر هذا اليوم، ووضعت بقايا مولود جديد التهمته الديدان. وبينما كانت تقوم بمهمتها، قامت إيبيزي بكل شيء لتطرد السؤال: أين أمك، أين هم جميعهم؟ كان الطفل ضائع الملامح، ولو لم تجده في ملكية محددة، لما كانت تعرفت على هويته، على الأرض التي كانت لمولونغو، توقف الموت ليكون مجرد عبور، وممرا بين الأبعاد.

من أجل عودة الموتى بين الأحياء، واختراق أجساد النساء الجاهزات للإنجاب، هناك حاجة إلى القبيلة، التي ستغني اسمهم، وتروي قصتهم، وتتذكر أذواقهم، وأصوات ضحكهم. يجب أن يفكر الناس بهم، وأن يتركوا لهم، بعد وجبة المساء، حصتهم من الطعام. بالنسبة لأولئك الذين ماتوا هنا، لن يكون لهم هنا سوى التراب، القبور ليست عميقة، لم يكن لدى إيبيزي القوة لحفر حفر لائقة، لذا فإن التربة نفسها سوف تلفظ الجثث ثانية في النهاية، سوف تنثر الرياح رفاتهم بعيدا، سوف تحملهم مياه الأمطار، وتبعثرهم، لن يطالبهم أحد، يجب أن نبقى هنا للسهر على حراسة القبور. عندما يحين أوانها، من سيواريها الثرى؟ ومن سيعتني بـإيبيزي التي فقدت عقلها؟ الحياة ليست شيئا جذابا، الحياة هي الالتزام الأول، حتى بعد كل هذه الاضطرابات الماحقة، تظل إيبيزي مرتبطة بفلسفة أسلافها، وهذا كل ما تعرفه، إنها تتمسك به، وقد أرادوا أن يدمروا ذلك، ولهذا السبب أحرقوا الضريح المقدس.

كيفما كان المعتدون، فهم لم يدخروا عقابهم، لكن القدر أراد أن يكون

حاضرا، بذكرياته. يجب مغادرة المكان، في البداية فكرت العجوز أن تأخذ الطريق إلى أرض آل البويلي، لأنها تعرف الطريق، حتى ولو أنها لم تطأها قدمها منذ أيام الشباب، ستكون الأكثر يسرا، كما أنها تفهم لغتهم قليلا، وتعرف أن شعب المولونغو عاش هناك. نعم، سوف يكون آل البويلي درعا ضد النسيان. كانت العلاقات بين الطائفتين دائما ودية، ما هو أمر طبيعي جدا الذهاب للبحث عن ملجأ لدى الأصدقاء؟ تزفر المرأة العجوز تنهيدة طويلة، وهي تظن رؤيتها بصيص نور في الظلام، بأسرع وقت ممكن، توجهت إلى الكوخ حيث قضت إيبوزي سحابة نهاراتها، لن يكون من السهل حثها على الرحيل، لأنها تعهدت بالبقاء هناك حتى عودة طفلها البكر. من المستحيل تركها هناك، لن يعود أي ابن إلى القرية، لدى الداية فكرتها الصغيرة عن اللغة التي يجب أن تستخدم كي تقرر إيبوزي أن تتبعها.

وبينما كانت تعد ذهنيا خطابها أثار انتباهها شيء، كاد الوقت الذي أمضته وهي تواري الجثث تحت التراب أن يربك ذاكرتها، عندما كانت منهمكة كليا في العمل، وهي مضطرة للقيام بأعمال شاقة، نسيت تقريبا بعض الأحداث. ترى فجأة نفسها وهي تلجأ إلى كوخ إليكي. ذلك اليوم الذي تمكنت فيه أخيرا من زيارتها بعد الحريق الكبير، كانت صديقتها في حالة سيئة، ولكن قواها العقلية كانت ما تزال سليمة، حينها حاولت إفهامها أن آل البويلي لهم علاقة بما حدث من اختفاء للاثني عشر ذكرا المختفين. شعرت الداية بغضب صقيعي يخترقها من رأسها حتى قدميها.

يرجع هذا الشعور إلى فهم الحقائق، وليس بسبب العجز، فكرت في اسم آل البويلي، التي كانت صديقها المحتضرة تهمسها بشفتيها. هذه هي الكلمات الأخيرة التي نطقت بها، إذا ظلت دوافع المعتدين غير معروفة له، فإن العجوز تعرف الآن هوية هؤلاء الأشخاص، لذلك، سيكون

من الضروري أن تغير إيبيزي مسار الرحلة إلى مسار آخر.

ربما إذا سارا إلى جودو، سيجدان موكانو ورجاله، ربما إذا سلكا هذا الطريق فسيصادفان إيابي مرة أخرى. ربما، لسوء الحظ، سيواجهان وجها لوجه محاربي آل البويلي في مكان قريب، على أي حال، يجب عليهما المغادرة، فلا يوجد شيء هنا.

* * *

هذه ليست هي الساحة الرئيسية لقرية آل الإيسيدو، حيث جرت منذ بضعة أيام جنازة رجل. هنا، يهمس المحيط في أذن الأرض، يداعبها بفتور، وترويها الأمواج المليئة بالرغوة، لرؤيته هكذا، لا تستطيع إيابي أن تتخيل أنه تغذى على جثث البشر، ومع ذلك، ذرات جسده جميعها تصرخ أنه هناك، هذا هو بلد الماء، القبر الذي ارتفع منه صوت ابنها البكر، ماذا كان سيقول بانا؟ إنها لن تعرف. رجال الميليشيات الذين جاؤوا لإلقاء القبض عليها قادوها حيث تجري الصفقات بين الشخصيات البارزة من آل الإيسيدو وأصحاب أقدام الدجاج. المكان دائري، يشغله الحاضرون كما يلي: في مواجهة الماء، يجلس على مقاعد مرتبة في شكل قوس دائري، هناك سبعة أشخاص من آل الإيسيدو، على بعد خطوات قليلة، يجلسون وظهورهم إلى المحيط كي ينظروا إلى محاوريهم، قام ثلاثة من الغرباء القادمين من البونغو بتكويم قطع نقدية فوق حصير، سيتم تبادلها فيما بعد.

واصطف الأسرى على اليسار، ويحيط بهم صيادو آل البويلي، وعلى اليمين، جنود آل الإيسيدو، مسلحين كل التسلح. من هذا الجانب وصلت المرأة، مدفوعة إلى الأمام من قبل ميليشيا الأمير، مما جعلها تواجه، على الفور، الوجوه المتجهمة للأسرى المقيدين.

بناء على أقوال موتيمبو ثم موكودي، حاولت باستمرار تخيل هذا

المشهد؛ أشخاص مكبلون، حليقو الرأس، انتزعت منهم تمائمهم، وحليهم، وهذا ما لا نجده في المحكيات، لأنه لا يحكى في الروايات، إنها تلك النظرات الطافحة بالاستغاثة، نظرات التحدي أيضا، تلك النظرات تقول إن يوما سيأتي، لكن الليل سيكون طويلا. لم تفسر الحكايات انتفاخ بطن امرأة ألقي القبض عليها، ولا عن وضعية الطفل الذي لم يختّن بعد، العبارة أيضا لم تسمح بتصور هول السلاسل، لأن المرأة ترى هذا المشهد، لأول مرة.

هذه هي المرة الأولى التي تراهم فيها، قد تكون المرأة قد قبلت بأن الأولاد الذين أسروا في بلد آل المولونغو قد ماتوا، تتفحص وجوه الأسرى، كل واحد على حدة، يحدوها أمل مجنون بأن تتعرف على أحدهم، إنهم ليسوا هنا، لكنهم هم من ترى، وهذه المعاناة التي ألحقت بهم، الأيدي على طول الجسم، التنفس قصير، يتساءلون لماذا، تنحدر عيناها لترى الهدايا المتراكمة فوق الحصير عند أقدام الغرباء. هناك كومة من القضبان المعدنية، على ما يبدو إنها أشياء مصنوعة من الخشب تتصور أنها أسلحة خفيفة، وأساور معدنية كذلك، كانت أكثر لمعانا من القضبان، كم يساوي منها من أجل طفل؟ وكم من أجل رجل جاهز للعمل؟ هل المرأة البدينة تستحق أكثر من غيرها؟ أو أقل؟ ما الذي يمكن استبداله مقابل آلام المخطوفين، وأحزان اللواتي لن يرينهم مرة أخرى؟ هل سينتهي هذا عندما يستولي آل الإيسيدو على إقليم آل البويلي؟ يرتجف إيابي، ويعتقد أن أبناء عشيرتها قد تم جلبهم بالقوة إلى هنا، إن اختفاءهم غير المبرر مزق تناغم الحياة المجتمعية إربا إربا. لا أحد سيخبر آل المولونغو، ما كان مصير أبنائهم، ولن تفعل ذلك، لأن أمرها قد اكتشف.

وإذن لن يعلموا أبدا، وسيواصلون حذرهم بعضهم من بعض داخل مجموعاتهم، والمذنبون يتعرضون للقصاص. لم يعد هناك متسع للوقت للسؤال عن صمت نغامبي، ومن العبث التشاور معه، فات الأوان من

أجل تفسير رسالة مالوبا، وحدها الإشارات المرسلة من طرف نيامبي تعرف لماذا يجب على العالم أن ينتهي، وأي حقيقة ينبغي أن تولد بعد انحلاله. صرخ في وجهها أحد الرجلين اللذين اعتقلاها آمرا، وعندما لاحظ عدم فهمها على عينيها الواسعتين، أجبرها على الركوع، ووضع يده على رقبتها، يريد أن يجبرها على أن تخفض رأسها، قاومته دون أن يصدر عنها أي صوت، تتحدى إيابي نظرات علية القوم، من بينهم إيبانكورو، الذي تعرفت عليه بقبعة الزعامة المبطنة بخيوط لامعة، وبوفرة القلائد التي تتدلى من صدره، وأيضا نجولي، التي رأتها في الساحة الرئيسية خلال مراسم الجنازة، وهناك شخصيات أخرى حاضرة، الوجه الوحيد الذي لا تبحث عنه هو وجه موتانغو.

ومادامت لا تريد أن تخفض بصرها، هنا سدد إليها الجندي ضربة، فسقطت إيابي أرضا على وجهها، تقرر ألا تنبس بكلمة واحدة، ليس لديها ما تقوله لهم جميعهم، يبدو أن الرجال أصحاب أقدام الدجاج محرجون من هذا الحادث الذي قاطع تجارتهم. لكنهم، مع ذلك، لم يتذمروا. تفكر المرأة في موكودي، الذي أُخذ إلى البناية البيضاء، ترى أيضا وجه المرأة التي وشت بهم، لا تتحرك من مكانها، عقلها شارد في البعيد، يجعلها وشم لدغة الرمال على جلدها لا مبالية، وهي بالكاد تسمع الوجيه من آل البويلي الذي أخذ الكلمة للحديث بلغة المولونغو: «يا امرأة»، قال، لقد خانتك أوشامك، هذا الرأس الحليق لن يخدعنا، ماذا تفعلين هنا؟ لا تجيب إيابي، صمتها يحمل من الكلمات أكثر مما تستطيع أن تقوله، يهدر بقوة أشد من الطبل ويرعد بقوة أكبر مما تفعله الأسلحة القاذفة للصاعقة.

تكسر الأميرة نجولي الصمت، نسمع قهقهة في صوتها، وليس في صوت الرجل الذي يترجم كلماتها: يمكن أن تحتفظي بدوافعك لنفسك، لقد

أصبح شعب المولونغو من الآن فصاعدا تابعا لنا، صدقيني، سنعرف كيف نعلمهم الاستقامة والانضباط، لقد تسبب لنا الاثنا عشر ذكرا الذين أخذناهم في المرة الأولى بالكثير من المشكلات، بسبب خطئهم، فقدنا هيبتنا، غسلنا الإهانة الآن، اعلمي: كلمتك لا تهمني في أي شيء. تتحدث إلى الشخص الموجود على يمينها، تضيف بضع كلمات، وتستعجل بنقلها لها: سوف نفكر في مصيرك، إما سيتم نقلك إلى أحد أقاليمنا، حيث جمع أفراد قبيلتك، أو سنتركك هنا، حيث سيقوم صاحب السمو إيبانكورو بالتصرف بك كما يشاء، بعد كل شيء، هذه أرضه التي انتهكت حرمتها. يعبّر أمير آل الإيسيدو للمجتمعين عن عدم اهتمامه بهذه المرأة، كان آخر من وطئ هذا البلد من هذا الشعب، مصدرا للاضطراب، ومرة أخرى، اضطر إلى تسليم الرهائن إلى الأجانب، تعويضا عن فقدان تسعة من الأسرى، بقي فقط رجل عجوز غير نافع في أي شيء، ورجل دائم التقصير، وهذا أيضا، لا رجاء منه.

وبما أن هؤلاء من رعاياك، يضيف، فأنا أعتمد على شقيقتنا نجانجو وأنت أيضا لجعلهم أكثر قابلية للمعايشة، وخلافا لذلك، فإن اتفاقياتنا ستصبح لاغية، ولإنتاج أسرى مطيعين، سوف أطبق أساليب الأمس، التي أعطت نتائجها. لم تجب نجولي على الفور، بإشارة من يدها، تدعو عبدها للترويح عنها وبقوة أكبر، تطلب منه أن يحضروا لها شيئا لتروي ظمأها، من المكان الذي توجد به، تظن إيابي أنها تسمع قرقرة أميرة آل البويلي، التي يصلها صوتها وكأنه دويّ. عندما تحدثت مرة أخرى: أيها الأخ، ستتعرف عليه بنفسك، ما حدث كان غير متوقع، أعني بذلك أن القوى الخفية قد شُغلت، بالتأكيد كان الجاني ذلك الساحر العجوز، كان أسره خطأ، لكنه كان بصحبة الشباب المتعلمين عندما ألقى صيادونا القبض عليهم، لا يمكن أن يفعل أي شيء، بعد الآن، لأن «السفينة» قد أخذته.

وأخيرا، بالنسبة لها، فإن فقدان الذكور التسعة من آل المولونغو هو شر من أجل خير، هذا الحدث دفع الملكة نجانجو إلى ضرب هذه القبيلة ضربة مفجعة، كانت عملية كبيرة، والدليل على ذلك أن آل البويلي أخذوا العملية على محمل الجد، للقبض على العشيرة كاملة، كان من الضروري نشر الرجال عبر الأدغال لعدة أيام. لحسن الحظ، كان آل المولونغو لا يغادرون قريتهم إلا قليلا، كانوا مشغولين بالطقوس الجماعية قبل رحيل زعيمهم، هذا ساعد كثيرا على تنفيذ خطة محكمة.

الآن صاروا من دون أرض، ومحرومين من وزير طقوسهم الدينية ومن قائدهم، سيكون آل المولونغو الأسرى الأكثر طاعة من بين الأقوام جميعهم، وبعد تشتيتهم عبر بلاد آل البويلي الشاسعة، سيتوقفون بسرعة عن التحدث بلغتهم، ولن يكونوا قادرين على لمّ شمل مجموعتهم التي سيختفي اسمها، وبهذا سيمتصهم آل البويلي، فيشكلون، من الآن فصاعدا، طبقة من التابعين الخاضعين، الجيدين للمقايضة، إنها حيلة القوة، وقد نجح آل البويلي في ذلك دون أن يخوضوا عناء الحرب معهم.

كان مترجم آل البويلي يترجم عن قصد كلمات أميرته قصد إثارة ردة فعل لدى إيابي، كانت المرأة تصغي فقط إلى كل هذه الثرثرة موجهة انتباهها الآن صوب المحيط، رأته، عندما قادها جنود إيبانكورو إلى ملكهم، هنا، تسمعه كما لم يحدث أبدا، من قبل، تسمع صوت ابنها البكر داخل زمجرة الماء، يبكي السلام الذي لن يمنح له، تفكر إيابي أنها نسيت إناء التراب في الكوخ، لقد حافظت عليه محافظة كبيرة وضمته إلى جسدها تقريبا بشكل مستمر. في الليل كانت تسند إليه رأسها كوسيلة كي تحملها الأحلام إلى الأيام المنصرمة حيث المحبة والأفراح المشتركة، في هذه اللحظة تريد أن تمسك حفنة من التراب المحتفظ به في الوعاء وتلقيها في الماء قبل أن تنهار، الأمر سواء عندها، فهذا جسدها وهي من ستمنحه

للبحر، لكي يتوقف عذاب الموتى دون قبور، فلينزل السلام، حتى لو تعرض الانبعاث للخطر. تقف المرأة واثبة على قدميها، ثم تندفع راكضة بكل ما ملكت من القوة في اتجاه المحيط.

* * *

تسيران جنبا إلى جنب، متقاربتان جدا، تتقدمان بخطوات وئيدة نحو الجودو، يمنعهما الغطاء النباتي من السير بشكل أسرع، لا تملكان غير جنجر لقطع الأغصان المتمردة. إلى جانب ذلك، لديهم الوقت الكافي، الأمر هكذا يجري، عندما لا يعرف المرء إلى أين المسير: ما من حاجة للعجلة، العجوز هي من تحمل سلة المؤونة التي تحتوي على قليل من الطعام، لم تأخذا الكثير منه، كما أنهما ليستا جائعتين. عندما يخيم الليل، تتوقفان عن المضي قدما، وتصليان طلبا للمساعدة في هذه المحنة، وتسلمان نفسيهما لسلطان النوم، لا يشغل الخوف بالهما، ما الذي يدعوهما إلى القلق عندما يكون المرء فاقدا لكل شيء؟ عند منعطف الطريق، يمكن أن تصادفا حيوانا كاسرا، إنسانا شريرا، جنيا خبيثا، لكنهما لا تباليان، إحداهما تفكر فقط في العثور على ابنها، لهذا السبب وافقت على مغادرة القرية، أخبرتها العجوز أن هذه هي الوسيلة الوحيدة.

سنسلك الطريق المؤدية إلى الجودو على خطى زعيمنا، في هذه اللحظة التي أحدثك فيها يجب أن تكون هناك أخبار عن موكودي، هيا، تعالي..

كذبت العجوز، لكن لم يكن أمامها خيار آخر، وإلا فإن إيبيزي لن تتحرك من مكانها، جامدة هناك، ويداها تطبقان على أذنيها، وعلى شفتيها همهمة باسم ابنها البكر، لا تعلم العجوز ما إذا كانت رفيقتها ستبقى على قيد الحياة من عناء الرحلة، إنها ضعيفة للغاية، بعد أن قضت أياما دون طعام، لم تغتسل أيضا منذ أن قطنت في الكوخ المشترك،

الرائحة المنبعثة من جسدها تعذبها، ومع ذلك، ليس هذا هو ما سيجعل إيبيزي تتخاذل، تعد هذه الرائحة بالنسبة لها لطيفة تقريبا مقارنة بما كانت عليه الجثث في حالة التحلل، والتي كان عليها أن تنظفها قبل أن تودعها تحت الأرض حيث لن تحتفظ بها، لفترة طويلة. هذه الجثث لن تغذي تراب الوطن، لن تتمكن النباتات من النمو هناك، في كل الأحوال، هم موتى وعديمو الفائدة، موتى يناقضون مجرى المعقول.

وخلاصة القول، فهي لم تكذب تماما على رفيقتها في السفر، تحاول أن تتبع المسار الذي سلكه الزعيم، دون أن تسمح كثيرا لنبض الأمل بأن ترتفع وتيرته في قلبها، تحبّ التي كانت لفترة طويلة مولدة آل المولونغو قبل أن ترحل إلى العالم الآخر؛ تحب أن تسمح لها برؤية أفراد على قيد الحياة من قريتها، وأن تتمكن من الحديث عن الرعب. من المستحيل أن نرى هذا، ونلزم الصمت، إنها لا تستطيع التحدث إلى إيبيزي التي لا تعرف شيئا إطلاقا، إذا لم ينطق اسم ابنها، كل ما ترجوه العجوز ألا تموت وهي تحمل هذا الألم في داخلها، إنه لأمر فظيع بالفعل أن يتخيل المرء فكره من دون مجتمع ليسهر على رعايته. منذ فترة قصيرة، رفضت فكرة التناسخ للعيش مرة أخرى على هذه الأرض.

الآن، فإن احتمال أن تكون ذات يوم روحا دون روابط، جعلها تبكي، سيدفعها البكاء إلى الانهيار، ولن تتعافى منه إذا بدأته، حينئذ، تفكر بلا توقف في الأسئلة نفسها، إذا كان آل البويلي فعلا من قاموا بهذه الأفعال، فماذا فعلوا بأولئك الذين لم يجدوا رفاتهم؟ ماذا فعلوا بالذكور الاثني عشر الذين اختفوا ليلة الحريق الكبير؟ وقبل كل شيء، لماذا؟ لم تكن هناك أي مشكلة بين الشعبين، إذا كان آل البويلي في حاجة لأي شيء، فإن جيرانهم قد تعهدوا بتقديم المساعدة، ولكان ذلك شرفا لهم، تظن العجوز أن شعبها، بلا شك، حرض عليه تاريخه، فقد عاش كثيرا

منكفئا على نفسه، كان أطفال «إيميني»، الذين تعرضوا للكدمات بسبب اضطرارهم للفرار أمام إخوانهم، قد جرحوا بسبب النزوح الجماعي ثم المنفى، اعتقدوا أن بإمكانهم المحافظة على أنفسهم بالامتناع عن معرفة المزيد عن العالم، ربما كانوا سيجدون حلفاء لمساندتهم، لم يعودوا يطلقون اسم بلادهم السابقة، التي لم يعودوا إليها أبدا، وهذا كله من أجل أن يسود السلام، قل: لقد مرت الأجيال، لكننا ما زلنا دماءكم، لذلك، دعونا نعرف بعضنا البعض.

هم وحدهم يمكن أن يفعلوا هذا، أحفاد مودورو لأنهم لا يعرفون أين يجدون بلاد إيميني، ومع ذلك، فإن آل المولونغو لم يقوموا بالرحلة في الاتجاه المعاكس، من ميكوندو إلى البونغو، ليعبروا مرة أخرى أرض الجذور، عاشت القبيلة ككيان ولد نفسه بنفسه، وعانت إرهابا بسبب العنف، فقد أنشأ طقوسها، وتحضرها، من أجل حل النزاعات بواسطة الكلام. جسّد موكانو هذه الفلسفة بطريقة بارعة، هل أخطأ بذلك؟ لا يعتقد ذلك، بينما يجب علينا أن ندرك مخاطر مفاهيم مماثلة عندما نشارك الأرض مع آخرين يتصورون الحياة بشكل مختلف، دون الاعتقاد بذلك حقا. تقول إيبيزي لنفسها إن زوجها مونديف، كان يمكنه حماية العشيرة.

تتذكر الأيام الأولى من زواجهما، عندما أخبرها بالتاريخ السري للقبيلة، الصيغة الغامضة من ملحمة آل المولونغو في عهد إيميني، مؤسسة العشيرة، كان وزير الطقوس الدينية قويا بما يكفي ليجعل شعبا بأكمله يختفي عن الأنظار، الحيوانات المفترسة، سواء كانت الإنسان أو الحيوان، لكنه لم ير أولئك الذين اتبعوا الملكة، وهكذا تمكّنوا من السير طويلا، من البونغو إلى الميكوندو، ولم يتوقفوا إلا عندما يكون باطن أقدامهم قد اقترن بالأرض.

لم يكن موندين، الذي كان قد اعترف لها بأسرار كثيرة، قد ذهب بعيدا ليكشف لها أسرار ممارساته، لهذا لم تكن تعرف ما إذا كان يعرف الطريقة

لإزالة قرية بأكملها لمعتدين محتملين. كان من الضروري، لتنفيذها، أن يكون على بينة من التهديدات المحتملة. لم يكن المرشد الروحي المرتبط بالملكة إيميني بحاجة إلى الطلب من نغامبي، ليعرف أن قوى الشر تنتشر داخل العالم المعروف أو حتى خارجه، بالابتعاد عن شعبه أمام خطر الموت، وأن يضطر إلى وضع نفسه في طليعة من يستكشفون المناطق المجهولة، فإن ذلك يتطلب بعض الاحتياطات، بالنسبة لآل المولونغو، حيث كانوا يعيشون عكس ذلك، فقد وجدت القبيلة ملاذا من السلام، فانكمشت داخله. كان موندين، مثل بقية المجتمع، قد تفاجأ بالنيران المهولة، ولم يشك في أصلها، اليوم وقد اختفى والقرية أيضا، لقد ثبت أن رؤى إليكي غير دقيقة كي تشير إلى الإجراء الواجب اتباعه، لم يكن موسيما أيضا، الذي أرهبته مسؤولياته الجديدة، يعرف ماذا يفعل.

اختطفه الموت وهو يحاول مرة أخرى أن يجعل نغامبي يتكلم، هل صار الأسلاف لا يسمعون نداءاته، أم أنه فشل؟ لن نعلم حقيقة ذلك، كان يجب عليه أن يبقي عينيه مفتوحتين على العالم المرئي، هذا كل شيء.

ماذا ستقول لإلجانيا، وهي التي تريد بشدة رؤيته مرة أخرى؟ إذا حدث ذلك، فسيكون اللقاء مصدر حزن وليس سببا في التهدئة والسكينة، سيتطاير قلب موكانو مزقا، ويرغب أن يرى بأم عينيه ما باتت عليه الأراضي الموروثة عن أسلافه، وما تبقى من الشعب الذي كان مسؤولا عنه، سيلقي نظرة على المقام المقدس حيث رفات الأسلاف، والذي تحول إلى ركام من الرماد، سيتسلق التل حيث ينتصب بيت الزعامة، سيتأمل الأنقاض المتفحمة، وسيلتقي صراخه الغاضب مع الفراغ، سيختنق، حين تغمره رائحة الموت التي تغرق البلاد، ثم يتذكر زيارته لملكة آل البويلي نجانجو، سيكتشف أنها كانت تكذب، مدعية أنها لا تعرف شيئا عن أبناء آل المولونغو المفقودين.

سيدرك أنها قادته عن قصد إلى طريق غير صحيح، من أجل إرسال صياديها لمهاجمة القرية، سيرغب بمواجهتها ويستعد لإعلان الحرب، للمرة الأولى، في تاريخ قبيلته، سيدرك موكانو أن ثمانية رجال فقط هم من بقي بجواره، حراسه المقربون، لن يفكر حتى طفل في محاربة آل البويلي بهذا العدد القليل.

بالتأكيد، سيكون اللقاء شاقا ومؤلما، ومع ذلك، من دون هذا الاستشراف، فليس أمام إيبيزي سوى أن تنهار هنا، في أي مكان، منتظرة نهايتها، لا تستطيع أن تفعل ذلك، فقد تدمر كل شيء حولها، لكنها نجت من موت محقق، يجب أن يكون هناك سبب لذلك. أثناء السير، تسمع رفيقتها تنشد أغنية للأطفال، وتصفق بيديها بطريقة إيقاعية، وكأنها تحتضن طفلا في خيالها، وإذا تمكنت هذه من أن تجد طفلها البكر، ومعه عقلها، فكيف ستتحمل اختفاء أطفالها الآخرين؟ من الأفضل لها أن تبقى تائهة بين ذكرياتها، وألا ترى فقط إلا الأيام السعيدة. تضع العجوز ذراعها حول كتفي إيبيزي، وتسحبها إلى حضنها، تضحك المرأة، وكأنها طفلة، لا تلاحظ كلتاهما أنهما قد وصلتا للتو إلى منطقة مستنقعية، من المستحيل أن تسيرا خطوة أخرى، تنظر إيبيزي إلى الوحل الذي بلغ ساقها، تنبعث منه رائحة مشابهة لتلك التي تغطي القرية التي غادروها، تلتفت العجوز، فتكتشف أنهما لا يمكنهما الرجوع إلى الوراء، والبحث عن طريق آخر.

محاصرتان في هذا الطين اللزج، بالكاد يمكنهما تحريك أصابعهما، الأرض الجافة لا تلوح في الأفق، لا شيء في هذه الأنحاء يشير إلى وجود سكان، أو شخص قادر على سماعهما، إذا صرختا طلبا للنجدة لا ينبغي لهما أن تستنفدا قواهما بنداءات لا جدوى منها، ولا أن تضعفا في هذا الطين الكريه الرائحة. تتخيل إيبيزي برعب ما سيكون عليه حالهما لو

أنهما علقتا في هذا الطين، واستنشقتا رائحته وامتلأ فمهما به. إيبيزي لاحظت المكونات الغريبة للطين، فحاولت أن تغوص بيديها داخله، تشعر العجوز بأنها غير قادرة على أن تتحمله لفترة طويلة، تلقي نظرة بحثا عن غصن، عصا، أو حتى نبات متسلق، شيء ما يمكن الاعتماد عليه، والتمسك به. في تشابك الجذور المندسة من الشجيرة التي لا تعرف اسمها، ميّزت المرأة التي تعد مولدة آل المولونجو شيئا، فدققت النظر لكي ترى بشكل أفضل، فاغرورقت عيناها بالدموع حين تعرفت على إحدى مبوندي الزعيم موكانو، وصل هو ورجاله إلى هنا، هل واصلوا طريقهم؟ هل نال منهم هذا الطمي؟ لا لقد كانوا تسعة، موكانو وثمانية من جنوده، تريد أن تصدق أنهم نجوا من هنا. من دون حراك، تفحصت جيدا الحذاء: قطعة جلدية مصنوعة من قبل أمهر الصناع الحرفيين في القبيلة.

يجب أن يكون إلجانيا قد فقدها، أين يمكن أن يكون الآن؟ لا يوجد أحد، أغصان هذه الشجيرات ضعيفة جدا لتحمل وزن أي شخص يبحث عن مأوى للهروب من هذا الطمي. تشعر إيبيزي بالإنهاك الشديد، إلى درجة لم تعد تشعر بالذعر، على الرغم من أن هذا ليس سببا كافيا، إلا أن رؤية وجود شيء ما، غير بعيد، ينتمي إلى موكانو، ولّد لديها رغبة في الاقتراب من باقة الشجيرات، هي لا تعرف ما ستفعله بمجرد وصولها إليها، لكنه هدف جيد كأي هدف آخر. برفقة إيبيزي إلى جانبها، حددت لنفسها هدفا، وبقدر ما هو متواضع، فإنه الشيء الوحيد الذي ينبغي القيام به، استمرتا في التحرك، إذا أدركهما الليل في هذا المكان، فإن إيبيزي سترغب بالجلوس أو الاستلقاء. المرأة العجوز ليست في عجلة من أمرها لتشاهد هذا العرض، إذا كان يجب عليها أن تعترف بالهزيمة، فإنها حاولت المستحيل، فيما مضى.

تمسك إيبيزي بثبات إلى جانبها، تركز العجوز على قدميها، مستعملة

إرادتها كلها لاقتلاع رجل واحدة، واحدة على الأقل من الوحل الذي يبتلعهما. فرحة تستسلم للعناق كما تفعل طفلة، بل وبقوة حتى نزل ثقل الجهد كله على كتفي الداية، أخذت العجوز تغني لكي تمنح نفسها الشجاعة، لكن بإحساس خال من الفرح، كتلك الأغاني التي ابتكرتها نساء قبيلتها للتعبير عن ليلة الحريق الكبير واختفاء أبنائهن، وعزل عشر نساء منكوبات داخل كوخ معزول. الأغنية التي تترنم بها إيبيزي معدة كي تغنيها مجموعة من النساء.

وتحكي ما تعرفه عن الأيام الأخيرة لشعب المولونغو، وتسمي هؤلاء الذين لم يروا بعد الحريق، وتسمي بالاسم أيضا النساء اللواتي فقدن أبناءهن، متذكرة لحظات ولادتهن. تتذكر إليكي، التي كانت بمثابة أختها، كان من الضروري، قالت، أن يذهب أحدنا وينتظر الآخر في أرض الموتى. تفكر العجوز في ابنها البكر، الذي كان عليها أن تنتزع رأسه من الدجاجة، تفكر في زوجها، سيد الأسرار الغامضة، الذي لم يتجلَّ لها، تستدعي الزعيم، وتوجه أسئلة إلى حكماء القبيلة، الذين كان عليها أن تواريهم الثرى.

ساقاها يصيبهما الخدر، لا تترك إيبيزي من حضنها، ولا تتخلى عن مجهودها، يبدو أنها تمكنت من تحريك قدمها اليمنى قليلا عندما تناهى إلى سمعها صوت، أحدهم يغني معها، ويتبع إيقاع المرثية الغنائية المرتجلة، وبطريقة غريزية يعثر على الجمل المفقودة من الأغنية، إنه غناء بلغة آل المولونغو ترافقها بها امرأة قائلة: إيي، عمتنا، تعلمت ذلك، إيي، عمتنا، هذا وأكثر. تصمت إيبيزي، تصغي، تبحث، تعرف هذا الصوت، وتعتقد أنها تعرفت عليه، لكنها تحتاج إلى رؤية وجه المرأة، ثم ستعرف إذا كان هذا ليس خدعة جنيّة شريرة، بين فروع شجيرات تنمو على بضع خطوات، وليس بعيدا عن المكان الذي تريدان الوصول

إليه. لا تكتشف العجوز أي شخصية مألوفة، هناك فقط فتاة وحيدة وصامتة، صبية مجهولة جاثمة فوق جذع شجرة وهي تحدق بها، الطفلة تمد ذراعها، خلال لحظة، لا ترى إيبيزي هذا العضو فقط، الصوت الآخر يقول دائما: إيي، عمتنا، لقد علموني هذا، إيي عمتنا، هذا وأكثر من ذلك. لهذا السبب فقط، انتهت الداية إلى النظر في الاتجاه الذي تشير إليه، حينئذ تعرفت عليها، إنها إيابي.

* * *

جاء الذين يعيشون خلف هذه المستنقعات للبحث عنهما، احتاجوا إلى بعض الوقت كي يقتلعوا جسد العجوز الصخري من الوحل، ثم اقتادوهما على متن طوفهم، على ضفاف نهر يسمونه «كوا»، وهي الكلمة التي تعني، في لغتهم، العدالة، رحبت بهما نساء القبيلة، وأقامتا في الكوخ المخصص للقادمين الجدد، وهنا تفاجأتا بوجود موسينغا، زوج إيابي، المخبر المكلف من طرف إلجانيا، كان الرجل قد توجه إلى الجودو مقتفيا أثر سيده، بعد مدة من مغادرة هذا الأخير.

كان قلقا، فقد أثبت المجلس أنه غير قادر على إدارة القبيلة، كان قد وصل إلى المستنقع عشية اكتشاف رجال البيبابيدي جثة موكانو، ومنذ ذلك الحين، عولج من الحمى التي أصيب بها أثناء الليلة التي قضاها في الجفت، محاطا بجثث متحللة، لكن حالته تحسنت بعد عودة إيابي، وما إن رآها حتى همس: ستكونين، بقليل من التدريب متعقبة ممتازة. بنبرة رزينة، سألت: لماذا لم تأت لرؤيتي في الكوخ الجماعي؟ هل كنت تعتقد أيضا أنني قتلت ابننا؟ حرك الرجل رأسه علامة على النفي، لم يصدق ذلك فحسب ولكنه كان موجودا خلسة حول الكوخ تقريبا كل يوم. كان من المستحيل بالنسبة لي الاقتراب من الكوخ، لكنني لم أتخل عنك أبدا، ألست تعرفينني جيدا أفضل من ذلك؟

بينما كانت العجوز ورفيقتها ترتاحان، أخذت المرأة التي تكبدت مشاق الطريق من أجل العثور على بلاد الماء تحكي وقائع رحلتها، أجل إن بلاد الماء موجودة فعلا.

يمتد من الساحل حتى الأفق، لا يمكنك المشي فوقه أو قياس امتداده، يقولون إن ما وراءه، توجد أراض، يسكنها البشر. أتى الغرباء أصحاب أقدام الدجاج من إحدى تلك الأراضي البعيدة، روت إيابي كل ما رأته، وسمعته، وخبرته منذ مغادرة القرية، لم تحذف أي تفصيل، ولا حتى عن سر موتها. علمت إيبيزي والعجوز أنها لم تر أي منفذ أكثر شرفا، من أن تلقي بنفسها في المحيط، قد يجد سامعوها صعوبة في تخيل هذه المساحة المائية، حينما يكون النهر، في نظرهم، ظاهرة طبيعية فعلية، فالمحيط لا يعني أي شيء، لكنهم استمعوا، وارتجفوا، وبكوا، وكتموا الصرخات، وبكوا، ولعنوا بالشتائم، وبكوا بكاء حارا..

روت إيابي ما حدث لها تحت الماء عندما غرقت، كان بانا هناك، ولأنه لا يستطيع أن يظهر نفسه على أرض الأحياء، كان يتقمص الوجوه التسعة التي تحدثت بصوت واحد: عندما أُجبرنا على دخول جوف السفينة، كان هناك أسرى آخرون، من بلدان لم نكن نعرفها، ثم فصلونا عن بعضنا لكي لا يكون بيننا اتفاق أو تواطؤ.

كان موكاتي صاحب الفكرة، لكننا أيدناه واتبعناه، غنّى لكي يكلمنا، مقترحا التخلي عن أجسادنا، بهذه الطريقة سنعود إلى القرية، راجين من أمهاتنا إعادة ولادتنا من جديد، لقد حذرنا وزير الطقوس الدينية، وفي مثل هذه الحالة هذا الاجراء غير مسموح به.

لهذا منعنا من ترك أجسادنا من أجل الهروب من الاختبار، هل كان يجب أن نصغي إليها؟ لم تتعرف علينا أمهاتنا، عندما حاولنا استعادة أجسادنا، ألقى الرجال أصحاب أقدام الدجاج أجسادنا في البحر، لهذا

السبب نحن هنا، وحده أخونا موكودي والعجوز مونديين مكثا على متن السفينة، كان يجب أن يأتي شخص ما، وأن يتم سماعنا..

نقل مونديين رفقة الأسرى المجهولين، وإذا بقي على قيد الحياة بعد العبور، فسيكون في الوقت الحاضر موجودا في أحد البلدان التي تقع في الطرف الآخر من المحيط.

لا عجب، إذا كانت روحه يجب أن تجوب كل هذه المياه لتتجلى، لهذا لم نسمع عنه أي شيء، في غضون ذلك، نقل موكودي إلى اليابسة، كان في حالة سيئة، إلا أن الغرباء لم يكونوا راغبين في خدماته، قالوا إنه أصيب بالذهول. وبعدما سمعت كلام المفقودين استيقظت إيابي فوجدت نفسها داخل المبنى الأبيض على الساحل، فقد لحق بها جنود آل الإيسيدو بناء على أوامر ملكهم وغطسوا في البحر خلفها لإنقاذ جسدها المقاوم من الغرق.

يجب ألا يعمد الأسرى الذين كانوا سيُتبادلون، أو الرؤوس الحليقة التي من شأنها أن تعصف بالصفقة، إلى محاولة تقليدها، لهذا وضعت في السجن الذي تتقاسمه مع موكودي داخل زنزانة انفرادية.

ظهر موتانغو في منتصف الليل، وكان الرجل، الذي يعمل الآن في خدمة أميرة آل البويلي، قد قدم رشوة للحراس لكي يدخل إلى المبنى، لم يكن لديه الوقت ليحكي قصته، فقد حرم من الكلام منذ أن قطع لسانه، فلم يتمكن من التعبير إلا بواسطة الإشارات، موضحا أنه سيحل مكان المرأة، ويمكنها أن تذهب بعيدا. لا أحد سيعترض طريقها، كل ما كان عليهما القيام به هو أن يتبادلا ملابسهما، وفي حالة الهزال التي أصبح عليها لم يجد صعوبة لارتداء ملابس إيابي، ويوهم الحراس أنها هو حتى تشرق الشمس عندما ستخرج سيعتقدون. يجب أن تسرع. التفتت تجاه موكودي ورجته أن يرافقها، سيذهبان معا لانتظار العبّارين، سيرابضان بالقرب من المستنقعات.

كان شعبهما قد ألقي عليه القبض، ونقل خارج أراضيه، لم يعودا يملكان قرية، لم يكن الرجل بحاجة إلى البقاء في بلاد الإيسيدو ليتذكر إخوته، ولن يلوموه بعد الآن، لقد ماتوا. ولتكريمهم، كان عليه أن يقبل البقاء على قيد الحياة، وهكذا انطلقا كلاهما يحثان الخطى، هذا ما ذكرته المرأة. في الوقت الراهن يجب أن تفهم إيبيزي لماذا طلب ابنها البكر ألا تدعوه موكودي أبدا، كان يأمل في الوجود بطريقته الخاصة، على ضفاف نهر كوا.

ما لم يستطع إخوته إنجازه، سيحققه باسمهم، الأم والابن يقفان بالقرب من الماء، الأطفال يلقون شباكهم لصيد الأسماك، والأكثر موهبة يمسكونها بأيديهم العارية، تسأله: ألهذا السبب، لم تجب على نداءاتي؟ لأنك لا تريد حمل هذا الاسم بعد الآن؟ يجيبها: لم أكن أسمعك لأنه لم يعد اسمي، الذي كنت تحدثينه مات مع الآخرين، أنا بنفسي لا أعرف من أنا، لكننا سنكتشفه معا، إذا كنت ستساعدينني، في مكان أبعد. كانت إيابي تتحدث إلى إيبيزي، وكانت العجوز تصغي بانتباه، وهي تبتسم عندما يأتي صوت إليكي هامسا في أذنها: استمعي إليها إذن، أينما ذهبت، فهي ابنة إيميني، تقول المرأة إن هذه الأرض تسمى بيباييدي، إنها البلاد التي استوطنها الهاربون من الأسر، هنا، تختلط ذكريات شخص بذكريات الآخرين، ليُنسَج تاريخ.

تسأل العجوز ما يمكن للمرء أن يصبح عليه دون مساعدة من الأسلاف، دون الاعتراف، على أرض الواقع، بأثر مرورهم، كيف يمكن المضي قدما، إذا لم يسبق للآخرين أن خطوا الطريق. تجيب المرأة أن الأسلاف ليسوا خارج النفس، بل داخلها، هم في قرع الطبول، في طريقة العيش، في المعتقدات التي ما تزال تنتقل جيلا بعد جيل.

يسكن أولئك الذين سبقوهم على أرض الأحياء إلى اللغة التي يتحدثون

بها في هذه اللحظة، والتي ستتغير خلال الاتصال باللغات الأخرى التي سيلقّحونها بقدر ما سيملؤونها. يوجد الأسلاف هنا، لا الوقت ولا المكان يحد من وجودهم، لذلك يعيشون حيث يوجد أحفادهم.

توفي الكثير من أبنائنا، تضيف، لكن ليسوا جميعهم ماتوا، إلى حيث أخذوا، سيفعلون كما نفعل، حتى ولو بصوت منخفض، سيتحدثون لغتنا، وعندما لا يستطيعون نطقها، فإنها ستبقى وسيلة تفكيرهم، وإيقاع عواطفهم.

تقول المرأة إن المرء لن يستطيع تجريد الناس مما تلقوه أو تعلموه أو عاشوه، هم أنفسهم لن يستطيعوا، إذا كانت هذه رغبتهم، البشر ليسوا أواني كالاباش فارغة، لأن الأسلاف حاضرون هنا، إنها تحوم فوق الأجساد التي تعانقها، يغنون عندما يعلوا صخب الأعراس، ينتظرون فوق عتبة الكوخ حيث تعمل المرأة، يوجدون في رحم النساء الحوامل، في رغاء الأبناء حديثي الولادة.

يخبر الأطفال الصغار عن مجالات الروح التي عرفوها قبل أن يحلّوا بيننا، إذا استطعنا فهمها، فسنعرف ما أرواح الأسلاف التي تسكن في هذه الأجساد الجديدة، إلى جانب ذلك، نحن نعرف ذلك في بعض الأحيان، نحن نرى ذلك، إذا كنا منتبهين ويقظين، يكبر الأطفال ويتعلمون كلمات الأرض، لكن وشائجهم تظل موجودة بمناطق الروح، الأسلاف موجودون هنا، وليسوا محبسا، لقد أعدوا عالما، وهو الإرث الأغلى قيمة: ضرورة الاختراع للبقاء على قيد الحياة.

تقول المرأة يجب أن نبكي الموتى، غادر تسعة فتيان من القبيلة أجسادهم، كي تعود أرواحهم إلى جانب أقاربهم، في هذا البلد الجديد، وطن البيبابيدي، ستنظم مراسم الدفن لأجلهم، سنواري جذوعا من شجرة الماكوب تحت التراب، وخلال تسعة أقمار، سنشيّد فوق القبور كوخا سنسمّي كل عمود يحمله باسم أحد القتلى، سيكون ضريح القرية

تسعة رجال قتلوا، بينما ذهبوا للبحث عن أبناء ضائعين من آل المولونغو. موكانو وحراسه ماتوا في المستنقع القريب من البيباييدي، فوجئوا بالأمطار الغزيرة التي استمرت لعدة أيام، فغرقوا هناك. يحتمي السكان هنا، بمنازلهم أثناء سوء الأحوال الجوية، فلم يتمكنوا من مساعدتهم، إنها الرائحة التي نبهتهم، فبمجرد انتهاء الفيضان، كان الزعيم قد تمسك بجذور شجرة التاندا، لهذا تعفن الجزء العلوي من جسده تحت الشمس.

وذات ليلة، مباشرة بعد هذا الاكتشاف، بدأت زهرة تسمى المنغنيغ تنمو بوفرة في هذا الجزء من المستنقعات، وشيئا فشيئا بدأ الماء يكشف ما ابتلعه: الأمتعة، تمائم جنود آل المولونغو: مبوندو الزعيم، وفردة المبوندي التي أمسكها الطمي، أما الفردة الثانية فقد عثرت عليها إيبيزي فيما بعد، الإيكونغو خاصته، وعصاه المخصصة للحكم.. كل هذه الأشياء سلمت للعجوز، في انتظار إقامة الضريح.

تقول المرأة إن سبعة وعشرين وضعوا تحت الثرى في البلاد السابقة، ستنقل أسماؤهم هنا، حتى يعلموا أن شعبا يعترف بهم ويلح في منادتهم.

تومئ العجوز برأسها موافقة، خوفا من سوء فهمها، لم تجرؤ على قول: كل شيء على ما يرام. حينئذ همست: دعونا نرحب بالنهار، حينما يأتي، وبالليل أيضا.

ليونورا ميانو

باريس، ديسمبر 2012

قاموس مصطلحات[5]

بيتامبي (مفرد: إيتامبي): الصنادل.

ديباتو (جمع: ماباتو): القماش.

ديندو: طعام يعد بمناسبة نهاية محنة، يعد بمكونات غير عادية.

إكونغو: خوذة ملكية، تلبس أثناء المعارك.

إليمبي: الطبل.

إتينا: يوم من الأسبوع.

إنيي: صورة نسوية لإله.

إيو: الأم.

كواسي: يوم من الأسبوع.

إلجانيا: الزعيم.

الجدو: الشرق.

مالوبا (مفرد: لوبا): الآلهة الثانوية، التي تظهر نفسها، على سبيل المثال، في العناصر.

مانجوا: الملابس مع حاشية، من الألياف النباتية، والتي تبدو على شكل تنورة تلبس في أوقات الحداد.

ماو: نبيذ النخيل.

مبين: الغرب.

مبوا: المطر.

مبوندي: أحذية يرتديها الزعيم عندما يسافر.

ميكوندو: الجنوب.

(5) لم تترجم الكاتبة أسماء النباتات أو الأشجار، حيث إنها لا تعلم المصطلحات المقابلة لها بالفرنسية. كما لم تفسر بعض المفاهيم الأخرى للأسباب نفسها، أو عندما لا يكون هناك حاجة لذلك.

ميسيبو: الكون.

مبوندو: عباءة ملكية، من جلد النمر.

موكسي: يوم من الأسبوع.

موسوكا: قبعة ملكية.

مويتيتي: الظلام والظل.

نجامبي: الوسيط الروحي.

نغومو: الطبل.

نيانغكمبي: لوبا العقم.

البونغو: الشمال.

السانغو: العنوان المعطى للرجال كدليل على الاحترام، يترجم أيضا بـ «السيد» أو «المولى» حسب الحالات.

سانجا: مئزر.

ووز: الأرض.

شكر

أشكر ساندرا نكاكي، التي منحتني، في سبتمبر 2010، تحقيقا بعنوان «ذاكرة الأسر» من إنجاز لوسي مامي نور نكاكي، وهي أم ساندرا. ذاكرة الأسر[6] ليس نصا لكنه تقرير قصير عن مهمة، وكان الغرض منه معرفة ما إذا كانت توجد في أفريقيا جنوب الصحراء ذاكرة للاتفاقية عبر الأطلسي، بمساعدة من الجمعية الأفريقية للثقافة واليونسكو. أظهرت الدراسة الاستقصائية التي أجريت في جنوب بنين وجود تراث شفهي في هذا الموضوع، وأهمية الأبحاث التي ما تزال قيد التنفيذ، بما في ذلك في بلدان جنوب الصحراء الكبرى الأخرى.

لم يكن الهدف من التقرير أن تقرأه كاتبة روائية، قد يعتبر الكثيرون مثل هذه الوثيقة مملة، وتقنية في بعض الجوانب، ومع ذلك، وجدت تأكيدا من حدوس قديمة، أصبحت نوعا من الهوس، خصّبت قضيتي الأدبية، التي تتكرر في كتاباتي. كنت قد قرأت لسنوات عن معاهدة عبر الأطلسي، وموضوعات أخرى تتعلق بتجارب الصحراء الكبرى أو المنحدرين من أصل إفريقي، ومع ذلك، لم تكن «موسم الظل» لتظهر للوجود بهذا الشكل من دون ذاكرة الأسر، ويرجع ذلك في حد كبير إلى العنوان الذي منح لهذه الوثيقة، ما ذاكرتنا، في الواقع، عن الأسر؟ هل يمكننا أن نتذكر هذه الاقتلاعات دون أن نذكر من الذين عاشوها وكيف كانوا ينظرون إلى العالم؟

ولكي نصفَ الحياة اليومية للمجتمعات الصحراوية التي عاشت قبل الاستعمار، كان من الضروري إجراء بعض البحوث. كان من المهم، إعادة توطين هؤلاء السكان، لاكتساب معرفة جيدة بجميع جوانب حياتهم،

(6) الجمعية الإفريقية للثقافة واليونسكو، 1997.

وفكرهم. وبنوع من التعصب البحث، استندت إلى فضائي الثقافي المرجعي. إفريقيا الوسطى البانتو، التي كانت معنية أيضا بمعاهدة عبر الأطلسي، رغم أنها لا تتحدث عنها إلا قليلا، وفيما يتعلق بالأساطير والمعتقدات، وكذلك الملابس، على سبيل المثال، فإن موسم الظل يدين بالكثير لعمل الأمير ديكا أكوا نيا بونامبيلا، وعلى وجه الخصوص، وكتابه بعنوان «أحفاد الفراعنة عبر إفريقيا»(7).

أخيرا وليس آخرا على الإطلاق، أشكر عائلتي..

إن اللغة المستخدمة في جنوب الصحراء الكبرى هي الدوالا المستعملة في الكاميرون، وكذلك لجميع المجموعات السكانية التي تخيلها النص، لقد كانت مفيدة في بعض الأحيان لسد ثغراتي في هذا المجال.

شكرا لوالدتي، شانتال كينجي تانغا، للإجابة على جميع أسئلتي حول النباتات، والبحث عن الأجوبة، عندما لم تكن تملك أجوبة.

شكرا لفيليب نيامبي موانغي، الذي أحضر لي عناصر ثمينة وحاسمة لكتابة هذه الرواية، على وجه الخصوص، فيما يتعلق بالتصور غير العنصري الذي كان لدينا تجاه الأوروبيين الذين جاؤوا إلى سواحلنا.

ل.م

(7) أحفاد الفراعنة عبر إفريقيا: مسيرة الجنسيات كارا أو نغالا منذ القدم إلى يومسصنا هذا. منشورات أوزيريس أفريقيا، 1985.

المترجم في سطور

سعيد بوكرامي

- باحث وكاتب ومترجم ومحرر ثقافي.
- نشرت له مقالات ونصوص في العديد من الصحف والدوريات.
- من إصداراته في الترجمة «في ضيافة هنري ميللر»: سيرة حوارية لهنري ميللر. تأليف بسكال فريبوس ترجمة 2006 عن دار أزمنة الأردن.
- «أنا يسوع» ترجمة رواية جيلبرت سينويه دار الجمل 2012.
- «تاريخ الهايكو أنطولوجيا شاملة ترجمة» 2013.
- مسرحية «فندق العالمين» لإريك إمانويل شميث عن المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب سلسلة المسرح العالمي يناير 2014.
- «رسائل غرامشي إلى أمه» عن دار طوى 2015.
- مسرحية «الظباء» تأليف هنينغ مانكل عن المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب سلسلة المسرح العالمي 2015 مسرحية.
- «خيانة آنشتين» إريك إمانويل شميث عن المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب سلسلة المسرح العالمي 2017.
- الجبل والسيدة أرنول ترجمة عن إبداعات عالمية 2018.
- رحلة إلى صميم الليل لويس فرديناند سيلين دار ميسكيلياني 2019.

المراجع في سطور

أماني سعد علي أيوب

- أستاذ الأدب الفرنسي المساعد بأكاديمية الفنون (القاهرة).
- محاضرة بمعاهد أكاديمية الفنون من العام 1996 حتى تاريخه.
- دكتوراه في الأدب الفرنسي – بعنوان «الفكر الاجتماعي في أعمال رينيه دي أوبالديا» - 2008 جامعة عين شمس.
- أستاذ مساعد - أدب فرنسي 2018.

لها عدة ترجمات من الفرنسية منها:

- أنوار الجسد – الرماد (فالار نوفارينا) 2008.
- مسرح الكلمات (فالار نوفارينا) 2009.
- البنتوميم ومسرح الجسد (أرنو ريكنر) 2011.

ما صدر من هذه السلسلة

ما صدر من هذه السلسلة

347	مسرحية عذراء أورليان	تأليف: فريدريش شيللر
348	حكايات وخرافات أفريقية (2) الأدغال والسهول العشبية تحكي	تأليف: سليمان جيغو ديوب
349	القصة القصيرة الإسبانو أمريكية في القرن العشرين	تأليف: مجموعة من القاصين المتحدثين بالأسبانية
350	مسرحيتا: 1 - محنة الأخ جيرو 2 - تحوُّل الأخ جيرو	تأليف: وول سوينكا
351	روض الأدب (مختارات قصصية)	تأليف: أو. هنري
352	مسرحية «آنتيجون»	تأليف: ب. بريشت
353	أجمل حكايات الزن يتبعها فن الهايكو	تأليف: هنري برونل
354	مسرحية «المقهى»	تأليف: لاوشه
355	مسرحيتا: -1 صناعة تاريخ - 2 ترجمات	تأليف: برايان فرييل
356	رواية «الشباب»	تأليف: ج. م. كويتتزي
357	مختارات من الشعر المجري المعاصر (شعراء السبعينيات)	تأليف: مجموعة من الشعراء المجريين
358	مسرحيتا: -1 تلاميذ الخوف -2 الغزاة	تأليف: إيجون وولف
359	اسمي آرام (مجموعة قصصية)	تأليف: وليام سارويان
360	حامل الإكليل (قصص مختارة)	تأليف: مجموعة من القاصين المتحدثين بالألمانية
361	الصُّـــــورة (مسرحية)	تأليف: سيلافومير مروجيك
362	الأيام الخمسة الأخيرة لرسول (رواية)	تأليف: تحسين يوجل
363	سبع مسرحيات ذات فصل واحد (من بولند)	تأليف: إيرينيوش إيريدينسكي أندجـي ماليشكا ستانيسلاف ليم (ستانيسواف) سوافومير مروچيك
364	سبع نساء... سبع قصص	تأليف: مجموعة من القاصات الفارسيات
365	زمن الضحك (ملهاة خفيفة من ثلاثة فصول)	تأليف: نويل كاورد
366	بالأبيض على الأسود (رواية)	تأليف: رُوبين دايڤيد غونساليس غاليغو
367	مسرحيتا: -1 سهرة في المقهى -2 موت ممثل مشهور	تأليف: تيان هان

ما صدر من هذه السلسلة

368	إمرأة وحيدة «فروغ فرخزاد وأشعارها» سيرة حياة	تأليف: مايكل هلمان
369	«الملاح» (مسرحية من الأدب البولندي)	تأليف: ييجى شانيافسكي
370	ليلة التنبؤ (رواية)	تأليف: بول أوستر
371	هذا الجيل المحظوظ (مسرحية)	تأليف: نويل كاورد
372	لا وجود لخصومات صغيرة	تأليف: أمادو همباطي با
373	الليلة التي أمضاها ثورو في السجن (مسرحية)	تأليف: جيروم لورنس وروبرت إي. لي
374	مختارات من الشعر الإيراني الحديث	تأليف: مجموعة من الشعراء الإيرانيين
375	العقرب وقصص أخرى (الجزء الأول)	تأليف: بول بولز
376	العقرب وقصص أخرى (الجزء الثاني)	تأليف: بول بولز
377	«الأسيرة» (مختارات من ديوان شعر)	تأليف: فُروغ فرخزاد
378	شارع بريك لين (الجزء الأول)	تأليف: مونيكا علي
379	شارع بريك لين (الجزء الثاني)	تأليف: مونيكا علي
380	الطريق (رواية)	تأليف: كورماك مكارثي
381	مختارات من القصص القصيرة الأوزبكية	تأليف: مجموعة من الأدباء الأوزبك
382	عشيق الصين الشمالية (رواية)	تأليف: مارغريت دوراس
383	المجموعة القصصية الكاملة لإرنست همنغواي (الجزء الأول)	تأليف: إرنست همنغواي
384	المجموعة القصصية الكاملة لإرنست همنغواي (الجزء الثاني)	تأليف: إرنست همنغواي
385	المجموعة القصصية الكاملة لإرنست همنغواي (الجزء الثالث)	تأليف: إرنست همنغواي
386	النمر الأبيض (رواية)	تأليف: آرافيند آديغا
387	موطن الألم (رواية)	تأليف: دوبرافكا أوجاريسك
388	فيلا أماليا (رواية)	تأليف: باسكال كينيارد
389	الإحساس بالنهاية (رواية)	تأليف: جوليان بارنز
390	ياسمينة (وقصص أخرى)	تأليف: إيزابيل إبرهاردت
391	المغامرة الغامضة (رواية)	تأليف: شيخ حامد كَان
392	الرجال الذين يحادثونني (رواية)	تأليف: أناندا ديفي
393	أنطولوجيا القصّة الإيرانية الحديثة	تأليف: مجموعة من الأدباء الإيرانيين
394	حكايات حكماء أفريقيا وأسطورة نجدو ديوال	تأليف: أمادو همباطي با
395	خرائط (رواية)	تأليف: نور الدين فرح
396	إله الصدفة (رواية)	تأليف: كريستن توروب
397	أزهار عباد الشمس العمياء (رواية)	تأليف: ألبرتو مينديس
398	الأبدية بعيدة جدا (وقصص أخرى)	تأليف: تيه نينغ
399	اذهب حيث يقودك قلبك (رواية)	تأليف: سوزانا تامارو

ما صدر من هذه السلسلة


المجلس
الوطني
للثقافة
والفنون
والآداب



ليونورا ميانو

Leonora Miano

ليونورا ميانو، روائية من الكاميرون، ولدت في دوالا عام 1973، وفي عام 1991 رحلت إلى فرنسا من أجل الدراسة، ومنذ ذلك العهد وهي تقيم في باريس. احترفت الكتابة وأصبحت من الأقلام النسوية المتميزة. تتميز بموهبة في الكتابة السردية، استحقت عليها حفاوة نقدية واهتماما أكاديميا، بحيث أنجزت حول أعمالها الروائية أطروحات جامعية مهمة. كما حصلت ليونورا ميانو على العديد من الجوائز، منها جائزة غويوو 2006 وجائزة مونتالبير في 2006 وجائزة روني فالي في 2006 وجائزة برنار باليسي 2006، وصنفت روايتها «أعماق الليل» أفضل رواية أولى بالفرنسية في 2005 وجائزة القارات الخمس وجائزة الغونكور لطلبة الثانويات 2006. ونالت عن روايتها «موسم الظل» جائزة فيمينا في 2013 وجائزة ميتيس في العام نفسه.



موسم الظل

اخترنا لكم من بين خرائط ثريّة وشاسعة من الأدب الأفريقي روائية متميزة، تترجم لأول مرة إلى اللغة العربية وهي الكاميرونية ليونورا ميانو، أول كاتبة إفريقية تفوز بجائزة فيمينا عن روايتها «موسم الظل» الصادرة عن دار غراسي. وهي الرواية السابعة في مشوارها الأدبي. تسرد هذه الرواية حكاية مؤثرة عن منطقة إفريقية تدعى: المولونغو، حيث ستحدث فاجعة مهولة تهب على القرية مقتلعة طمأنينتها. لا تحدد الرواية زمانا محددا ولا وطنا إفريقيا معينا. نحن في أفريقيا جنوب الصحراء، وفي مكان ما.

ما هذه الفاجعة بالتحديد؟ ومن تسبب بها؟

تسعى «موسم الظل» لالتقاط هذه اللحظة التراجيدية ما بين اختفاء العالم المعروف وظهور عالم جديد. ما بين عالم مسالم وعالم عدواني. وما بين عالم مستقل وحر وعالم مستسلم ومقيد ومدجن على الكراهية والمؤامرة.

رواية ليونورا ميانو ملحمية وحزينة تستعرض تاريخا مؤلما من العبودية يكشف لأول مرة تواطؤ بعض القبائل الإفريقية في تجارة الرقيق بدافع الجشع.

سيشعر قارئ «موسم الظل» أنها تكريم لإفريقيا وشعوبها التي عانت من الاستعباد والاجتثاث من أراضيها وثقافتها وجذورها.

هي وجهة نظر عن جنوب الصحراء الكبرى، وعن هزائم الإنسانية، وأيضا عن انتصاراتها الهشة. رواية مؤثرة عن الموت والحياة بعد الموت. رواية عن خمسمئة سنة تقريبا من الظل والاستعباد.



ISBN: 978-99906-0-629-4

رابط بيع الإصدارات على الموقع الإلكتروني
https://www.nccal.gov.kw/publications